

دكتور
حسين مؤنس



نور الدين محمود

نور الدين محمود

الكتور حسين مؤنس

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى - سنة ١٩٥٩

نور الدين محمود

سيرة مجاهد صادق

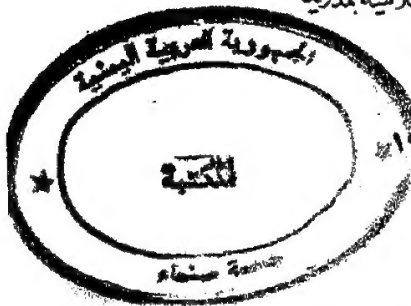
قصة بناء الوحدة العربية الإسلامية لأخراج
الصليبيين من الوطن العربي في القرن السادس الهجري

٩٥١ (١٥٠٠)

تأليف

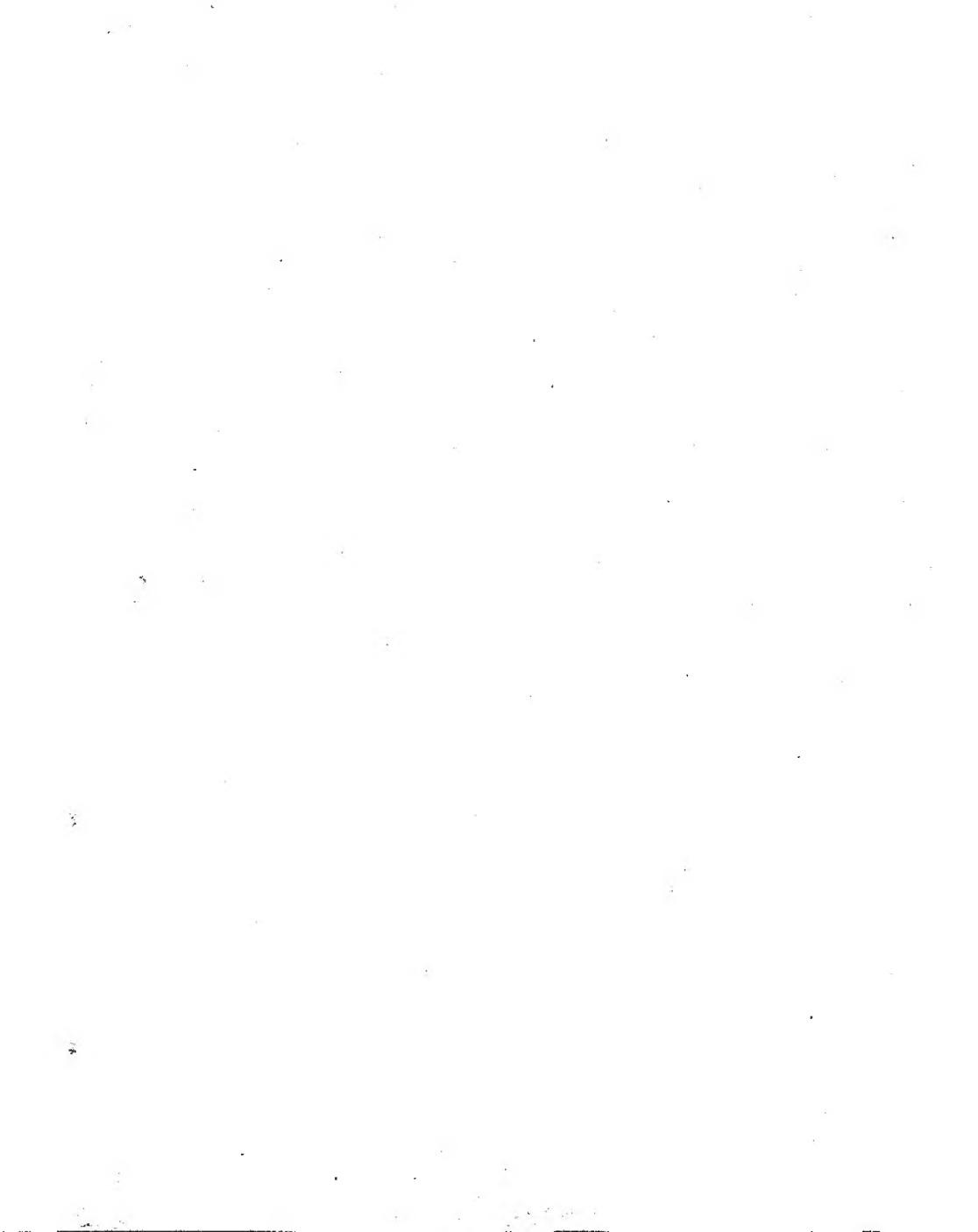
دكتور حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدرسة



القاهرة ١٣٧٨ - ١٩٥٩





لله هدا
إلى الجاهدين في سبيل بناء
الوطن العزى لحرى المتحد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا الكتاب وفاء بعهد قطعته على نفسى منذ سنين ..
فان فى حياة نور الدين محمود لعظة وعبرة تنفعنا فى كل حين..
وكنى كلما طالعت سيرته وققت طويلا عند ما يبدو لى من
خلاله وخصاله ، وتعجبت من تشابه الظروف التى ظهر فيها وظروفنا
منذ سنوات ، فقد ظهر فى أوائل القرن السادس للهجرة وقد استقر
الصليبيون فى الشام وأنشأوا فيه امارات باغية عادية تشبه عدوان
جماعات الصهيونيين على فلسطين ، وكانت تؤيدها وتمدها بالعون
بلاد الغرب الأوروبى كما تؤيد العدوان الصهيونى اليوم ،
وما مكن لأولئك فى الماضى ولهمؤلاء فى الحاضر الا تفرق الكلمة
واختلاف الرؤساء ..

وكان زوال العدوان الصليبي رهينا بجمع الكلمة وتوحيد
الصفوف ، كما أن زوال العدوان الصهيونى رهين بما نحن ماضون
فيه اليوم من توحيد ...

ظهر نور الدين فى ظروف تشبه ما كنا عليه قبل سنوات ...

وتصدى لانتفاذ الوطن العربى الاسلامى ، فكان عليه أن يقوم
برسالتين : التوحيد والتحرير ..

وقد وفق فى الرسالتين ، بفضل ما آتاه الله من ايمان عميق
يسر له العسير ، واقدام رشيد كتب له التوفيق يوما بعد يوم ،
وخلق فاضل كريم ، مكّن له من أن يخوض صراع الموت مع
خصوم لا يعرفون معنى الخلق ، فسادهم بالخلق قبل أن يهزمهم
فى الميادين ، وألقى هيئته فى قلوبهم بالفضل ، وضرب مثلاً عالياً
للمجاهد المؤمن فى كل زمان ومكان كيف يكون .

وما من عقبة اعترضتنا أو تعترض طريقنا الا وقفت فى طريق
نور الدين .

وما من صنف من صنوف أعداء القومية العربية اليوم الا عرفه
نور الدين على أيامه ..

عرف أعداء البلاد المحتلين من الصليبيين والبيزنطيين ..
وعرف الأتانيين الطامعين الذين يخونون القضية الكبرى فى
سبيل مغنم يسير ..

وعرف المضللين الذين يزعمون أنهم مع المكافحين وهم أضربنا
من الأعداء الواقفين ..

وعرف ضعاف النفوس الذين يقعد بهم الخوف والصغار عن
التقدم الى ميدان الفداء ..

وعرف المدبرين بـليل ، الذين يندسون بين المجاهدين للافساد
والتخذيـل ..

وعرف ضعاف الأخلاق الذين تغلب عليهم الشهوات ..
عرفهم كما عرفناهم ، وكان عليه أن يصارعهم كما نصارعهم
اليوم ..

وعرف الى ذلك قلة المال والحاجة الى الموارد للنفقات .
وعرف من مشاكل الادارة ومتاعب الاصلاح الاجتماعى
ما نعرفه نحن اليوم .

وعرف ، بعد هذا كله ، كيف يواجه الأعداء جميعا ، والمشاكل
مجتمعات . وكانت له مع الأعداء الأيام البيض ، فعقد برائاتنا من
النصر ما يجعله فى الطليعة بين قوادنا المظفرين ، وكانت له فى
المشاكل الداخلية آراء وحلول تجعله فى الرعيل الأول من
المصلحين الاجتماعيين .

وقد نهض لهذا كله وهو أقل أمراء عصره أرضا ومالا ، ولكنه
أوتى من الايمان والحزم والفضيلة ما جعله أقوى رجال عصره
وأوسعهم بلادا فى الشرق والغرب على السواء ..

فإذا كانت فى ماضينا عبرة تنفعنا فى يومنا ، فهذه العبرة هى
سيرة هذا المجاهد فى سبيل الحق ، المرباط فى سبيل وحدة الوطن
العربى ، المكافح فى سبيل اجلاء العدو عن ديارنا ، نور الدين

لهذا ، أخذت على نفسى ، منذ سنين ، عهدا بأن أقدم لأبناء
الوطن العربى الناهض سيرة هذا البطل الذى وحد مصر والشام ،
وجمع العالم الاسلامى كله على لواء النصر والفداء .
وهذه هى بين يديك ، أرجو أن يحقق الله بها من النفع
ما أرجوه ..

والله المستعان ، سبحانه ولى المجاهدين ..
ولى كلمة قبل أن أدع هذا التقديم اليسير ..
لقد تصدى نور الدين لحرب الصليبيين على أنهم أعداء
معتدون على الوطن العربى ، لا على أنهم مسيحيون ..
وقد كان ايمان الرجل بالاسلام ايمانا سليما يذكرنا
بايمان رجال الدولة الاسلامية الأولى ، ممن كانوا يعرفون أن
دار الاسلام دار سلام لمواطنيها أجمعين ، لا فرق بين مسلمين
وغير مسلمين ..

وقد تصدى نور الدين لاستنقاذ نصارى الوطن العربى من
ظلم الصليبيين ، وكان الصليبيون اذا دخلوا بلدا اعتدوا على
المقدسات ، أما نور الدين فلم يمس كنيسة ولا آذى غير مسلم ،
وكان يكرم الرهبان والقسيسين .

واذا كنا نقول انه جمع المسلمين وأعز الاسلام ، فالمراد أنه
جمع مواطنى دولة الاسلام وأعز أديانهم أجمعين ..

وحقيق بالعرب والمسلمين جميعا أن يملأوا قلوبهم من سيرة
نور الدين ..

فقد نهض للدفاع عن وطننا أجمعين ، وإن كانت لغة العصر
تعبّر عنا كلنا بلفظ المسلمين ..

وسبحان من أراد له أن يسمى نور الدين ، وهو نور لكل دين .

صين مؤنس

مدير { ذو القعدة ١٣٧٨
مايو ١٩٥٩

عقيدة التوحيد والاتحاد

الاسلام دين التوحيد

ودولة الاسلام دولة الاتحاد .

فكما أن الايمان بوحدانية الخالق جل جلاله ركن الاسلام ،
فاذا أشرك الانسان بالله أو شابت عقيدته في وحدانيته شائبة خرج
من زمرة المؤمنين ، فكذلك دولة الاسلام لا يستقيم أمرها الا اذا
توحدت أطرافها واجتمع الناس فيها تحت راية واحدة وعلى كلمة
واحدة ، فاذا تفرق المسلمون واختلف أمرهم وانفرد كل منهم
بناحية وتنافسوا على السلطان ، وهنت دولة الاسلام وعدا على
نواحيها الظامعون وتقاسموها وذهب أمرها بددا .

والتاريخ خير شاهد على ما تقول :

فقد اجتمعت كلمة المسلمين أيام الرسول صلوات الله عليه
وأيام أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فدان لهم من البلاد في
نصف قرن من الزمان ما لم يوفق الى مثله الرومان في قرون ، ثم

اختلفوا خلال النصف الثاني من خلافة ذي النورين عثمان وخلافة فارس الاسلام على كرم الله وجهه فتوقفت الفتوح ، وتقلص ظل الاسلام عما فتح من بلاد المغرب .

وعادت الوحدة على يد معاوية بن أبي سفيان وخلفائه ، فتجدد نشاط الفتوح في كل وجه ، وبلغت رايات الاسلام سهول الهند وغابات وسط فرنسا ، وانتظمت أمور المسلمين وأزهرت حضارتهم ، وبدت وكأنها نجم صاعد لا يزداد على الأيام الا بهاء .

ثم اختلف أمر المسلمين ، وانتشر نظام الوحدة ، وانفرد أهل كل صقع اسلامي بدولة حسبوا أنهم يبلغون بها ما لا يبلغونه بالوحدة ، فما أسرع ما انفرد بكل فريق منهم طاغية يرهقهم من أمرهم عسرا ويذيقهم من العذاب ألوانا ، ثم شدت عليهم جحافل الأعداء وتكالبوا عليهم من كل طريق ، واستغلبوا بلادهم بلدا بعد بلد ، فضاع الأندلس رويدا رويدا . حتى لم يبق فيه موحد بالله أو مسجد يتردد من صومعته الأذان ، وضاعت جزائر البحر الأبيض : صقلية والجزائر الشرقية وكريد وما إليها . وما هو الا قليل حتى أقبلت جحافل العدو كأنها قطع الليل تدق أبواب المغرب والشام ، بل تدفقت جيوش الروم من آسية الصغرى فاستغلبت حواضر الاسلام في شمال الشام والجزيرة ، وبدا وكأن مصير خلافة الاسلام كلها في الميزان .

كل ذلك والمسلمون سادرون في الطريق الذي ارتضوه
لأنفسهم ، غافلون عما يؤدي بهم اليه من التلف ، وقد انفرد بكل
ناحية من نواحيهم ، بل بكل بلد من بلادهم ، نفر من طواغيت
الحكام يستنزفون خيراته ويذلون أهله ويجمعون الأموال ،
حاسبين أن ذلك السلطان الذي بأيديهم هو أقصى ما تطمح اليه
النفوس ، فما راعهم الا جحافل الصليبيين تنصب عليهم من الشمال
فتنزعههم عن عروشهم نزعا ، وتعمل في رعاياهم السيف والنار ،
فلا ينجو من القتل الا الأسير والشريد ، ثم يدخل الصليبيون بيت
المقدس فيغرقونه في بحر من الدماء ويسيطرون على عقدة بلاد
الاسلام ، ويعبرون العراق وينشئون في الجزيرة الفراتية امارا
الرثا ، وتستقر لهم في عقر ديارنا مملكة وأربع امارات ، أصبحت
كالسيف المصلت على رقاب العرب والمسلمين أجمعين . وترامت
أطماع هؤلاء الغزاة الى مصر ، بل أخذ بعضهم يعد العدة للسير
الى الحجاز والاعتداء على أقدس مقدسات المسلمين ، امعانا منهم
في الاستضعاف والاستذلال .

ومع ذلك لم يفتن قادة المسلمين الى أن ذلك الشر كله انما
نجم عن التفرق وضيعة الاتحاد ، وأن العلاج الناجع هو ضم
صفوفهم واجتماعهم يدا واحدة ، ولكن همتهم لم تسسم بهم الى

هذا المطلب اليسير على المخلصين العسير على الضعفاء والضالين . فلم يزالوا فى عز ذليل بين أيدي الغاصبين حتى تدارك الله دينه وأهله بدعوة الوحدة ينادى بها تفر من فرسان الاسلام فى الموصل ، وما زالوا يجاهدون ويستشهدون ، ويعقب بعضهم بعضا على حمل الراية حتى انتهت الى نور الدين محمود ، فعاد بالدعوة الى صفاء الاسلام الأول وروحانية صدر الاسلام ، وما زال يستألف المتردد ويغالب المعاند حتى جمع الشام وشمال العراق على غاية واحدة ، ثم مد نظره الى مصر وبعث جنده ليستنقذوها من فوضى الفاطميين قبل أن تغرقها أمواج الصليبيين ، ثم مضى الى ربه شهيدا كريما وخلفه صلاح الدين ، وعلى يديه اكتملت الوحدة ، ف ضرب الضربة القاضية التى أعزت الاسلام وحررت الشام واستخلصت بيت المقدس وخرجت بالعرب والمسلمين من غمرات العدوان والظلمات . وما بقى من تاريخ الاسلام الى يومنا هذا ان هو الا تكرار لما أوردنا فى ايجاز : اتحاد وقوة وعزة ، أو تفرق وضعف وذلة ، وما مأساة العالم الاسلامى فى العصر الحديث الا مصداق لما ذكرناه . فقد استعلبتنا أمم الغرب وتوزعتنا مستعمرات وحمايات ، لأننا كنا تفاريق يجرى كل منا فى طريق ، ولا يكاد بلد من بلادنا يحفل لما يجرى فى البلد الآخر ، فسهل على الأعداء استغلالنا ،

فلما أفقنا من الغفوة وتنبهنا الى ما صرنا اليه وصرفنا همتنا الى الوحدة خرجنا من الظلمات الى النور ، وأظفلتنا رايات الاستقلال والحرية والعزة ، وعدنا الى فتوة الصحوة الكبرى أيام نور الدين الشهيد وصلاح الدين المجيد .



وهذا الاتفاق في تاريخنا بين الوحدة والعزة ليس من قبيل المصادفات ، ولا تقوله على أنه لون من فلسفة التاريخ ، بل هو في واقع الأمر حقيقة بسيطة نبتت من طبيعة الاسلام الذي انعقدت عليه قلوبنا .

فان الاسلام — كما قلنا — دين توحيد : توحيد الباري جل جلاله ، وتوحيد القلوب على ما فيه خير الاسلام والمسلمين ..
وليس في قواعد الاسلام وفرائضه الا ما يحمل معنى الوحدة والدعوة الى الاتحاد :

فان الصلاة في صميمها دعوة الى التوحيد والاتحاد ، وما اجتماع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ووقوفهم صفاً واحداً في ساعات معينة من النهار والليل ، واتجاه وجوههم نحو قبلة واحدة ، الا احياء بالاتحاد وتذكير به من قريب ومن بعيد ، فليس بين عقائد البشر عقيدة تأمر المؤمنين بها بالاتجاه أثناء

- الصلوات وجهة واحدة وتوقيتها بمواقيت واحدة الا الاسلام ، وليس المقصود بالقبلة الواحدة الاتجاه الى الله نحوها ، فان الله سبحانه وتعالى في كل مكان (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وانما المقصود أن يشعر المسلمون أنهم أمة واحدة ، ذات وجهة واحدة ، وتسير في طريق واحد ، في وقت مقرر معلوم ، حتى يتحقق توحيد الحركة في الزمان والمكان .

والحج الى بيت الله لم يقصد من ورائه الا اجتماع المسلمين وتلاقيهم مرة في العام في صعيد واحد ، ليعرف بعضهم بعضا وليتبادلوا الرأي والمشورة ، وان من حضر الموسم وشهد اجتماع الحجيج على عرفات ، أمما شتى من مشارق الأرض ومقاربها ، كلهم في زى واحد يهتفون بهتاف واحد على اختلاف لغاتهم ، وتنبض قلوبهم على وقع واحد ، ليدرك المعنى البعيد الذي أراده باري الاسلام سبحانه .

والصيام في صميمه احياء وتذكير بالمساواة بين المؤمنين ، فاذا كان فيهم الغنى والفقير في غير رمضان ، فان صيام رمضان يجعلهم طبقة واحدة لا يصيب الغنى والفقير فيها من الزاد الا ما لا يعز على انسان ، وهم يتناولونه جميعا في وقت معلوم . فاذا كانت الصلاة دعوة الى الاتحاد الروحي والعسكري ، والحج دعوة الى الاتحاد

السياسى ، فان الصيام دعوة الى التوحيد فى شئون الاجتماع .
وكذلك الزكاة ، فهى سهم من مال الغنى يخرج للفقير ، حتى
يشعر الموسر أن الله لم يرزقه المال ليستمتع به وحده ، بل قدر فيه
نصيبا للمعوز والمحتاج ومن قعدت به الأيام ، فهى دعوة الى
التقريب بين من يملك الكثير ومن يملك القليل ، وهى فى روحها
دعوة الى توحيد القلوب والأحاسيس .

وهكذا لا تجد ركنا من أركان الاسلام أو فرضا من فروضه
الا وهو يحمل معنى الوحدة والتوحيد . وما ذلك كله الا تنبيه من
الله لعباده الى أن الوحدة أساس سلامة الاسلام والمسلمين ، لأن
عز الاسلام مرهون بعز أهله ، وكلاهما مرتبط باجتماع أمر المسلمين .
واذا كان لتاريخ كل جماعة محور يدور عليه ، فان محور
تاريخ العرب والمسلمين هو الوحدة واجتماع القلوب .

ان أمما من أهل الأرض يدور تاريخها حول محاور أخرى ،
كالالاقتصاد ، فيرتهن عزهم بما يستخرجونه من خيرات البر والبحر
وما يقيمونه من متجر وما يكسبونه من مال ، كما نرى فى أحوال
بعض بلاد أوربا ، فان كل شئ فى حياتها مرتبط بالمال مرهون بما
لديها منه ، فاذا اجتمع لديها المال نهضت وتقدمت وقامت دولها ،
واذا قل المال فى أيديها ضاع أمرها بددا ، وهى لهذا تدير التاريخ

حول الاقتصاد ، وتفسره على أنه صراع بين الانسان وما حوله ومن حوله ، كلما سخر الانسان من الطبيعة شيئا زاد قوة وتقدما ، وكلما غلب جارا من جيرانه عزّ وساد . والمطلب الأخير عندهم هو المال والغنى والجاه ، وكل شيء في الحياة يتحول عندهم الى مال أو يقدر بمال .

ومن الأمم ما يدور تاريخها حول الانفراد بنفسها في أرضها مهما ضاقت ، فهي لا تزال أبد الدهر تحارب عن الأرض التي تقيم عليها وتضحي في سبيل ذلك بكل شيء ، فإذا تم لها الانفراد بنفسها واستقلت عن سلطان غيرها كان في ذلك عزها ؛ وعلى هذا المحور دار تاريخ أوروبا خلال القرنين الماضيين ، وهذا هو ما يسمونه بالتفسير القومي للتاريخ .

أما نحن فإن محور تاريخنا هو الاتحاد ، فإن بلادنا شاسعة مترامية ، وموارد الثروة فيها منشورة على بساط فسيح يمتد من محيط الى محيط ، وبلادنا هي مركز الدنيا ، لا يذهب ذاهب بين الشرق والغرب الا مر بها ، والمطامع فيها لهذا كثيرة والأعداء أكثر من أن يحصوا ، وهذه المطامع لا ترتد الا اذا أعددنا لها ما يكفي لردّها من القوة المتجددة يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، وأولئك الأعداء لن ينقطع شرهم عنا الا اذا اجتمعت قوانا لردهم عن أي

موضع من بلادنا أرادوه بالأذى وفى أى وقت ظنوا فيه غررتنا ، وهذا وذاك لا يتأتيان الا عن سياسة واحدة مرسومة للدفاع والحماية ، وبقظة متصلة ورباط دائم على الحدود والشعور ، فاذا لم تكن هناك سياسة واحدة ترسم خطط الدفاع عن ذلك العالم الفسيح ، واذا لم تكن هناك قوة مجمعة متربصة على الأهبة لترد العدوان ، واذا استطاع الأعداء أن يفرقوا بعضنا عن بعض ، غلبونا فريقا بعد فريق ، وأخضعونا لسلطانهم وقضوا علينا من أيسر طريق .

وأقوى أسلحتنا لمواجهة هذه الأخطار هو الاتحاد ، فان بلادنا متسعة ، ووطننا العربى الكبير يمتد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بحيث لا تستطيع أمة من الأمم أن تغلبنا على أمرنا فيه ، وهى كلما غلبتنا فى موضع منه انسحبنا الى الذى يليه حتى تطول مواصلاتها وتبدد قوتها فى بطائننا وصحارينا .

وقد تنبه الروس من قبلنا الى ذلك ، فمدوا رقعة بلادهم آلافا من الأميال من بحر البلطيق الى المحيط الهادى ، فاذا قصدهم عدو لم يكن عليهم بأس فى أن يتراجعوا أمامه حتى يوغل فى بلادهم ويضيع فى مهامها ، فاذا طالت خطوط مواصلاته وتفرقت جيوشه على الطريق الطويل ، أخذت جماعات الفدائيين تتخطف جنوده

وتهاجم مواقعه المتفردة حتى يهين عزمه ، ثم يأتى الخريف ،
فتهبط الأمطار سيولا وتحيل الأرض الى مستنقعات يتعذر على
العدو السير فيها ، فيخرجون للقائه وقد أنهكت قواه ، وينالون
منه المرة بعد المرة حتى يهلك ، ثم يأتى الشتاء وتتراكم الثلوج
فتدفن بقاياها . ولقد أوغل الفاتحون فى بلادهم حتى بلغوا موسكو ،
ثم ارتدوا عنها فلولا محطة ، ولو أن الوطن الروسى كان مقسما
قطعا لاستغلبها العدو واحدة بعد أخرى دون مشقة .

ونحن كذلك وطننا فسيح يمتد من المحيط الى الخليج ، فلو
أرادنا عدو من شرق أو من غرب لم يتوسط بلادنا الا هلك ، ولدينا
حرارة الشمس تقوم مقام الثلوج . فأرضنا وحدها تحارب عنا كما
تحارب أرض الروس عنهم ، وهم يقولون فى تاريخهم ان أعظم
قوادهم هو « الجنرال خريف » لأن أمطار الخريف عندهم هى
التي تمهد الطريق لهزيمة عدوهم ، ومن أسف أننا لا نستطيع أن
نقول شيئا مثل ذلك ، لأننا أضعنا ميزة اتساع أراضينا بتقسيمها
قطعا وأوطانا متدايرة ، وما هى الا وطن واحد .

وتلك الوحدة لا تقوم الا اذا قامت من أول الأمر على ايمان
بضرورتها ، فاذا استقر هذا الايمان فى القلوب وأصبح عقيدة ثانية
مرادفة للإيمان بالاسلام أصبح من اليسير جمع كلمة المسلمين اذا

تهدد بلدا من بلادهم خطر ، أو اذا تعرضت ناحية من نواحيهم
لمحنة أو شدة . فهذا الايمان بالوحدة يبعث في تاريخنا الروح
ويعطيه معناه ويضفى عليه جلاله .

*

واذا تأملت هذا التاريخ الطويل بدا لك بوضوح أن أبطاله
الحقيقيين انما هم أبطال توحيد وتوفيق ، في حين أن أبطال
التاريخ الأوروبي مثلا أبطال تفريق وتقسيم . فقلهم تل يعتبر
رمز البطولة السويسرية لأنه فصل بلاده عن امبراطورية
الهابسبورج ، ولهم الصامت كبير أبطال الأراضي المنخفضة لأنه
فصلها عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، ومارتن لوثر أكبر
أبطال التاريخ الألماني هو الذي قسم الناس الى بروتستانتين
وكاثوليكين ، في حين أن أبطالنا كرجال الفتوحات الأولى وعظماء
خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، ثم فرسان السلاجقة من أمثال
طغرل بك وألب أرسلان وملكشاه ، ثم أبطال الحروب الصليبية
مثل عماد الدين زنكى وابنه نور الدين وصالح الدين ، ثم عظماء
دول المماليك كالظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون ، وقادة
جحافل المسلمين المظفرة التي أوغلت في آسيا مثل الغزنويين ،
وأبطال الاسلام الغربى الذين نافحوا عن الأندلس والمغرب مثل

يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وعبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين وابنه أبي يعقوب يوسف وحفيده يعقوب بن يوسف المنصور ، وغيرهم كثيرون ، انما هم رجال وحدة وأبطال اتحاد ، ليس منهم من سعى الى فصل بلد اسلامي عن بلد اسلامي ، بل اتجهوا جميعا الى جمع الكلمة وتوحيد جبهة العرب والمسلمين .

وهؤلاء هم الأبطال الحقيقيون لتاريخ الاسلام ، وسر بطولتهم هو احساسهم بضرورة الاتحاد وسعيهم اليه واخلاصهم في تحقيقه . وقد يقال ان تفرا منهم انما كانوا يؤثّلون لأنفسهم مجدا ولأشخاصهم سلطانا ، وهذا قد هو أقرب الى المديح ، لأن أحدا من أولئك الأبطال ما كانت نفسه تطمح الى ذلك المطلب البعيد الا ودافعه اليه قلب كبير ، لأن طلبه الانسان من الجاه — مهما كان طمعه فيه وشرهه اليه — يسدها ملك بلد واحد ، أما التماذي الى ما وراء ذلك فلا يدفع اليه الا شيء أكبر من طلب الملك والجاه ، هو توحيد الكلمة .

فتور الدين مثلا كان حريا بأن يقنع بملك حلب وحدها اذا كان يرجو الجاه والمال والسلطان ، وسعيه الى توحيد الشام وتعريض نفسه للأخطار انما دفعت اليه الرغبة في توحيد أمر المسلمين تمهيدا للخلاص من الصليبيين . وكذلك كان صلاح الدين

حريا بأن يقنع بملك مصر ، وهو ملك عظيم يؤتیه من الله والجاه والسلطان ما يربو على مطالبه منها ، واجتهاده في ضم الشام والجزيرة الفراتية انما كان تمهيدا لدفع الصليبيين وتوحيد كلمة المسلمين واعزاز العروبة .

وهنا تبدو لنا البطولة الحقيقية لأولئك الأفذاذ : انها ليست بطولة النصر والظفر فحسب ، بل بطولة تحقيق هدف الاسلام البعيد وهو توحيد دولة الاسلام ، بطولة ورثها واحد عن واحد ، وتعاقبوا على حمل رايتها ، رجلا بعد رجل ، ولولا جهود هؤلاء الأبطال واستبسالهم في الدفاع عن وحدة العروبة والاسلام لضاع الأمر من زمن بعيد ، لأن الوحدة ركن الجماعة الاسلامية وأساسها كما أن التوحيد ركن الاسلام ولبابه .

وليس في الدنيا شعوب تؤمن بالوحدة كما تؤمن بها شعوب الاسلام ، حتى جماعات الشعب التي توصف بأنها غير متعلمة أو غير مثقفة ، تدرك بفطرتها فضل الوحدة ومعناها ومرماها ، ولا تزال أبد الدهر ساعية الى الاتحاد بغيرها من شعوب العروبة . وقد ظهر في كل شعب منها نفر من رجال السياسة أو طلاب الحكم ، حاولوا الانفصال ببلادهم عن الجماعة الكبرى ، ومضوا يتحدثون عما يسمونه « قومية » و « مصالح محلية » أو دعوا بدعوات

تناقض الوحدة العامة ، فنفرت منهم الشعوب نقورا طبيعيا
فطريا ، وناصبتهم العدااء ولم يطمئن لها خاطر حتى فرغت من
أمرهم .

ان جماعات الشعب الساذجة لديها ادراك غريزي لما ينفعها
وما يضرها ، وهي تميز بالحاسة السليمة بين من يصدقها ومن
يضلها ، بين من يعمل لصالحها ومن يخدعها ، فتؤيد الصادقين
المخلصين وتنفّر من المضلّلين والمخادعين ، وقد أعيت بهذا الفهم
القطري جهد شطار السياسة وطواغيت الدول وحيرتهم في أمورهم ،
وأرغمتهم على أن يرفعوا النقاب ويبدوا لها سافرين حتى تصنى
حسابها معهم . وكما عرفت أمة العرب كيف تجزى بالخير المحسنين
اليها العاملين على وحدتها ، عرفت دائما كيف تعاقب المسيئين اليها
وتناقشهم الحساب ، أو تعفى على ذكراهم اذا غالهم الموت دون
الحساب .

ولقد عاشت شعوب العرب والمسلمين بعضها منفصل عن بعض
فترات طويلة من تاريخها ، ولكنها ظلت أبدا متحدة بانقلب
والعاطفة والايمان ، وما من مسلم الا ويشعر أنه أخ لكل مسلم
في مشارق الأرض ومغاربها ، لأن فكرة الوحدة مرتبطة في أساسها
بفكرة الاسلام . ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أرسى

أساس الأمة الإسلامية في المدينة المنورة ووضع أول دستور لدولة الإسلام — وهو الكتاب الذي كتبه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار وموادعة يهود — قرر فيه أن « المؤمنين والمسلمين من قریش ویشرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أمة واحدة من دون الناس » . ونص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن المؤمنين أمة واحدة عظیم المعنى والمغزى ، فقد جعل الوحدة الصفة الأولى للأمة الإسلامية ، مهما اختلفت مواطنها وبلادها . وإذا التزمنا طريقة المحدثين في تفسير معنى هذا الحديث قلنا ان أمة الإسلام لا تصح الا اذا كانت واحدة ، والوحدة هنا شرط وجوب ، خاصة وأن رسول الله أيد هذا المعنى في نفس الكتاب بعبارات كثيرة ترمى الى توكيده ، فقال : « والمؤمنون بعضهم موالى بعض دون الناس » ، « وسلم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم » ، « والمؤمنون لا يتركون مقرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف » و « أن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة (= عزيمة) ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين » ، « وأيديهم عليه جميعا » ، الى آخر هذه القواعد الانسانية السليمة التي رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة الإسلام ، وكلها قواعد

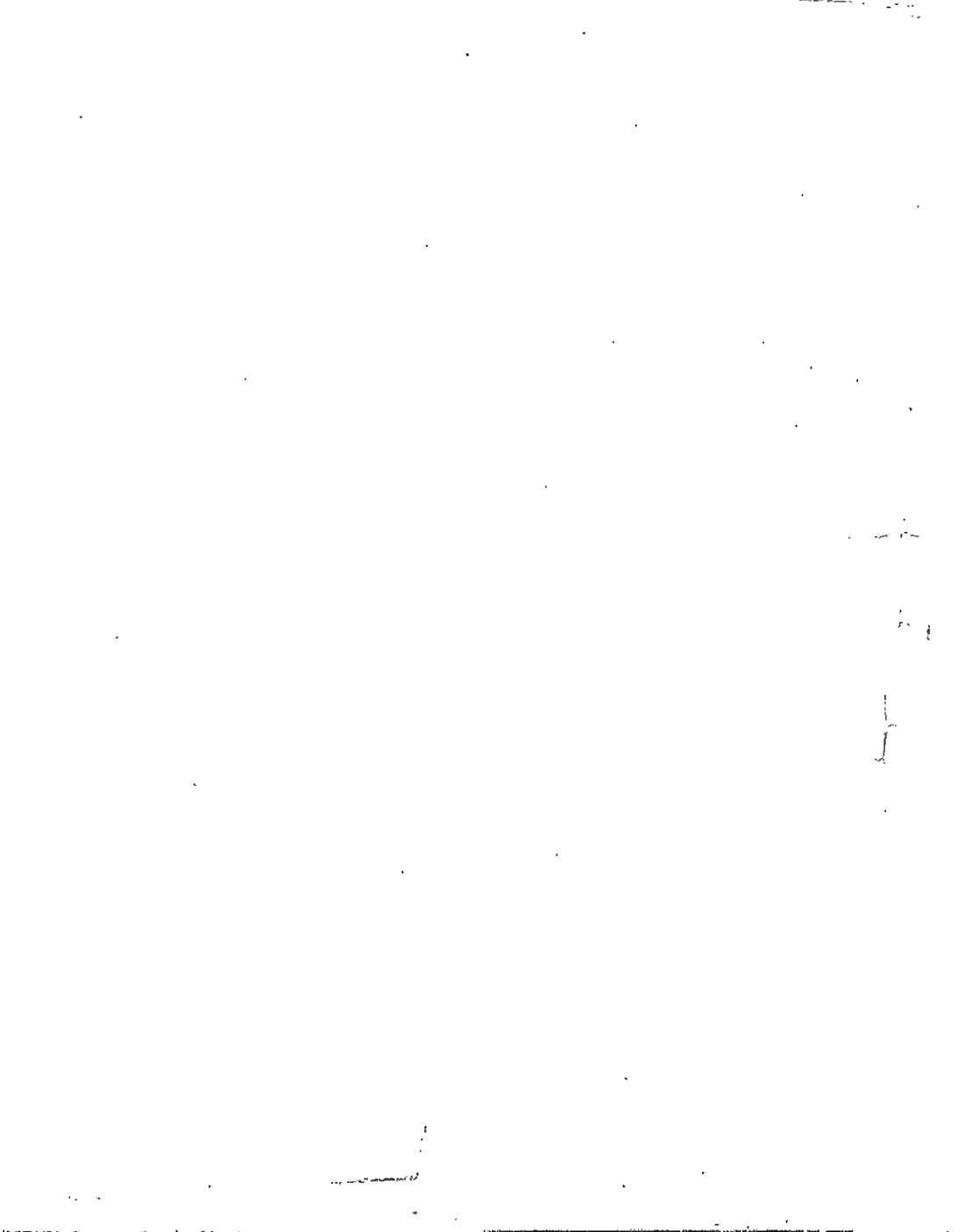
ترمى الى التوحيد وجمع الكلمة ، وقد أدركت شعوب الاسلام ذلك المغزى ووعته وسارت عليه ، وان كانت عواصف السياسة ومطامع الرؤساء والحكام قد عطلتها في بعض الأحيان .

وقيام هذه الأمة الاسلامية الواحدة لا يتنافى مع وجود تنظيمات سياسية مختلفة في داخلها ، ما دامت كلها متآخية مترابطة عاملة على الوحدة ، فان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى بعض الجماعات التي تكونت منها الأمة على أيامه الحق في تنظيم شئونها : « فبنو عوف — مثلاً — على ربعتهم (= حالهم) يتعاقلون معاقلهم (أى يدفعون دياتهم) الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » ، وكذلك بنو ساعدة وبنو الحارث وغيرهم ، بل ان اليهود الذين كانوا في شرب وعاهدوا الرسول اعتبروا جزءاً من الأمة : « ... وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوتغ (= يهلك) الا نفسه وأهل بيته » ، وكذلك يهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وغيرهم كثيرون . أى أن أمة الاسلام تشمل من عاش في أرضها وعاهدها وصدقها من غير دينها ، ولم يقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الا رغبة منه في تحقيق الوحدة والنص على أنها العماد الذى تقوم عليه دولة الاسلام .

أول دستور للأمة الإسلامية

فكل داع الى توحيد كلمة العرب والمسلمين انما هو بان
للركن الأول من أركان دولة العرب والمسلمين .
وكل عامل على التفريق ، أو داع الى الانفراد بقومه دون
اخوانهم من أهل الوطن العربى الواحد ، انما هو عدو للوطن
العربى هادم للركن الحصين فى بناء دولة الايمان واقامة عز العرب
والمؤمنين .

ولا حاجة بنا الى التماس الحجج والبراهين على ذلك من آى
الكتاب الحكيم ، فان كل آية من آياته انما هى دعوة الى التألف
والأخوة ، وتنبيه للمؤمنين الى فضائل اتحاد القلوب .



صحة القرن الخامس الهجري

رُبَّ قومٍ قد أناخوا عيسمهم في ذمري مجدهم حين يسق
سكت الدهر زماناً عنهم ثم أبكاهم دماً حين نطق
«أعشى قيس»

يعرف المتبعون لتاريخ الاسلام أن اتساع دولته لم يتم على صورة نمو متصل أو فتوح متوالية ، كما هو الحال مع غيرها من كبار الدول التي قامت على طول التاريخ ، وإنما تحقق هذا الاتساع نتيجة لوثبات ضخمة تفصل بين بعضها البعض فترات تتراوح بين القرنين والثلاثة قرون . ومع كل وثبة من هذه يمتد رواق الاسلام بضعة آلاف من الأميال يثبت عندها حتى تقبل الوثبة التي تليها ، وقد يحدث أن ترقد حدود دار الاسلام قليلاً أثناء فترات السكون .

كانت الوثبة الأولى في صدر الاسلام ، وقد بدأت على أيام

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوقفت حوالى نهاية القرن الهجرى الأول (أوائل القرن الثامن الميلادى) ، ووصلت برايات الاسلام قرب نهر السين من ناحية الغرب ومصب نهر السند من ناحية الشرق .

وكانت الوثبة الثانية فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين (أواخر العاشر الميلادى وأوائل الحادى عشر) ، فامتدت حدود دار الاسلام شرقا حتى شملت النصف الشمالى لشبه جزيرة الهند ، ودخلت فى الاسلام — شيئا فشيئا — شعوب الأتراك الضاربة بين فارس وحدود الصين ، أما فى ناحية الغرب فقد امتد الاسلام من جنوب المغرب الأقصى حتى شمل غرب افريقية حتى أعالى نهر النيجر .

وبدأت الوثبة الثالثة فى أوائل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ودامت حتى نهاية العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) ، وفيها أزال الاسلام الدولة البيزنطية وأوغل فى شرق أوروبا حتى وصل الى أبواب قسطنطينية ، ثم تراجع بعض الشيء واستقر عند الحدود الغربية لما يعرف اليوم برومانيا ، وامتد رواق الاسلام فى آسيا حتى وصل الى الملايو واندونيسيا ، أما فى افريقية فقد ضم النوبة والسودان الشمالى حتى وصل الى مستوى بحر

الغزال ، ومن غربى السودان أوغل فى نيجيريا وثبت أقدامه فيها .
وقد قام بكل وثبة من هذه الوثبات شعب جديد دخل الاسلام
وتحمس له وحمل رايته ، فأما الوثبة الأولى فقد حمل عبأها العرب
ومن دخل الاسلام فى ذلك العصر المبكر من الفرس فى الشرق
والبربر فى الغرب ، والبربر هم أهل الشمال الأفريقى الأصلاء .
وأما الثانية فقد قامت بها فى آسيا شعوب الأتراك ، وكانت
جماعات بشرية وافرة الأعداد ظاعنة فى الفيافي والبطاح الواسعة
المتدة من شرقى فارس الى حدود الصين . وقد تولى كبير هذا
الزحف منهم الغزنويون ثم الغوريون ثم السلاجقة ، أما فى افريقية
فقد حملت الراية قبائل عفية من أهل جنوبى ما يعرف الآن
بمراكش ، وأنشأت فى ظل الاسلام دولتى المرابطين والموحدين ،
اللتين قامتتا بالدفاع عن الأندلس الاسلامى ، ومدت بساط الاسلام
حتى أعالى النيجر .

والثالثة حمل لواءها الأتراك العثمانيون فى آسية الصغرى
وأوروبا ، وأهل السودان الشمالى والمغرب الأقصى فى افريقية ،
وأهل حضرموت وجنوبى شبه الجزيرة العربية والهند فى آسيا .
ويلاحظ أيضا أن الشعوب التى قامت بهذه الحركات الواسعة،
لم تبدأ بالسير الى الأمام براية الاسلام الا بعد أن قامت بتوحيد

بلاد المسلمين في ناحيتها ، وأن اتجاهها الى التوسع كان نتيجة توفيقها في التوحيد . فكان الوحدة هي أساس ذلك الاتساع كله : .
إذا اتحد المسلمون تجمعت قواهم وجاشت صدورهم بالحمية ، فمضوا ينشرون كلمة الاسلام في كل وجه .

ويلاحظ أخيراً أن هذه الشعوب كلها لم تكد تدخل الاسلام حتى بدأت تستعرب : جرت اللغة العربية على ألسنة أهلها ، وآمنت بالمثل الأخلاقية العربية الإسلامية ، واندرجت في تيار العروبة وتصدت لحمل راياتها . فاذا لم يتيسر للعربية أن تغلب لغاتها الأصلية ، فلا أقل من أن تصبح لغة العلم والثقافة ، وقد اتخذ أهلها جميعاً أسماء عربية ، أى أصبحت عربية بالقلب والروح والاحساس .
فدولة الاسلام على هذا بناء ضخيم أسهمت فيه أمم الاسلام جميعاً ، وهى في صميمها دولة عربية عامة ، ولا يغير هذه الحقيقة أن بعض شعوب الاسلام لا تتحدث العربية ، فإن اللغة وسيلة لنقل الأفكار ، ولكنها ليست الأفكار نفسها ، ولا فرق بين أندونيسى وهندى وفارسى وعربى في الاحساس والتفكير وإن اختلفت اللغات : كلهم يعتزون بالماضى العربى ، ويشاركون العرب احساسهم بالحاضر وأمانى المستقبل ، وهذا هو المقياس السليم الذى يحسب له حساب في التاريخ .

*

كان السلامة قبيلة من هؤلاء الأتراك الذين دخلوا الاسلام وتمثلوه في كيانهم ثم انتصبوا يحملون رايته ، فقد دخلوا الاسلام أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وأخذوا طريقهم الى القوة والسلطان ، فلم يحل القرن الخامس الهجرى حتى كانوا قد أوسعوا لأنفسهم مكانا رحبا في شرقى الهضبة الايرانية ، ثم تيسر لهم كسب انتصار حاسم على الغزنويين عند دتدقان في رمضان ٤٣١ / مايو ١٠٤٠ واحتلوا نيسابور ، وكتبوا الخليفة العباسى ، فولاهم هذه النواحي . وبدأت صفحة جديدة في تاريخ هؤلاء المحاربين الأشداء .

كانوا الى ذلك الحين مجرد محاربين يجتهدون في أن يوسعوا لأنفسهم مكانا في عالم ذلك العصر المضطرب الحافل بالفوضى والحروب ، لقد قضوا نيفا ومائة عام من تاريخهم بعد دخولهم الاسلام يحاربون الغزنويين حينا والخوارزمية حينا وانتصروا على كل خصومهم ، وأصبحوا سادة الجناح الشرقى للمملكة الاسلام (عدا الهند) ، ولكنهم كانوا في قلق دائم لا يكادون يعرفون لأنفسهم وجهة في الحياة ، ثم اتصل رئيسهم طغرل بك بالخليفة القائم بأمر الله وصاهره سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦ ، ودخلوا العراق واستقر جندهم في بغداد واستنقذوا الخلافة من عبث

البويهيين ، ولكنهم ظلوا كما هم محاربين لا يستقرون على حال ،
يجوسون البلاد ويخوضون المعارك دون هدف ظاهر ، بل ان نفرا
منهم أتيت لهم عام ١٠٥٣/٤٤٥ فرصة مقاتلة (الروم)
البيزنطيين والانتصار عليهم ، ولكنهم لم ينظروا الى حرب الروم
على أنها جهاد ، بل مجرد كفاح في سبيل البقاء . ذلك أن جماعة
من قبائلهم قدموا على ابراهيم بن اينال أخى طغرل بك ، وكان
قائدا مظفرا ، قضى سنوات طويلة في حروب ومعارك ، وسألوه
أن ينزلهم أرضه ، فاعتذر لهم بأنها تضيق بقومه ، ونصحهم بالاتجاه
الى أراضي الدولة البيزنطية في نواحي أرمينية ومداخل آسيا
الصغرى ، وقام من ورائهم مؤيدا ومعينا لهم ، وقد حاول الروم
ايقافهم دون جدوى ، فدخل المسلمون قارنس وأرمينيا عامي
١٠٥٦/٤٤٨ و ١٠٥٧/٤٤٩ واستولوا على مكطية ، وفي عام
١٠٥٩/٤٥١ وصل جنودهم الى سبسنطية وطرابزون .

وبعد دخول السلاجقة العراق ، وفي أثناء هذه الحروب مع
البيزنطيين ، بدأوا يحسون أن لهم رسالة في الوجود : أحسوا أن
دولة الخلافة في حاجة اليهم ليشدوا أزرها ، وأن جبهة الاسلام
أمام الروم واهنة في حاجة الى من يسد ثغورها . وملاهم هذا
الشعور بالرسالة السامية حماسة وقوة ، فأخذوا يتأهبون للقيام

بدورهم العظيم في تاريخ الاسلام . ولقد قضى طغرل بك — سلطانهم الى ذلك الحين — ستين سنة من عمره في ميادين الحرب والقتال دون أن يشعر أن له هدفا آخر بعد النصر والغنيمة ، فلم يكد يتصل بالخلافة ويواقع الروم حتى أحس هو ومن معه كأنهم خلقوا من جديد ، وهكذا لا يزال الناس هملا حتى يشعروا أن لهم رسالة في الحياة ، فيبدوا وكأنما بعثوا خلقا جديدا .

ولم يعد لطرغرل بك بعد ذلك من هم إلا أن يخدم الخلافة والاسلام ، بل لقد شغل رجاله شعور أخلاقي بمسئوليتهم أمام الله تعالى ، وليس أدل على ذلك الشعور الجديد الذي عمر نفس السلاجقة ، من أن السلطان طغرل بك ، وكان أقوى رجال عصره وأوسعهم سلطانا ، وقد امتدت أملاكه من حدود الهند الى العراق ، عندما لقي الخليفة القائم عام ١٠٥٧/٤٤٩ — وكان الخليفة كما نعلم مستضعفا اذ ذاك لا حول له ولا قوة — ملكته المهابة وهو ينظر الى رمز سيادة الاسلام « وعليه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ويده القضيبي الخيزران ، فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسي ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : « ان أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك

جميع ما ولاه الله من بلاده ، ورد عليك مراعاة عبادته ، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك ، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية » ، فقبل الأرض وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه ، فقام الى موضع لبسها فيه وعاد ، وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، وأعطى العهد وخرج .

وهكذا أصبحت الرسالة الروحية تكليفا رسميا ، ووجد ذلك الرجل نفسه ، وهو يقارب السبعين من عمره وقد حمل عبء دولة الاسلام على كتفيه ، وكان مدركا تمام الادراك لمسئوليات ذلك المركز الجليل الذي صار اليه ، فتجددت همته ، واشترأت نفسه للجهاد والاصلاح ، وأراد أن يزداد تشريفا فصاهر الخليفة وتزوج ابنته التماسا لبركة الاتصال بالبيت النبوي الكريم ، ولم يتصل بها لهذا ولم تكشف له خمارا ، وانما كان حظه منها مجرد التحية كل يوم ، فقد كانت في سن حفيدته ، ولم يلبث أن مات في رمضان . ١٠٦٣/٤٥٥

وتولى القيادة من بعده ألب أرسلان ابن أخيه داوود ، وقد تحددت للدولة أهدافها وارتفعت نفسها بالدفاع عن حوزة الاسلام . كان شرق الدولة الاسلامية كله قد اتحد تحت رايته ، ومع الاتحاد

ظهرت قوة الاسلام وأهله ، وعاد الى الخلافة جلالها وامتدت أيام
الهنون الماضية ، ومع أن الخليفة القائم بالله لم يكن أقدر ولا أمهر
من خلفاء كالمستول والمقتدر ، ممن هانت الخلافة على أيامهم ،
إلا أن وحدة الاسلام كانت كافية لعودة الخلافة الى سابق جلالها
الروحى القديم .

اتجه ألب أرسلان الى الجهاد من أول الأمر : لم يكدر يحصل
على التفويض من الخليفة حتى جمع جنده واتجه نحو أراضى
الدولة البيزنطية ، وبدأ بما بقى من بلاد الأرمن ، فاستولى على
عانة ، ووجد أمير قارس الأرمنى أن لا حيلة له أمام هذا المجاهد
الذى لا يخاف شيئاً ، فتنازل عن بلده لامبراطور البيزنطيين ،
وحصل فى مقابل ذلك على ضياع وأملاك فى جبال طوروس .
وابتداء من عام ١٠٦٥/٤٥٧ أبح ألب أرسلان على شمالى الموصل
بالحملات حتى تداعت قوى الروم فيه وتهيأ للعودة الى الاسلام ،
وكان الروم قد استولوا على هذه النواحي أيام الاضطحلال
الماضية ، وفى سنة ١٠٦٦/٤٥٨ احتل المسلمون المرات المؤدية الى
آسية الصغرى فى جبال أمانوس ، وكانوا قد فقدوها بعد أيام
المعتمصم ، ثم أغاروا فى نفس العام على قيصرية آسية الصغرى ،
وفى العام التالى كسب المسلمون انتصارات كبرى عند مكطية

وسببَسْطِيَّة وأصبحت أرمينية كلها فى أيديهم ، وانفتحت أمامهم أبواب الدولة البيزنطية فوصلوا الى عمورية عام ١٠٦٨/٤٦٠ والى قونية فى العام الذى بعده ، ووصلت طلائعهم الى خونى على ساحل بحر ايجيه .

فاذا أضفنا الى ذلك ما ذكرناه من استقرار نفر من السلاجقة فى شرقى آسية الصغرى ، وانشائهم دولة اسلامية فى نواح لم تستقر فيها قدم الاسلام قبل ذلك ، تبيّن أن الاسلام كان اذ ذاك — خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين — فى غمار الوثبة الثانية من وثباته ، ففتح شمال الهند من ناحية وبدأ الاستيلاء على آسية الصغرى من ناحية أخرى ، وقد قامت بالأمرين تلك القبائل التركية التى تشبه فى الطباع والروح القبائل العربية المجيدة التى قامت بفتوح الاسلام الأولى .

وفى نفس ذلك العصر كانت قبائل أخرى شبيهة بالعرب والترك تزحف بالاسلام الى غرب افريقية ، فيما يعرف الآن بالسودان الغربى مما يلى المغرب جنوبا حتى السنغال وغانة ونهر النيجر ، وهذه هى القبائل الصنهاجية وأكبرها لَمْتَثُونَة ومُسْثَوْفَة وجدالة، فقد ظهرت فيها حركة جهاد اسلامية عرفت بحركة المرابطين ، تولى قيادتها نفر من أبطال الجهاد الاسلامى مثل عبد الله بن ياسين

ويوسف بن تاشفين . فأما عبد الله بن ياسين فهو منشئ الحركة وباعثها ، وقد كرس جهوده للامتداد بالإسلام في نواحي غرب إفريقيا والسودان ، وهو الذي وضع أسس الدولة المرابطية الجليلية وفتح أبواب ما يعرف بإفريقية السوداء — وما هي بسوداء — للإسلام ، وخلفه يوسف بن تاشفين ، وكان بطلا مجاهدا وقف حياته على رفع راية الإسلام .

وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد وهن أمرها بعد انتشار أمر الخلافة الأموية أوائل المائة الخامسة للهجرة ، وتوزع نواحيها ففر من الطامعين في السلطان والجاه يعرفون بملوك الطوائف ، أضل الله رشادهم فحسب كل واحد منهم أنه يفوز بشيء إذا هو انفرد بناحية من نواحي الأندلس الإسلامية المجيدة ، ونادى كل واحد منهم بنفسه أميرا على هذا أو ذاك من بلاد الأندلس ، وغاب عنهم أن قوة الإسلام في وحدته ، وأن أمره إذا افترق لم يلبث الإعداء أن يتكالبوا عليه ويتخطفوا أرضه وأهله ، وهذا هو الذي كان : ما كاد ملوك الدول النصرانية في شمال الأندلس يرون دولة الإسلام تتفكك حتى أقبلوا يتخطفون بلادها واحدا فواحدا ، فإذا كانت سنة ٤٧٧/١٠٨٥ سقطت طليطلة قلب دولة الإسلام في الأندلس ، واحتل الإعداء هذا البلد الذي ظل حصنا من حصون الإسلام والعروبة قرابة القرون الثلاثة .

وتمكن العدو من قلب الأندلس وأخذ يغير على ما يحيط به من النواحي والبلاد ، وأفاق ملوك الطوائف من سكرتهم وأخذهم الندم بعد فوات الأوان ، واضطر أكثرهم الى أداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، وتلفتوا يمنة ويسرة يبحثون عن مغيث فلم يجدوا الا أولئك المرابطين المجاهدين وأميرهم يوسف بن تاشفين ، فلم يكدر صرختهم يبلغه حتى نهض لنصرة الاسلام يجر جحافل من المجاهدين تعدل تلك التي زحفت مع ألب أرسلان ، وهناك عند موضع يسمى الزلافة على مقربة من بطليوس كتب للاسلام نصر أبيض عظيم سنة ١٠٨٧/٤٧٨ ، وكسر المرابطون ظهر الأعداء في معركة حاسمة اعتز بها الاسلام دهرا ، ثم مضى يوسف بن تاشفين فوحد ما بقي من الأندلس الاسلامى تحت سلطانه ، وفي ظلال الوحدة عاد للاسلام عزه ومجده في الأندلس من جديد .



وأما في الشرق فقد كانت أمور الدولة البيزنطية قد صارت الى جندي من كبار المحاربين هو رومانوس ديوجينيس (يسميه المسلمون أرمانوس) كان أول أمره قائدا للجند ، وكان امبراطور الدولة قسطنطين العاشر قاصرا تتولى الوصاية عليه أمه الامبراطورة يثوداسيا ، ثم تزوجت القائد ورضيت به امبراطورا بدل ابنها ،

وكانت الظروف تستدعى رجلا يستطيع الثبات أمام ألب أرسلان وجنوده . وقد نهض رومانوس للأمر الذى ندبته له الظروف ، وعول على أن يسترجع أرمينية ، ولكن أحوال الدولة لم تكن لتعينه على ادراك ما طلب ، فان الأمراء الاقطاعيين كانوا قد استبدوا بأمور نواحيها واتخذ كل منهم لنفسه قوة من الجند تحميه . ولم يكن أولئك الاقطاعيون يحترمون رومانوس أو يطمنون اليه ، اذ أنه لم يكن من أهل الفضل والخلق الكريم . وكان عماد القوة العسكرية الى حين قريب فرقا مدربة من الفرسان ، وقد بلغت هذه الفرق أوج قوتها على رأس القرن العاشر الميلادى ، وهى التى مكنت للدولة من الايغال فى بلاد الخلافة العباسية والاستيلاء على أنطاكية وتهديد حلب تهديدا مستمرا . وكانت فرق من أولئك الفرسان تطوف دواما بأطراف البلاد الاسلامية لا تجد ثغرة الا نفذت منها ، فأهمل نفر من الأباطرة أمر أولئك الفرسان فتفرقوا ، ودخل بعضهم فى خدمة الاقطاعيين ، وأصبح اعتماد الدولة فى جيشها على جند مرتزق تستأجره من شتى النواحي ، يتألف من نورمانيين وفرنجة وصقالبة ، وجماعات من شتى الأتراك دخلوا خدمة الدولة للكسب والغنيمة (وكانوا يسمون تركوبولى) وأجناس أخرى كالبشناق والأرمن ومن اليهم .

وقد أحس رومانوس (المعروف بالرابع) بالخطر يهدد بلاده ، ورأى أن من واجبه أن ينهض لملاقاة ألب أرسلان ورجاله ، فاجتهد في حشد أكبر عدد استطاع حشده من أولئك المرتزقين حتى اجتمع له منهم قرابة المائة ألف من طوائف شتى ، أكثرها عددا جماعات من تركمان روسيا يقودهم رجل منهم يعرف باسم يوسف طرخانيوتيس ، وأقواها جانبا فرقة من فرسان النورمان يقودهم رثوسيل دي بايثول .

وكان النورمان بلاء من بلايا ذلك العصر كله . ضاقت بهم بلادهم في اسكنديناوة من أوائل القرن التاسع الميلادي فمهبطوا على غربي أوروبا جماعات من القرصان ترهب البحر في سفن خفيفة ذات أشعة سوداء ، فأصابوا سواحل غرب أوروبا كله بكل أصناف الغزو والنهب والتحريق ، بل بلغ أذاهم الأندلس . ثم استقرت طائفة كبيرة منهم على شاطئ فرنسا الشمالي الغربي الذي عرف من ذلك الحين باسم نورماندى ، نسبة اليهم ، ومن هناك قاموا بغزو الجزر البريطانية بقيادة زعيمهم وليام النورمانى الذى سحق الانجليز في معركة هيستنجز عام ١٠٦٦/٤٥٨ وبدأ فى تاريخ تلك الجزر عصرا جديدا ، واحتلت طائفة أخرى منهم جنوبى ايطاليا وأخذت تناجز مسلمى صقلية حتى انتزعتها منهم بعد حروب

طويلة انتهت سنة ١٠٦٠/٤٥١ بقيادة زعيم يسمى روبرت جيسنكارد ، ودخل الباقون فى خدمة الملوك والأمراء جندا مرتزقين .

وكانوا رغم شجاعتهم فى القتال أميل الى الخيانة ، لا يكاد أمير يجس عنهم المال حتى يتخونوه فى المعركة ، ولا يلوح لهم أمير آخر بمال الا انفضوا من حول صاحبهم وساروا اليه ، وكان روسل دى بايول هذا من أخطر قادتهم المرتزقين وأعرقهم فى الخيانة والحيلة والدهاء ، وكانت الدولة تعرف أمره ولكنها لم تكن لتستطيع الاستغناء عن خدماته .

بهذا الجيش الضخم المفكك الأوصال سار رومانوس للقاء جند الاسلام المتحد القوى ، وقد أقام الامبراطور على الجيش قائدا يسمى أندرونيكوس دوкас ، يذهب مؤرخو الأوروبيين الى أنه كان حاقدا على الامبراطور ، ينتظر الفرصة المواتية ليتغلى عنه ويتركه لمصيره ، ولكن هذه كلها مبالغات يرمون من ورائها الى التقليل من قيمة النصر الذى كسبه المسلمون .

وكان ألب أرسلان قد انصرف اذ ذاك عن بلاد الروم لبعض شئون دولته فى آذربيجان ، فما راعه وهو فى ذلك البلد البعيد الا وأخبار مسير أرمانيوس نحو بلاد المسلمين بهذا العسكر الجرار

تصل اليه ، فأسرع بمن تيسر له من الجند ، وأغذّ السير في طلب
الجهاد بنحو خمسة عشر ألف فارس ، وكان ملك الروم يبغي أن
يخرج المسلمين من أرمينية ويتحصن بشعاب جبالها ثم يشن
الهجوم ، فأوغل في الجبال حتى أدرك سهلا يسمى خِلاط (يعرف
عند الروم باسم أخلاط) تتوسطه بحيرة تسمى بحيرة وان على
مقربة منها موضع يعرف بمكلاذ كِرْد (يسميه الأوروبيون
مانزيكِرت) وهناك حط رحاله ووقف ينتظر المسلمين .

وجدّ ألب أرسلان في السير بهذا الجمع القليل الذي كان معه ،
وكان يعرف أنه في الطريق الى مغامرة كبرى ، وماذا تجدى خمسة
عشر ألفا أمام مائة ألف ؟ ولكن إيمانه بالله كان عظيما ، وكان يقول
لمن معه : « اننى أقاتل صابرا محتسبا ، فان سلمت فنعمة من الله
تعالى ، وان كانت الشهادة فان ابنى ملكشاه ولىّ عهدى » . فلما
اقترب من ناحية خلاط صادفته مقدمة الجيش الرومى ، وكانت
عشرة آلاف مقاتل من الصقالبة (يسمون أيضا الروسية) فانقض
عليها المسلمون فمزقوها وأسرؤا قائدها ، وأسرع المسلمون حتى
صاروا أمام الجيش البيزنطى . وأراد ألب أرسلان أن يكسب بعض
الوقت ، نظرا لقلّة جنده ، فأرسل الى رومانوس يطلب المهادنة ،
فأبى وملكه الغرور وقال : « لا هدنة الا بالرّى ! » والرّى هى

قلب مملكة ألب أرسلان ،وهى فى شرقى فارس ، فربع لهذا الردء ، وعرف أن ملك الروم قد جمع جموعه وعبا جنده وأقبل واثقا من النصر ، فأخذ الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث ويثبته ويقول : « انك تقاتل عن مدين وعكده الله بنصره واطهاره على سائر الأديان ، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح » .

فلما كان يوم جمعة من رمضان ٤٦٤ / أغسطس ١٠٧١ وقد تجتمع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها للصلاة فى مساجدهم والخطباء يدعون للمسلمين بالظفر والملايين تؤمن على الدعاء ، أسرع ألب أرسلان ففرغ من صلاته وعجل بدخول المعركة فى لحظة تدعو له الملايين فيها بالظفر ، فما هو الا أن أهلت طلائع فرسان الاسلام حتى شعرت جماعات التركمان فى الجيش البيزنطى بالحنين الى أبناء عموماتهم الأتراك المقاتلين تحت راية الاسلام ، فانضموا اليهم ، والتفت ألب أرسلان الى جنده والدموع فى عينيه من خشية الله ، وقال : « من أراد أن ينصرف فلينصرف ، فما هنا سلطان يأمر وينهى ! » وألقى القوس والنشاب ، وأخذ السيف والديبوس ، وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل عسكره مثله ، ولبس البياض وتحنط وقال : « ان قتلت فهذا كفى ! » وزحف الى

الروم وزحفوا اليه ، فلما قاربهم ترجل ، وغفر وجهه في التراب وبكى وأكثر الدعاء ، وحمل وحملت العساكر معه .

وكان جيش الروم قد اضطرب أمره بعض الشيء بعد انصراف التركمان الى جانب المسلمين ، فقد رأى النورمان وقائدهم روسل دى بايول أنفسهم أمام فرسان لا قبل لهم بهم حمية وشجاعة ، فآثروا التراخي في القتال وابتعدوا عن المعركة ، شأنهم في كل معركة اشتركوا فيها مرتزقين : لا يقدمون الا اذا تأكدوا من أن النصر مضمون .

وفئذ المسلمون وسط صفوف الأعداء كالسهام المارقة ، فتبدد شمل الجيش البيزنطى وضاع نظامه ، ودهمهم المسلمون يأسرون ويقتلون ، وولت البقية هاربة ، ورأى أندرونيكوس قائد الجيش الرومى أن لا أمل في النصر ، فسولت له نفسه أن يترك امبراطوره وسط المعركة ويسرع الى القسطنطينية ، بمن معه لينادى بنفسه امبراطورا ، وهكذا ترك رومانوس مع فلول الجيش ، فانهزم ووقع أسيرا بيد المسلمين . وأحضر بين يدي ألب أرسلان فضربه ثلاث مقارع بيده ، وجرى بينهما حديث طريف يدل على علو همة ذلك الأمير العظيم :

قال ألب أرسلان :

- ألم أرسل اليك في الهدنة فأبيت ؟
 فقال الامبراطور الأسير :
 — دعنى من التوبيخ وافعل ما تريد .
 — ماذا عزمت أن تفعل بى لو كنت أسرتهى ؟
 — أفعل القبيح !
 — فماذا تظن أننى فاعل بك ؟
 — اما أن تقتلنى ، أو تشهرنى فى بلاد الاسلام . والأخرى
 بعيدة ، وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائباً عنك .
 — ما عزمت على غير هذا !
 وبالفعل .. لم يقتله ألب أرسلان ولا أهانه ، وانما أطلقه لقاء
 فدية كبيرة ، وأخذ عليه عهداً يجعله حليفاً للمسلمين ، أهمها أن
 يبعث أرمانوس الى ألب أرسلان مدداً من العسكر فى أى وقت
 يطلبه ، وأن يطلق كل أسير مسلم فى بلاد الروم ، فلما أخذ عهده بذلك
 أنزله فى خيمة خاصة وأعطاه عشرة آلاف دينار يتجهز بها الى
 بلاده ، وأطلق ألب أرسلان كذلك طائفة من بطارقة الروم (أى
 نبلائهم) الذين أسروا فى المعركة . وقد كان صنيع ذلك الفارس
 النبيل حقيقاً بأن يملك قلب الملك البيزنطى الأسير ، فما كاد يرى
 نفسه طليقاً والمال بين يديه حتى سأل : أين جهة الخليفة ؟ فدل

عليها ، « فقام وكشف رأسه وأومأ الى الأرض بالخدمة (أى بالتحية) ، ثم سار يطلب بلاده فى حراسة عسكر من عساكر السلطان » .

هذا صنيع المسلمين مع ملك الروم الذى سار لحربهم ، وعندما سئل الهدنة قبل الموقعة قال انه لن يعمد السيف الا بعد أن يستولى على عاصمة سلطانهم ، فكيف كان فعل الروم أنفسهم مع امبراطورهم الذى خرج ليحارب فى سبيلهم ويحمى ذمارهم ؟ لم يكذب خبر الهزيمة يصل الى القسطنطينية حتى نهض زوج ابنته ميخائيل دوكاس وأعلن نفسه امبراطورا وتلقب بميخائيل السابع ، وطالب أرمانوس بحقه وسعى فى طلبه ، ولكن أنصاره خذلوه ، وانهمزم وقبض عليه . وسمل زوج ابنته عينيه بطريقة وحشية فلم يلبث أن مات شرمية ، وكان القائد أندرونيكوس الذى خانته فى المعركة قد وصل ، فكوفئ على الخيانة وأصبح من رجال الامبراطور الجديد !

هكذا انفتحت أمام المسلمين أبواب آسية الصغرى ، فاشتد أزر سلطنة السلاجقة التى قامت فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرة وتولى أمرها أمير عرف فضل الاتحاد فدخل فى طاعة ألب أرسلان راضيا مطمئنا . ولم يلبث بقية المسلمين أن جنوا من ثمار الوحدة

فوق ما قدروا : أقبلت جماعات منهم ، من التركمان خاصة ، فاستقرت في سهول الأناضول ، وأخذت هذه النواحي الغنية تتحول الى أرض يعمرها الاسلام .

كان ينبغي أن يفعل المسلمون ذلك قبل خمسة قرون ، فقد كان ينبغي أن تصل الوثبة الاسلامية الأولى على أيام الخلفاء الراشدين الى البحرين الأسود والأبيض في آسية الصغرى حتى يأمن الاسلام ويسند ظهره الى حد طيبعى هو البحر . ولكن الفتنة الكبرى على عهد عثمان ، وما أعقبها من حروب أهلية صرفت المسلمين عن ذلك الهدف ، ولقد حاولوا على أيام الأمويين أن يستولوا على القسطنطينية من البحر فلم يوفقوا .

كان ينبغي أن يستولوا على آسية الصغرى أولا ، فلما تركوها دون فتح عاد العدو فاستقوى فيها ، بل تقدم ينتزع من أيديهم ما يستطيع مستغلا تفرق أمرهم على ما رويناه ، والآن وقد توحدت راية المسلمين فقد تنبهوا الى ما كان ينبغي أن يفعلوه منذ قرون ، وكسروا الروم كسرة أعادت الى الأذهان ذكريات اليرموك وأجنادين ، واستولوا على نصف آسية الصغرى في بضع سنين .. وكان ينبغي أن يواصلوا الزحف حتى يقضوا على العدو قضاء تاما ويستولوا على القسطنطينية ، ولكن أمراء النواحي في فارس

وتركستان لم يتركوا البطل الفاتح يسير في طريقه ، وأخذوا يتواثبون عليه هنا وهناك ، واضطروه الى أن يلوى عنانه عن الزحف المقدس لينظر في أمرهم ، وفي هذا العبث التافه ضاعت البقية الباقية من حياة ملك عظيم كآلب أرسلان ، بل كذلك ضاعت حياة ابنه الباسل ملكشاه ، ثالث العظماء من سلاطين السلاجقة وهكذا نسينا درس الأمس ونحن على أبواب الظفر بالغاية الكبرى ، وتفرق أمرنا من جديد فظهر العدو على الأبواب ، ولكنه ظهر هذه المرة وفي نفسه حقد دفين ورغبة في الاتصاف لما أصابه من هوان ، فجمع صفوفه وأنصاره واستغاث بغرب أوروبا ، فاجتمع أهلها معه على كلمة واحدة ، وأقبلوا يغزون الشام راقعين شارة الصليب ..

نعم ، كان التفرق هو الباب الذي دخل منه الصليبيون ، ولولا التفرق والاختلاف لاستولى آلب أرسلان على القسطنطينية وأقفل ذلك الباب الذي أتانا منه بلاء كبير . ولو أن الأتانيين آمنوا بفضل الوحدة لما كان هناك صليبيون ولا حروب صليب ، ولأعفى الاسلام وأهله من بلاء وعناء عظيمين ، بل لخطت أمة الاسلام والعرب خطوات فساحا في طريق الحضارة والسلام .

نقول ان ملكشاه ووزيره نظام الملك أنقذا بقية عمرهما في

الحفاظ على وحدة الدولة والقضاء على العاملين على تفريقها بالطمع في أجزاء منها . وكان في مقدمة أصحاب هذه الأطماع نفر من آل ملكشاه ، أغراهم بالوثوب به اتساع رقعة الدولة وعسر الانتقال من طرف منها الى طرف ، فقد كانت تمتد من حدود الهند الى سواحل البحر الأبيض ، وكان سلاطين سلاجقة آسية الصغرى يدينون له بالولاء ، ودولة هذا اتساع رقعتها لا تظل وحدتها الا اذا حسنت نيات رجالها وآمنوا بفضل الوحدة وكفكفوا من مطامعهم ، والا فان صاحبها يظل عمره كله يقطع بلاده بجيوشه من طرف لطرف ، كلما أطفأ النار في ناحية شبت في ناحية ..

وهذا كان حال ملكشاه مع آله وأمراء النواحي في دولته ، وقد أغراهم بالوثوب به ، وطلب الاستئثار بالسلطان من دونه أنه كان رجلا متسامحا طيب القلب أقرب الى العفو عن المصء منه الى عقابه والتشديد عليه ، وكان شديد الرعاية لصلة الرحم كثير البر بأهله ، مستعدا للصفح عن أخطائهم ومجازاتهم عن السيئة بالحسنة فكانوا يشغبون عليه مطمئين الى عفوه وصفحته . ثم ان الرجل كان مشغول القلب بحرب الروم ، يود لو قضى أيامه كلها في آسية الصغرى يناجزهم ويقتطع من أراضيهم ، حتى لقد قضى أحسن سنوات عمره في آسية الصغرى يشد أزر أبناء عمومته هناك

ويعزو من بلاد الروم ما يستطيع غزوه ، ولقد رويت له في حروبه مع البيزنطيين أخبار أشبه بالأساطير ، لأنه كان يأبى إلا أن يسير في مقدمة جنده وسيفه بيده ، فمن قائل انه وصل الى أسوار القسطنطينية ، ومن قائل انه وقع أسيرا في أيدي الروم ذات مرة فلم يعرفوه ، ولو عرفوه لأهلكوه ، ولكنه — كما تقول القصة — استعصم بالصبر وكتب الى وزيره نظام الملك فاحتال له بحيلة أخرجه بها من أيدي أعدائه . والثابت على أى حال أن البيزنطيين هادنوه ، وأدوا اليه جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار .

وكان الرجل مؤمنا بالوحدة الاسلامية عاملا على تحقيقها عمره كله ، وكان يرى أن أقرب طريق للتوحيد هو أن يجمع الخلافة والسلطنة في شخص واحد ، ولو رجل آخر لخلع الخليفة وجعل نفسه مكانه كما فعل السلطان سليم العثماني فيما بعد ، ولكنه كان رجلا حيا يعرف قدر نفسه ، ويعلم أنه لم يؤت من العلم ما يؤهله للخلافة ، فاكفى بتزويج احدى بناته من الخليفة المقتدى بأمر الله تيمنا بمصاهرة البيت النبوي الكريم ، ورجا أن يرزق الله ابنته بولد يحسن تربيته ويعدده لخلافة المسلمين . ولم يكن الزواج موفقا ولكن ابنته أنجبت الغلام المرتجي ، ففرح به وسماه جعفرا وعنى به حتى أثر الإقامة في بغداد ليكون الصبي تحت بصره ، وقرت

عينه وجمع أمراءه في بغداد في شبه مؤتمر لينظر معهم في أمور دولته التي بلغت أوجها في عام ٤٨٤/١٠٩١ .

وكان يدبر دولة ملكشاه الوزير العظيم أبو علي الحسن بن علي ابن اسحاق المعروف بنظام الملك ، وهو درة من درر تاريخ الإسلام ، إذ كان وزيرا مدبرا بعيد النظر حسن السياسة . وتحكى الأساطير أنه كان وعمر الخيام الشاعر والحسن الصباح منشئ دعوة الحشاشين زملاء في الدراسة ، وأنهم اجتمعوا مرة فتمنى كل منهم على الله ما يجب أن يصير اليه في مقبل الأيام ، فأما نظام الملك فقد رجا أن يكون من رجال الدولة ليعمل على لم شعث المسلمين ، وأما عمر الخيام فتمنى أن يكون من أهل الشعر والحكمة ، ورجا الحسن الصباح أن يكون نصيرا للشيعة لكي يأخذ بثأرهم من أهل السنة ، فكان لكل منهم ما أراد . وهذه لا شك أسطورة ، ولكن الأساطير لها مغزاها ، لأنها تصدر عن خيال الشعوب حاملة احساسها الصادق مصورة حكمها على الأشياء ، فكان الخيال الساذج الذي نسج هذه الأسطورة قد أراد أن يصور كيف أن نور الحكمة والهام الشعر وقوة الخير وعوامل الشر انما تصدر كلها عن قلب الانسان واراادته ، وأن الانسان يضع نفسه حيث يريد : سائسا حكيما أو شاعرا ملهما أو شيطانا رجيبا .

ولقد ساس نظام الملك دولة ملكشاه أحسن سياسة ، وجمع أطراف المملكة ونفع سلطانه برأيه وحسن مشورته ، وكان على علم واسع وشوق الى نشر المعرفة ، فأنشأ المدرسة النظامية ببغداد ، وهي أول مدرسة منظمة ذات أساتذة ومكتبة وطلاب يحضرون الدروس وفق منهاج مقرر في تاريخ الاسلام ، بل في تاريخ العصور الوسطى كلها ، وكان من بين أساتذة هذه المدرسة حجة الاسلام أبو حامد الغزالي ، فقد تولى التدريس فيها زمنا ، ثم اعتزل وطلب الوحدة في جامع دمشق ليؤلف ويتأمل ، وفي وحدته كتب كتابه الخالد « احياء علوم الدين » .

وكان الحسن الصباح في أثناء ذلك يعمل جاهدا في نشر مبدأ فلسفي سياسي زعم أن فيه نجاة البشر ، ولم يكن هذا المذهب في الحقيقة الا ثوبا أضفاه على مطامعه الخاصة ، فقد كان طموحا الى السلطان يرى في الفوضى الضاربة فرصة أتاحتها له المقادير لكي يجعل من نفسه اماما للمسلمين . فمضى يدعو الى ما سماه الامام الصادق وزعم أنه اسماعيل ، فاجتمعت حوله طائفة من المغامرين مضوا يجوبون البلاد لكسب الأنصار ، فلما تبينت لهم استحالة نجاح الدعوة اتجهوا الى الاستيلاء على حصون يجعلونها مراكز لأعمالهم ومعتصما في وقت الخطر ، واتجه الحسن

الصباح يبصره نحو فارس ، وتمكن فى سنة ٤٨٣/١٠٩٠ من الاستيلاء على قلعة ألكوت وقلاع أخرى ، ثم جعل ألكوت عاصمته ومركز أعماله ، ورأى أن قواه لا تنهض لمواجهة قوة السلاجقة والخلفاء ، فعول على أن يلجأ الى الاغتيال السياسى : كلما خاف ملكا أو وزيرا دس عليه من يغتاله ، وكان أول من سقط ضحية له الوزير نظام الملك .

وكان رجال الطائفة يخدعون الأحداث ويضمونهم الى صفوفهم باسم الدعوة الدينية ونصرة أهل البيت ، وكانوا يملأون قلوبهم حقدا على غيرهم من المسلمين ، ويستعينون فى التأثير عليهم بالمخدر يقدمونه لهم فى وفرة ، فاذا مالت رءوسهم أمروهم بما يريدون من سفك الدماء ، ولهذا فقد سمنوا الحشاشين ، وأصبحوا رعب أهل زمانهم : لا يفكرون الا فى القتل والاغتيال ، حتى أصبح لفظ الحشاشين فى ذلك العصر مرادفا للقتلة والسفاكين ، وبهذا المعنى أخذ الصليبيون هذا اللفظ عندما نزلوا الشام ، وحوروه الى : أساسان (assassin) ، ومعناه الى اليوم : القاتل السفاك .

وقد حقد رجال هذه الدعوة الخبيثة على نظام الملك ، وخافوا من جهده المتصل فى نصرة السنة وتوحيد أهلها ، فما زالوا يدبرون حتى رصدوا فتى من فتيانهم للوزير الجليل فاغتاله فى رمضان

سنة ٤٨٥ / أكتوبر ١٠٩٢ ، وهذه أول جناياتهم الكبرى على وحدة الاسلام ، وسراهم يفتالون فيما بعد نفرا من أبطال الوحدة والعاملين عليها .

وكان موت نظام الملك ايذانا باتتقاض دولة ملكشاه وضياع الوحدة التي بناها هو ووزيره الشهيد ، وقد حاول أن يحقق حلمه البعيد قبل موته بأسابيع وطلب المناذاة بحفيده خليفة وسلطانا ، ولكن المنية عاجلته في شوال ٤٨٥ / نوفمبر ١٠٩٢ ، واختلف خلفاؤه على الملك وتحاربوا بينما كانت أوروبا تتجمع وتستعد للهجوم على بلاد العرب والاسلام ، وما هي الا سنوات قلائل حتى وصلت جحافلهم الى بلاد الشام . ولو تقدموا عشر سنوات لما استقرت لهم في بلاد العرب والمسلمين قدم ، فقد كان أمر الدولة مجتمعا : يقودها ملكشاه ويسوسها وزيره نظام الملك ، ولو أن خلفاءه لم يترفقا ويتحاربوا طمعا في المغنم الزائل لما جرؤ العدو على الاقتراب من حياضنا .

مأساة الحملة الصليبية الأولى

عيسى ! سبيلك رحمة وعجبة
في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امراً
هان الضعاف عليه والأيتام
يا حامل الآلام عن هذا الوري
كثرت علينا بأسك الآلام
«أحمد شوقي»

اختلفت الآراء حول الدوافع التي جعلت أوروبا كلها تخرج للعدوان على العالم الاسلامي حاملة شارة الصليب ، فمن قائل أن الدافع الأول كان الاستيلاء على بيت المقدس لتأمين حجاج النصراني الى قبر السيد المسيح عليه السلام ، ومن قائل أن سكان غرب أوروبا كانوا قد زادوا اذ ذاك زيادة كبرى فضاقت بهم أوطانهم واحتاجوا الى منافذ تستوعب من زاد ، ومن قائل ان الأحوال المعاشية في بعض نواحي الغرب الأوروبي كانت قد ساءت الى حد دفع أهل الطبقات الدنيا الى البحث عن مهرب مما كانوا

فيه من البلاء ، ومن قائل ان البابوية كانت فى سعى دائم نحو السلطان على أهل الحرب والسياسة ، فابتكرت فكرة توجيه النصارى لحرب المسلمين تحت اشرافها وبتوجيهها فيكون ذلك توكيدا لسلطانها عليهم ، وتحقيقا لحلم البابوات القديم فى السيطرة والسلطان . والحقيقة أن هذه العوامل مجتمعة هى التى دفعت الغرب الأوروبى الى التجمع والخروج للعدوان على بلاد العرب والمسلمين أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

وليست هذه الحروب الصليبية بالحدث الأول من هذا النوع فى تاريخ العلاقات بين الغرب والاسلام : فقد تجمع الغرب الأوروبى وعدا على الأندلس الاسلامى عدوانا دمويا متصلا ، وتجمع واعتدى على المغرب الاسلامى أكثر من مرة كذلك ، وفى العصر الحديث جمع الغرب قواه كلها وعدا على بلاد العرب والمسلمين جميعا عدوانا سافرا لازلنا نقاسى عقابيله الى اليوم ، فلما أيدنا الله بقوة من عنده وشددنا سواعدها وأخرجناهم من بلادنا استعانوا بالصهيونية العالمية وأيدوها فيما سموه انشاء وطن قومى لليهود فى قلب بلادنا ، وكانوا يرجون أن تجتاحنا الصهيونية وتمهد لهم أمر استعمارنا من جديد ، فلما أحبطنا هذا المسعى ، وحصرنا عصاة الصهيونية فى ركن ضيق ومضينا نشدد عليها الخناق حتى أخذت

تحتضر ، جمعوا جموعهم مرة أخرى وعادوا يضربون قلب العروبة الخافق في عدوانهم الغاشم أواخر عام ١٩٥٦ ، فلم ينفعهم الله بشيء من غدرهم واصطدموا بالمارد العربي العملاق وقد صحا من نومه وسار في طريق العزة تحت راية الناصر جمال الدين ، كما سار مظفرا منذ تسعة قرون تحت راية الناصر صلاح الدين ، فأيقنوا بالخيبة وهبت عليهم رياح الفشل من كل جانب ، فمضوا يلتمسون الثغرات ويتطلبون العورات ، وكلما عثروا بضعف النفس أو مضلل القلب لم يشرق قلبه بنور العروبة والاتحاد تجمعوا حوله يؤيدونه ويشدون أزره ، فلا يزيدهم الله الا خيبة بعد خيبة ، وتنهض الشعوب العربية الواعية فتطوح بالضعيف والضال ومن ختم الله على قلبه ، وتسرع الى الجحفل العربي اللجب وتأخذ مكانها فيه ، وكلما ائتمروا بنا أفسد الله سعيهم ونصرنا من حيث أرادوا أذاً .

فالحروب المعروفة بالصليبية ، على هذا ، ليست الا فصلا من فصول هذا العدوان الطويل الذي لم يكف الغرب عنه أبداً . ومهما بحثنا في أسبابها ، فانتنا ننتهي الى أن الحماس الديني كان آخرها ، أما أول الدوافع وأهمها فهو الطمع في بلاد الشرق والرغبة المبيتة في القضاء على الاسلام . وتاريخ هذه الحروب لا يبدأ في ذلك

اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ الذى وقف فيه البابا أربان الثانى فى كنيسة كليرمون فى فرنسا ، ودعا رجال النصرانية أجمعين للانتظام جيشا واحدا والسير للقضاء على المسلمين ، بل ترجع الى ما قبل ذلك بسنوات طويلة ، ولكن ميدانها كان الى ذلك الحين فى أقصى الجناح الغربى لدولة الاسلام .

ذلك أن البابوية عندما استشعرت ضعف دولة الاسلام فى الأندلس وتفكك أمر المسلمين فى تلك الجزيرة رأت أن تبتهر الفرصة لتقذف بالمحاربين من شتى نواحي الغرب النصرانى الى الأندلس ليعينوا على اخراج المسلمين منه ، فأرسلت قرا من دعائها يحملون الى نصارى شمال شبه الجزيرة الايبيرية تأييد البابوية ، ويؤكدون لهم أن حربهم مع المسلمين انما هى حرب دينية فى نصرة الصليب ، ولم يكن نصارى شمال اسبانيا يقاتلون المسلمين قبل ذلك بسلاح الدين ، وانما كانوا يرونه صراعا بينهم وبين العرب على السلطان ، ولم تكن فى القتال بين الجانبين الى ذلك الحين مرارة العصب الدينى ، بل كانوا يعترفون بتفوق العرب عليهم ويقبسون من علومهم وحضارتهم ، وكان بينهم تبادل منافع وتواد بعيد المدى .

فلما وضعت البابوية يدها فى الأمر وأخذت تحرض الناس على

المسلمين وتبعث بالمغامرين من نواحى فرنسا لقتالهم ، أخذ الصراع صورة دموية رهيبة تجلت لأول مرة سنة ٤٥٦/١٠٦٣ فى مفاجأة حملة فرنسية اسبانية لبلد اسلامى صغير وادع هو بربشتر على مقربة من سرقسطة ، نزل به « الصليبيون » المزعومون وهم ألوف قتلوا من أهله ألوف وأسروا ألوف من النساء وباعوهن رقيقا ، وانتهى الجهاد الدينى عند ذلك . وسعد البابا جريجورى السابع بتلك المذبحة فمضى يحرض الفرسان والمقاتلين على المسير الى الأندلس لحرب المسلمين ، فسار المقاتلون أرسالا يحملون شارة الصليب ولا هم لهم الا غنيمة الأموال وقتل الناس وأسر النساء ويبعهن فى الأسواق .

والبابا جريجورى السابع هذا هو أول من دعا بهذه الدعوة التى أغرقت الدنيا كلها فى الدماء من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى الى نهاية الخامس عشر ، فقد كان رجلا طامعا فى السلطان ظلما الى الدماء ، وقد أوقع بطمعه البابوية فى حروب ومتاعب مع ملوك أوروبا ، وختم حياته شريدا هاربا من بلد لبلد فى ظلال الفشل والحزن والكآبة .

وخلفه البابا أربان الثانى فى مارس ١٠٨٨ (ذى الحجة ٤٨٠) ، وهو رجل فرنسى كان يحمل قبل أن يلى كرسى البابوية اسم

أودو دى لاجرى ، توسم فيه جريجورى القدرة على مواصلة سياسة الحرب والعدوان التى قضى هو عمره فيها ، فأوصى له بالبابوية من بعده وبإيعه عليها نفر من الكرادلة المنشقين على بابوية روما ، فاحتفى بالنورمانيين ، وكانوا أذ ذاك شعبا مقاتلا متعطشا الى الدماء لا يرى معمعة الا خاض غمارها يقتل وينهب ، فما زال أربان يسعى ويدبر ويرشو الناس حتى رضى عنه هنرى الرابع امبراطور ألمانيا ، ومكن له من دخول روما عام ١٠٩٣ (٤٨٥ هـ) ، وعاونوه أبناء وطنه من رجال الدين الفرنسيين ، فثبتت أقدامه .

وفى سعيه المتصل نحو السلطان خطرت بباله فكرة توجيه النصارى لحرب المسلمين ، متعللا بما أخبره به بعض القسوس والرهبان من سوء معاملة المسلمين لحجاج النصارى ، وقد كان هذا الرجل يعلم أنه هو نفسه لا يأمن على نفسه وسط بلاد النصرانية ولا يستطيع دخول روما ، وأن حجاج النصارى لا يأمنون على أنفسهم وهم يقطعون الطريق الى بيت المقدس خلال بلاد أوروبا النصرانية ، فاذا وصلوا بلاد المسلمين آمنوا فى رعاية السلاطين ، وكان يرى نفسه محاطا بالأعداء ، وكنائس الكاثوليكية تحرق فى بلاد النورمانيين وفى ألمانيا والمجر وبلاد الدولة البيزنطية ، ومع ذلك فقد زعم للناس أنه صدق ما ألقى اليه هؤلاء القسوس ،

ومضى يبالغ فى تصوير حال حجاج بيت المقدس وما يلقونه من أذى المسلمين ، لكى يصرف الناس عن مناوآته ويصرفهم عن حرب بعضهم بعضا ويوجه عطشهم للدماء نحو مورد يشربون منه ولا حرج ، ووقف يخطب على باب كنيسة كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥ (شوال ٤٨٨) فى دهماء ورعاع حياتهم فى بلادهم شظف وشقاء ، ويمنيهم بالخير الذى يفوزون به فى بلاد المسلمين ، ويقول لهم : « أتم هنا فقراء تعساء ، وهناك ستكونون سعداء يهبط عليكم الرخاء وأصحابا مخلصين لله . لا تأخير بعد اليوم ! لتكونوا على الأهبة للخروج للقتال عندما يبلغكم النداء ، وسيكون الله مرشدكم ! » .

وتسامع الناس بما يدعو اليه البابا من اهدار دماء المسلمين ومنح المقاتلين أروضهم وأموالهم ، فأقبلوا خفافا فرادى وزرافات يقيدون أسماءهم ويستعدون للخروج الى الشرق ، ومن فرنسا انتقل البابا الى ايطاليا ومنها الى ألمانيا ينشر رسالة الحرب والدماء ، فما وفى ربيع ١٠٩٦ م حتى كانت أوروبا كلها قد أصيبت بهوس يسمى قتال العرب والمسلمين ، وأخذت الجيوش تتجمع والجحافل تنتظم ، والبابا يباركها ويمنحها شارة الصليب ويعدها بخيرات ما ينزلون به من أرضين .

والمسلمون عن ذلك كله لاهون .. سادرون في الحروب فيما بين بعضهم وبعض بعد موت ملكشاه ، وحتى سلطنة سلاجقة آسية الصغرى ، وكانت على باب الحرب ، لم يسلم سلطانها قلعج أرسلان ابن سليمان بن قظلميش من منافسين وواثبين يضطرونه الى تفريق قواه شرقا وجنوبا ، والعدو مقبل من الغرب والشمال ..

وما أشبه الليلة بالبارحة ! وكأنما أقبل التاريخ يعيد نفسه أواخر القرن الثامن عشر ، فبينما كان أمراء المماليك يحترب بعضهم مع بعض في مصر ، وشيوخ الجبال والبوادي يقاتل بعضهم بعضا في الشام والعراق ، وطلاب السلطان يتقاتلون في طول المغرب وعرضه ، كان نابليون يجمع جمعه لغزو مصر ، ومن خلفه أوروبا كلها تتأهب للانقضاض على بلادنا في كل مكان ، وما هي الا سنوات حتى نزلوا بلادنا يعينهم علينا تفرقنا واشتغال كل منا بنفسه ، فلم تكن هزيمتنا عن قلة وانما عن أنانية ، ولم تكن نتيجة تفوق خصومنا علينا في شجاعة أو قدرة ، وانما كانت نتيجة لنومنا الطويل وانصرافنا الى توافه المنازعات :

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها ، تولى رعيها الأسد ولم يكن أولئك الصليبيون أسدا ولا شيئا شبيها بالأسود ، وانما كانوا طغاما جائعا يسوقهم طواغيت ظامعون ، وأى شيء

يكون راهب زائف كهذا البطرس الملقب بالناسك ؟ وهو شيخ فرنسى كان مواطنوه يستخرون منه ويلقبونه « كيوكيو » أى الضئيل بلهجتهم المحلية ، زعم كذبا أنه أراد الحج الى بيت المقدس فمنعه المسلمون ، ومضى يمشى حافيا يجر حمارا يركبه بين الحين والحين ، لا يغسل ملابسه أبدا ولا يقرب الماء جسده ، فلم يكدر يسمع الدعوة لحرب المسلمين حتى ألقى بنفسه فى عباها ، ومضى ييشر الناس بأنهار من لبن وعسل تفيض عليهم فى أرض المسلمين ، وقال ان نهاية العالم قريبة لا شك فيها وأنه لم يبق الا قليل حتى يعود المسيح الى الأرض ، ولا ينبغى أن يعود الا وقد استرد النصارى بيت المقدس !

فتجمع التعساء والمساكين حوله آلافا سار بهم من فرنسا الى ألمانيا ، لا يمرون على بلد الا نهبوا ما فيه ، فيحاربهم الناس ويقتلون منهم من قدروا عليه ، حتى هلكت منهم مئات بعد مئات ، ثم انضم اليه نفر من مغامرى الفرسان من طراز والتر الملقب بالفلس ، فلما كبر جمعه ونيف على العشرين ألفا خرج اليه بعضهم بنسائهم وأولادهم كأنما هم مهاجرون ، وأعلن المسير الى الشرق ، وفى الطريق فقد سيطرته على هذه الجموع فانطلقت نحو المجر تسرق وتنهب ، ووصلوا بلغراد فنهبوا وأشعلوا فيها النيران ،

وعندما بلغوا القسطنطينية نهبوا ضواحيها بل اقتحموا الكنائس وسرقوا كل ما فيها ، حتى الرصاص الذى يعطى سقوفها اتزعهو وباعوه ، ولم تخلص منهم الدولة البيزنطية الا بشق النفس .
فلما صاروا فى آسية الصغرى انقسموا على أنفسهم ، وسار الايطاليون والألمان منهم وحدهم يتزعمهم قائد يسمى راينالد ، ومضوا يخبطون خبط عشواء فى شعاب الأناضول حتى قاربوا نيقية عاصمة سلاجقة آسية الصغرى ، فأسرع اليهم المسلمون وحاصروهم وشدوا عليهم الخناق ، فلما تأكد المسلمون أنهم مستسلمون لا محالة أعلنوا اليهم أنهم يطلقون سراح من يعتنق الاسلام منهم ، فما أسرع ما دخل راينالد فى الاسلام وهو لا يزال يحمل شارة الصليب على صدره ، وتبعه فى ذلك نفر كبير من رجاله ، وأما البقية التى كانت قد انخدعت بأقوال بطرس فقد فنيت عن آخرها ، وصاحبنا الراهب مقيم فى القسطنطينية يتفرج على المرتدين والهالكين ممن ساقهم الى ذلك الجحيم ..



ولقد تعودنا — نتيجة لما قرأنا من كتابات الغربيين عن الحروب الصليبية — أن ننظر الى أولئك الذين قادوا هذه الحملات على أنهم فرسان نبلاء يصورون المثل العليا لفروسية العصور الوسطى

وللحماس الدينى الذى سادها ، وتعود المؤرخون كذلك على أن يغفروا لهم الأذى والتخريب اللذين ألحقوهما بما وقع فى أيديهم من بلاد المسلمين ، على اعتبار أنهم كانوا يحاربون أعداء لهم فى الدين مما يجيز لهم عدم التقيد بقواعد الخلق أو آداب الفروسية . ولكن الحقيقة أن الغالبية العظمى من أولئك الذين قادوا الحملة الصليبية الأولى كانت أبعد شئ عن خصال الفرسان وقواعد الخلق الدينى ، وقد ارتكبوا وهم يجتازون بلاد أوروبا فى طريقهم الى الشرق من الجرائم وأعمال النهب ما يؤيد ذلك الحكم الذى أصدرته عليهم وتأييده مؤرخة مسيحية مثلهم معاصرة لهم هى أفا كومنين ابنة الامبراطور ألكسيوس البيزنطى ، فلم يكونوا فى نظرها الا برابرة أجلافا وطغاما طامعا جائعا لم يحمل شارة الصليب الا طمعا فى الغنيمة . والوقائع كلها تؤيدها فيما قالتها ، ويكفى أن نقف لحظات عند بعض الظاهرين منهم لنستبين صحة ذلك المقال :

خرج الصليبيون أول الأمر فى أربعة جيوش يبلغ مجموع جندها مائة ألف ما بين فارس وراجل ومهاجر وحاج ، غير العشرين ألفا التى سارت مع المشعبذ بطرس الناسك وصاحبه والتر سانز آقوار (الملفس) . فأما الجيش الأول فقد خرج من جنوب فرنسا يقوده رايموند كونت تولوز الذى يعرف أيضا بروبرت صاحب سان

جيل (يسميه المسلمون صنجيل) ، وأما الثانى فخرج من شمال فرنسا وبعض نواحي بلجيكا يقوده روبرت دوق نورمانديا ، وهو الابن الأكبر لوليم الفاتح (الذى غزا انجلترا سنة ١٠٦٦) وابن عمه روبرت الثانى دوق الفلاندر وصهره أسطفان كوث بلنوا . وخرج الجيش الثالث من نفس الناحية يقوده جودفروا دى بنوكتون وأخوه بلدوين (أو بودوان) دى بولونيا . وخرج الجيش الرابع من جنوبى ايطاليا ، وجله من النورمانين الذين غزوا هذه الناحية من البيزنطيين وانتزعوا صقلية من المسلمين ، وكان يقوده بوهيموند أمير طارنط (تارتو) وابن أخيه تانكرد . أى أن ثلاثة أرباع الذين ساروا لحرب المسلمين فى هذه الحملة الأولى كانوا فرنسيين ، فإذا ذكرنا أن البابا أربان الثانى نفسه كان فرنسيا ، وكذلك بطرس الناسك ووالتر المفلس ، تبينا أن الذين أشعلوا هذه الحرب الهوجاء على الاسلام والمسلمين كانوا فرنسيين . وليس ذلك مصادفة ، فحيثما وقع اعتداء على الاسلام وأهله وجدنا الفرنسيين أول المعتدين ، وفى العصور الحديثة كان أول من قاد الغرب فى الهجوم على الشرق فرنسا هو نابليون ، وبالأمس القريب كان الفرنسيون أصحاب الدعوة المجرمة للعدوان على مصر فى أواخر سنة ١٩٥٦ ، واليوم لا زالت

فرنسا تفتك بمسلمين اخوان لنا في الجزائر وتحاول أن تقضى في ذلك البلد الاسلامى الكبير على الاسلام والمسلمين . ولا زال هناك مع الأسف الشديد مسلمون يزعمون أن فرنسا يمكن أن تكون صديقة للإسلام وأهله ، ويدعون الى التعاون معها ويدعون أهلهم الى الثقة فيها !

فأما كبير أولئك الرجال — رايموند كونت تولوز — فقد كان شيخا في الستين من عمره لم تعرف عنه الى ذلك الحين كفاية أو مقدرة ، وقد أخذ بنصيب في الحملات المخربة التي قام بها أهل جنوبي فرنسا على المسلمين في الأندلس ، وكان دعيا مغرورا بارد الطبع ، بدت له الحرب الصليبية وكأنها فرصته الكبرى في الرياسة والقيادة ، ولذلك عجل بالدخول في دعوة أرباب بعد اعلانها بأيام وطالب بأن تكون له رياسة الجيوش ، وقد كذب حينما أعلن أنه سيقضى البقية الباقية من عمره في حرب المسلمين وزعم أنه تخلى عن أملاكه ، لأنه حرص في السر على أن يتفق مع ابن غير شرعى له على أن يدير له أراضيه أثناء غيابه ، ولم يتنازل عن وظيفته كحاكم لكونتية تولوز ، بل لم يتركها لابنه ألفونسو ، فكأنما لوح للناس بالصليب وأبطن الطمع والجشع والتمسك بما في يده من خيرات الدنيا . وقد حرص على أن يبيع ما باع من أملاكه بأعلى ثمن

استطاعه ، ثم قتر على جنده فى الاتفاق حتى شكوا النفاقة ورموه بالبخل الشديد .

وكان فيه طمع وجشع وعناد واحتقار للآخرين ، وعندما لقي الامبراطور البيزنطى أخذ يداور ويخادع ويأكل الحسد قلبه من قادة آخرين مثل بوهيموند النورمانى . وقد لقي أصحابه منه عناء بالغاً منذ دخلوا بلاد المسلمين ، وخاصة بعد وقوع أنطاكية فى أيديهم ، ووقع الشقاق بينه وبين قادة الحملة ، لأن بوهيموند النورمانى أسرع فاحتل قلعة أنطاكية ووقف رايموند ينازعه ويطالب بها لنفسه ، وعندما شعر أن أحدا لا يؤيده مضى يستولى على بلاد صغيرة غير حصينة مثل معرة النعمان ، وأراد أن يعطل السير الى بيت المقدس حتى يضمن لنفسه سيادة أنطاكية ، فلما يئس منه أصحابه انفضوا من حوله ، فاضطر الى المسير فى أعقابهم ، وعندما حاصر الصليبيون بيت المقدس كان أقلهم بلاء وثباتاً ، فلما دخلوا البلد كان من أكثرهم اسرافاً فى قتل الأهلى العزل الأمنين ، ومع ذلك فقد أخذ رشى من بعض المصريين وتركهم يسرون الى عسقلان ، فنفض الصليبيون أيديهم منه ، وتأكدوا أنه طالب عيش ومال لا صاحب جهاد . وعندما جاء الأوان لانتخاب ملك لبيت المقدس ، أسف أشد الأسف على ما كان قد عاهد البابا عليه من

أن تكون الرئاسة العليا للمندوب البابوي ، فاضطر الى التخلي عن ذلك المنصب الكبير ، ثم أسرع ليفوز بشيء قبل أن تضع الفرصة ، فجعل نفسه أميراً على طرابلس .

ولم يكن روبرت دوق نورمانديا قائد الجيش الثاني بخير من راييموند ، فقد اشترك في الصليبيات عن يأس من تحسين حاله في بلاده : كان الابن الأكبر لوليم الفاتح ، ولكن أمله في العرش كان منعدماً ، اذ أن الناس كانوا يستضعفونه ، حتى كان أخوه وليام روفوس يعتدى على أملاكه ، واضطر البابا أربان الى التدخل لحمايته ، وربما يكون هو الذي نصحه بالانصراف عن تلك الامارة التي لا يطمئن فيها على نفسه ، والبحث عن ملك جديد في الشرق ، ولم يكن له في الحروب بعد ذلك شأن يذكر ، فيما خلا اشتراكه في الاستيلاء على معرة النعمان واحراقها قبل المسير الى بيت المقدس .

وقد رافقه في الحملة صهره أسطفان كونت بلوا ، زوج ابنة وليم الفاتح وهو لم يخرج الى الحرب الا لأن زوجه أمرته بالخروج فامتلأ أمرها ، وعندما وصل الى القسطنطينية وتلقى هدايا الامبراطور ألكسيوس فرح بها وكتب الى زوجه يقول لها : « ان أباك يهدينا الشيء بعد الشيء ، ولكن هداياه لا تقاس بمه

أتخفنا به هذا الرجل » ، ولم يظهر له في الحرب بعد ذلك أثر .
أما صاحبهما الثالث روبرت كونت فلاندر فلم تذكر له الحوليات
بعد ذلك الا مشاركة ضئيلة في الاستيلاء على معرة النعمان .

أما جودفروا دى بويون وأخوه بلدوين دوق بولونيا ، وهما
قائدا الجيش الثالث ، فكانا مثالين للطمع والقسوة وعدم المبالاة
بالدماء . ويذهب مؤرخو الحروب الصليبية الى أن جودفروا يعتبر
المثال الحى للفارس المسيحي ، ونسجت حوله الأساطير الأوروبية
هالة من المجد لا تستند على أصل من الواقع ، فقد كان الرجل
عندما ترددت الدعوة الى الحرب الصليبية يقف أمام مستقبل
مظلم : كان هنرى الرابع امبراطور ألمانيا قد صادر أملاكه ولم يدع
له الا كوتتية ألتورب ، فاجتهد في كسب ود هنرى حتى حارب
البابوية اكراما له ، فرضى عنه هنرى ومنحه دوقية بويون ، وهى
القسم الأدنى من اللورين ، فأساء الإدارة وعسف الناس حتى قرر
هنرى عزله ، فاذا هو على وشك العزل اذ ترددت الدعوة لحرب
المسلمين ، فوجد فيها فرجا من حرج ، ودخل المعركة على أمل أن
يجد لنفسه في الشرق ملكا . ولكى يحصل على مال يستعد به
للخروج الى الشرق . صادر أموال اليهود في امارته ونهب دورهم
وقتل بعضهم قتلا ذريعا حتى ليقال انه كان يشويهم على السفود .

وعندما وصل الى القسطنطينية لم يكن له هم الا كسب ود
الامبراطور البيزنطى حتى يعينه على ادراك احدى الولايات ،
وتكالب فى الحصول على امارة حتى كاد ينصرف عن بيت المقدس ،
وعندما استولى النصارى على هذا البلد أفتى القساوسة بأنه
لا يجوز أن يتوج أحد على البلد الذى توج فيه المسيح بالشوك
على رءسهم ، ولكنه ضرب بفتواهم عرض الحائط وجعل نفسه
أميرا ، ثم أوصى لأخيه بلدوين من بعده ، لأن الملك ، لا قبر المسيح
كان هدفه الأول والأخير . ولم يكن بلدوين هذا الا سفاكا للدماء
عاتيا بعيدا عن خلق الفرسان ، وقد اشتهر بقتل الأسرى واحراق
القرى ونهب الماشية والنعم ، وهو أقرب الى رجال العصابات منه
الى قادة الجيوش ، ولم تطمئن نفسه حتى توج نفسه ملكا على
بيت المقدس . وكان قبل اشتراكه فى الحرب الصليبية فارسا لا يملك
أرضا ، وكان ذا ولع بالنعيم والجاه حتى غرق فى الدّين ، فلما رأى
فرصة الحرب أخذ زوجه وأولاده ومضى الى الشرق على غير أمل
فى العودة .

وكان النورمانيون — وهم الجيش الرابع — شر الجميع .
كانوا فى تلك العصور جنسا نهابا من اللصوص والقراصنة يغيرون
على الشواطىء ويحرقون القرى ويخطفون ما تيسر لهم خطفه ،

ثم يعودون الى سفنهم . وقد أنزلوا الخراب بكل ناحية مروا بها سواء في بلاد النصرانية أو الاسلام ، وتفرقوا جماعات حطت كل جماعة منها بناحية كأنهم الجراد المنتشر . وقد غزت جماعة منهم انجلترا وأنشأت فيها دولة النورمانين ، ونزلت جماعة أخرى جنوبى ايطاليا وانتزعتها من البيزنطيين ، ونهزت فرصة تفرق أمر المسلمين في صقلية فاستولت منهم على تلك الجزيرة ، وأنشأت في جنوبى ايطاليا وصقلية ملكا عريضا . ومن هذا الفرع من النورمان خرج الجيش الرابع وعلى رأسه بوهيموند وابن أخيه تانكرد ، وكان كلاهما الى ذلك الحين أميرا شقيا يبحث لنفسه عن مصير .

فأما بوهيموند فقد كان ابنا لروبرت جسكارد ملك الدولة النورمانية في جنوبى ايطاليا ، وكان أبوه قد طلق أمه وحرمه من وراثته العرش وباع لابنه الثانى من زوجة جديدة تزوجها ، فغضب بوهيموند وأخذ ينازع أخاه دون جدوى ، ثم طمع في صقلية ، ولكن صاحبها رنجر ، وهو عمه ، رده عنها ، فاذا هو في حيرته اذ ترددت الدعوة الى الحرب الصليبية فسخر منها أول الأمر ، ثم رأى انشغال الناس نحو المشرق وأدرك أنها فرصة أتته لكى يصيب من الدنيا شيئا ، فجمع فرسانه وقرر الخروج الى الأراضى المقدسة وتبعه ابن أخيه تانكرد . ولم يحاول بوهيموند اخفاء

مطامعه ، فمنذ وصل الى القسطنطينية في مارس سنة ١٠٩٦ لم يكن له هم الا اظهار الطاعة والولاء للامبراطور البيزنطى ، ثم طلب منه أن يعينه دَمَسْتَقًا — أى قائداً — لجيوشه في الشرق ، فاعتذر الامبراطور وسوف ، اذ كان يعلم سريرة نفسه ، ثم أخذ يتنازع راييموند كونت تولوز على القيادة ، وتحالف مع الامبراطور البيزنطى على اخوانه الصليبيين فرموه بالخيانة ، وما زال يسعى ويدبر حتى جعل نفسه أمير أنطاكية يعاونه ابن أخيه تانكرد .

ولم يكن بعد ذلك موفقا في الادارة أو الحرب ، فأما في الادارة فقد أساء الى أهل البلد من مسلمين ونصارى حتى أبغضه الامبراطور البيزنطى وأعلن عليه الحرب ، وعاداه الأرمن وحالفوا البيزنطيين عليه . وأما في الحرب ، فقد خرج يريد مهاجمة حلب فانهزم ووقع في أسر الأمير المسلم كَمِشْتَكِين بن دانشمند في رمضان ٤٩٣ / يوليو ١١٠١ ولم يتخلص من الأسر الا بفدية ثقيلة . وقد أخطأ هذا الأمير المسلم خطأ جسيما بقبول فدائه ، لأنه آذى المسلمين بعد اطلاق سراحه أكثر مما آذاهم قبله . فقد عول منذ عودته الى الحرية على الاستيلاء على حلب ، ومضى يحاصرها المرة بعد المرة دون جدوى ، ثم حالف بلدوين الثانى صاحب الرها ومضيا يستوليان على ماحول حلب من الحصون والقلاع والمدن ، ثم

حاصرا حران في رجب ٤٩٧ / ربيع ١١٠٤ ، فهاجبهما المسلمون هجوما عنيفا ، وقضوا على جيش بولدوين ، وتركهم بوهيموند وابن أخيه تانكرد يقضون على حليفهما ويأسرونه ، وارتدا الى أنطاكية ليجدا الناس في ثورة عليهما .

وطمعت الدولة البيزنطية في أنطاكية فأقبلت تشدد الحصار عليها ، وظال حصار البيزنطيين للبلد حتى أشرف على التسليم ، فجزع بوهيموند وترك البلد ومن فيه وعاد الى أوروبا لجمع جند جديد تاركا ابن أخيه تانكرد يحارب البيزنطيين وحده ، ولم يسعه الا الاستسلام والدخول في طاعتهم وحكم البلد باسمهم . أما بوهيموند فلم يعد الى الشام مرة أخرى ، فقد جمع جندا ليسير به الى الأرض المقدسة ، ثم خطرت بباله فكرة مهاجمة أملاك الدولة البيزنطية في البلقان ، فقد كان الملك غايته الأخيرة ، فحاصر دورازو سنة ١١٠٧ وفشل في الاستيلاء عليها ، ثم اضطر آخر الأمر الى الدخول في طاعة البيزنطيين . ومضى بعد ذلك يجمع جيشا آخر يجدد به آماله ، ولم يزل في اقبال وادبار حتى مات شريدا محروما كما خرج من بلاده عندما حمل شارة الصليب .



أولئك هم أعلام الفرسان وقادة الجند في الحملة الصليبية

الأولى ، فما بالك بالبقية ؟ لقد كان عامة جند الصليبيين طعاما لا يعرف للفروسية أو قواعد الحرب معنى ، ولا يذكرون أنهم مسيحيون الا لما ، وكانت وطأتهم على الكنائس في البلاد التي دخلوها لا تقل عن أذاهم للمساجد ، وما من بلد دخلوه الا شكوا منهم نصاراه قبل مسلميه ، فقد كانوا ينهبون ويسلبون دون شهامة أو مروءة ، وكانوا اذا وقع في يدهم أسير من المسلمين نظروا فيمن يشتريه فاذا لم يجدوا قتلوه . وسترى في سياق ما نقص من أخبارهم في هذا الكتاب ما يؤكد ما قلناه .

فاذا كان هذا هو حالهم صغارا وكبارا ، فما الذى مكن لهم في بلاد المسلمين ؟ وما الذى جعل غارتهم الأولى تتحول الى غزو مستقر ينجلي عن امارات وممالك يحتاج المسلمون بعد ذلك الى جهاد عشرات السنين المتوالية حتى يقضوا عليها ؟

يرجع ذلك الى ثلاثة أمور :

الأول : تفرق المسلمين واشتغال الرؤساء بالحروب والمنازعات فيما بين بعضهم وبعض .

والثانى : قلة ايمان هؤلاء الرؤساء بحرمة الوطن الاسلامى و قدسية أراضيه وحياتهم للأمانة التى كانوا يحملونها .

والثالث : ضعف الفاطميين وفساد سياستهم فى أواخر أيام دولتهم .

فأما عن تفرق أمر المسلمين فقد أشرنا الى ما أصاب دولة السلاجقة من تفرق بعد موت ملكشاه ، وبقي أن نقول ان التفرق لم يقتصر على رجال البيت السلجوقي وحدهم ، بل شمل ولائهم وأمراء نواحيهم أيضا ، فقد ابتدر كل وال أو أمير الفرصة واستقل بنفسه وخرج على الدولة . ولو أن الأمر اقتصر على الخلاف على العرش بين خلفاء ملكشاه ، فأقام الأمراء والولاة على الاخلاص للدولة بصرف النظر عن كون سلطانها ، لما بلغت المصيبة هذا المبلغ ، ولكن الولاة والأمراء في ذلك العصر كانوا حفنة من العتاة الظالمين لا يعمر قلوبهم ايمان أو اخلاص ، وكانوا من قصر النظر بحيث حسب كل منهم أن انفرادة بناحية واستيلاءه على خيراتها سيزيد من حظه في الحياة ومن جاهه وسلطانه ، فلم تمهلهم الأيام أن أوردتهم أسوأ الموارد ووجدوا أنفسهم بعد قليل رهن الردى وفريسة الأعداء ، فلقى منهم مصرعه من واثاه أجله ، وعاش على الذل والهوان من كتبت له نقمة الحياة في ظل الأعداء وتحت سلطانهم ، أو على رعب دائم منهم .

ولقد نسي رجال البيت السلجوقي بعد موت ملكشاه عام ٤٨٤/١٠٩٣ أن قوة بيتهم ترجع الى اتحاده ، وأنهم سادوا بلاد الاسلام لأنهم تصدروا لقيادة أموره صفا واحدا ، فاختلف

أبناء ملكشاه وطمع كل منهم في الملك لنفسه وحده ، ووقف خلف كل منهم وزراء سوء يزينون له حرب اخوته والقضاء عليهم .
ولو نظرنا الى أبناء ملكشاه كلا على حدة لوجدنا فيهم رجالا ذوى حمية وقوة وجلد ، فقد كان بركياروق شابا عفيا ومقاتلا لا يهاب الموت ، ولو خلا الأمر له لما استقرت للصليبيين في الشام قدم ، ولكنه عاش خمسا وعشرين سنة ملك منها نيما وثلاث عشرة سنة كلها حروب مع آلة ومتاعب مع خصومه ، قال عنه ابن الأثير : « قاسى من الحروب واختلاف الأمور عليه ما لم يقاسه أحد ، واختلفت به الأحوال بين رخاء وشدة ومثلك وزواله ، وأشرف في عدة ثوب ، بعد اسلام النعمة ، على ذهاب المهجة ، ولما قوى أمره في هذا الوقت وأطاعه المخالفون واقادوا له أدركته منيته ، ولم يهزم في حروبه غير مرة واحدة » .

وأما أخوه محمد فلم يكن أقل منه شهامة ولا بسالة ، ولكنه منى بالطمع في الملك ، فصرف معظم أيامه في قتال أخيه بركياروق ، فلما مات هذا الأخير خلا له الجو ، وكانت سنة اذ ذاك قرابة خمس وعشرين سنة ، فلم يجد بين يديه الا دولة مفرقة وملكا ذليلا استولى الصليبيون على جانب كبير منه ، وقد ضاعت الشام وآسية الصغرى ، وأصبح ، وهو بعد في شرخ الشباب وكأنه

شيخ هرم يجز رجله جراً ، ومن حوله قواد لا يطيعونه ولا يخترمونه ورعية تحتقره ولا توقره ، ومات في الثامنة والثلاثين من عمره ، فلم يستمتع بما قضى فيه أيامه من طلب الجاه والسلطان .

وتولى الملك من بعده ابنه محمود ، وهو بعد في الرابعة عشرة من عمره ، فتولى أمره مرييه — أو أتابكه — وأصبح السلطان مجرد رمز لا حول له ولا قوة ، وحدث مثل ذلك لأمراء النواحي : تعاقب الصغار منهم على الإمارات وانتقل السلطان الى مريهم أو أتابكتهم ، انقضى عهد السلاطين وبدأ عصر الأتابكة .

ولم يقتصر الأمر على النزاع بين أبناء ملكشاه ، بل دخل ميدان الطمع الأعمام وكل من حدثته نفسه بالملك من الأقارب ، ومن أشد هؤلاء عنادا وأكثرهم مطاولة تبتش بن ألب أرسلان وعم بركياروق ومحمد ، وكان عند موت أخيه ملكشاه صاحب دمشق وما جاورها وحلب وما إليها من كبار المدائن ، فلم يزل الطمع يضلّه حتى تصدى لحرب ابن أخيه بركياروق ، وطالت الحرب بينهما حتى ضعف كلاهما ، وانتهى أمره الى أن قتل في صفر من سنة ٤٨٧ / يناير ١٠٩٤ وتقاسم أملاكه ابناه ، فانفرد رضوان بحلب واستقل دقاق بدمشق ، وأصبح كل من هذين البلدين إمارة مستقلة .

وفي أثناء ذلك دخل الصليبيون وملكوا ما ملكوا من بلاد الشام ، وهددوا الأخوين تهديدا بالغا ، حتى اضطرا الى الدخول في طاعة الصليبيين وأداء الجزية ، وقد رضى بهذا الهوان مفضلين المقام عليه على الاتحاد لا تقاذر عيتهما ورعاية حرمة الوطن العربى . ولت الأمر صفا لكل منهما فى بلده ! فقد استبد بأمر رضوان جناح الدولة الحسين بن أيتكين الذى يعرف بأتابك حلب ، واستبد بأمر دقاق معتمد الدولة طغتكين الذى يعرف بأتابك دمشق ، واهرد قوام الدولة كربوقا بالموصل ، واستقل آقسنقر البرسقى بحمص ، وياغيسيان بأنطاكية ، وتفرقت البلاد أيدي سبا ، حتى أصبح كل بلد فى الشام والعراق دولة !

أما سلاجقة آسية الصغرى فقد أغراهم ضعف أمر السلاجقة بالاستبداد ، فأصبح قلج أرسلان أميرا على سلطنة آسية الصغرى وقد نسى أن أساس قوته كان تأييد السلاجقة العظام له ، وأنه اذا انسلك عنهم ضاع أمره ، ولم تلبث الأيام أن أغصته فيما طلب ، فنهض لمناوآته نفر من أتباعه هم آل دانشمند انتزعوا منه الجزء الشرقى من ملكه ، ومضى يحاربهم وينفق جهده فى استعادة ملكه منهم .

وبينما رؤساء الدولة الاسلامية على هذه الحال ، اذ دخل

الصلبيون فأطاحوا بملك سلاجقة آسية الصغرى واستولوا على عاصمتهم نيقية ، وتشرد سلطانهم فيما بقى له من البلاد واتخذ قونية عاصمة له ، وأقبل الصليبيون يحاصرون أنطاكية ، وهددوا دمشق وحلب ، فهل تحسب أن ذلك كان كافيا لاقناع أمراء هذه البلاد بضرر الخلاف وسوء مغبته ؟ هنا يدخل العامل الثانى من العوامل التى مكنت للصليبيين ، ونعنى : قلة ايمان الرؤساء بحرمة الوطن العربى و قدسية أراضيه ، وخيانتهم للأمانة التى حملوها أمام الله والتاريخ .

ذلك أن أولئك الرجال ، كانوا — فضلا عن قلة قواهم العسكرية — لا يشعر أحد منهم بحرمة المسئولية الملقاة على عاتقه أو بقيمة الأمانة التى أوثمن عليها ، لأن الحاكم ذا الضمير الحى قد يكون قليل العساكر أو وحيدا بين أعداء ، ولكنه يأبى التفريط فى شبر من أرضه أو حق من حقوق رعاياه دون أن يستبسل فى الدفاع عنه أو يهلك دونه ، وسرى الكثير من أمثلة ذلك فى حياة نور الدين . والحكم الصالح أولا وآخرها مسألة ضمير وكرامة ، كرامة الوطن الذى يحى ذماره وحرمة الناس الذين يتولى أمرهم و قدسية الفكرة التى يمثلها وينافح عنها ، وإذا هبطت فكرة الحاكم عن الحكم حتى أصبح يتصوره مغنما يفوز به أو دنيا يتحبجج فى

خيرها لم يعد حاكما جديرا بهذا الوصف ، وسقط في أعين رعيته ،
وأصاب عقيدته الهوان والضميم .

ولست العبرة في الحكم بما لدى الحاكم من قوة ، بل بما
لديه من ايمان بقدسية مسئوليات الحكم وضمير وازع يشعره
بأن بلاده التى يتولى عليها انما هى شرفه الذى يدفع عنه كما يدفع
الرجل عن حريمه .

وكما ينهض الرجل الحر مناضلا عن حريمه وشرفه دون نظر
الى النسبة بين قواه وقوى العادى على شرفه ، ودون نظر أيضا
الى مبلغ هذا الحريم من الجمال — لأن المسألة مسألة شرف ،
والشرف لا يتجزأ — فكذلك الاحساس بالشرف القومى يبعث فى
الرجل الكريم حمية فلا يبالى بخطر أو بعدو . وما دامت هذه
الحمية تعمر نفس الحاكم فلا يضيره عدو فى الوجود ، بل هو اذا
خسر معركة لم يغلب ، لأن الهزيمة احساس ، وما دمت لم تحس
أنك قد غلبت ، فأنت لم تغلب أبدا ، ولا يزال عدوك فى خوف
منك ولو كان محتلا أرضك مضيقا على حريتك .

وفى التاريخ عشرات الأمثلة من أمم خسرت معارك وحروبا
ولكنها لم تنهزم ، واحتل الأعداء أراضيها فوجدوا أنفسهم فيها
وكأنهم أسرى يخافون الناس أكثر مما يخافهم الناس ، ولدينا

المثل في تاريخنا الاسلامى تحدثنا عن ذلك بأجلى بيان ، فقد خسر المسلمون موقعة أحد ولكنهم لم يهزموا ، ونهضوا بعدها نهضة جعلت القرشيين يشعرون أنهم منهزمون محاصرون في مكة . ثم أقبل هؤلاء يحاصرون المدينة ، وجمعوا جموعا وأحزابا وأحاطوا بمدينة الرسول صلوات الله عليه ، فلم يمس الخوف قلوب المسلمين ومضوا يقاتلون ويهاجمون يعمر قلوبهم ايمان بالظفر والتفوق أذهل قريشا وما جمعت من أحزاب ، فاذا بهم يشعرون وكأنهم هم المحاصرون المغلوبون ، وباتوا ينتظرون فرصة الانسحاب بقلوب يملؤها الخوف ، ثم تسارعوا يجرون أذيال الهزيمة والفشل .

وبالأمس القريب كان الانجليز في بلادنا محتلين منطقة القتال ، وكانوا يشعرون أنهم قوة احتلال طالما كان الشعور بالضعف والخور يملأ نفوسنا في العهد الماضى ، فلما نهضنا وتخلصنا من الخوف من العدو وأخذنا تناوشه ونهاجمه ، انقلبت الآية وأصبح المحتلون يشعرون وكأنهم محاصرون في معسكراتهم التى شيدوها ومضى رجالنا البواسل ينوشونهم ويتخطفون رجالهم ويوغلون في معسكراتهم حتى ملأوا قلوبهم رعبا ، ومضى رجال الثورة يبنون الجيش الباسل ويلقون في نفوس المحتلين الرعب حتى صاروا أسرى يطلبون الفكاك ، وما أن أتيت لهم فرصة الاتفاق معنا

على الجلاء حتى خرجوا مسرعين يحمدون الله على السلامة بجلودهم . ولم يكن ميزان القوى بيننا وبينهم قد انقلب على الصورة التى جعلنا أقوى منهم وأكثر عددا ، فقد كانوا هناك عشرات ألوف تؤيدهم مئات ألوف أخرى من قوات الامبراطورية وأساطيل الجو والبحر ، ولكن الذى تغير هو روحنا المعنوى ، فقد ملأ نفوسنا ايمان بالنصر والظفر ، وغدونا نشعر أن هذا العدو ، وان كان يحتل جزءا من أراضينا الا أننا لم نغلب ولم نقهر فكان هذا أول النصر وباب الخلاص ، لأن القوة احساس ، والنصر ايمان ، والعزة شعور ، والشرف ضمير .

هذه كلها كانت تنقص رؤساء المسلمين أيام اجتاحت الصليبيون بلادهم : كانت لديهم قوة ولكنهم كانوا يحسون أنهم ضعاف ، وكانت لديهم أدوات النصر ولكن كان ينقصهم الايمان ، وكانت لا تنقصهم أسباب العزة بالاسلام والعروبة ولكن قلوبهم كانت خاوية من الشعور بالايمان والعزة ، وكانوا يمثلون شعوبا تجمعت لها أسباب الشرف جميعا ولكن ضمائرهم كانت قد ماتت من زمان طويل . وقوم هذه حالهم حقيقون بأن تنزل بهم الهزيمة ولو كان خصومهم هملا وغشاء كهذا الذى قذفته أوروبا على بلادهم باسم الصليبيين .



واذا نحن درسنا أحوال بلاد الوحدات الاسلامية الكثيرة
 خلال السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر الميلادى والأعوام
 الأولى من القرن الثانى عشر تبينا صدق ما نقول ، فان سلاجقة
 آسية الصغرى مثلاً ، رغم انفرادهم بأنفسهم وخروج بنى دانشمند
 عليهم لم يكونوا عاجزين عن أن ينهضوا للعدو بجيش عدته بضع
 عشرات من الألوف ، وقد رأينا قليج أرسلان يقضى على عشرين
 ألفاً كانوا فى حملة بطرس الناسك ووالتر المفلس بأهون سبيل ،
 وعندما دخلت الحملة الصليبية الأولى أراضيه وأقبلت تحاصر
 عاصمته فى رجب ٤٩٠ / مايو ١٠٩٧ كان فى استطاعته أن يحررها
 لو أن نفسه كانت مشربة بشيء من الايمان الذى كان يملأ قلب
 رجل مثل **(ملكشاه)** عندما نازل مثل هذه القوة فى ملاذكرد ، فقد
 كانت جموع الصليبيين كثيرة ، ولكن قيادتهم لم تكن موحدة ،
 وكان كل من رؤسائهم يرجو أن يحوز نيقة لنفسه ، وكان
 الامبراطور البيزنطى ألكسيوس ورجاله واقفين لهم بالمرصاد
 فى بلد قريب يسمى بليكانيوم لكى يخطف الفريسة من أيدي
 أولئك الجفأة ، وكانت أسوار البلد حصينة يزيد طولها على أربعة
 أميال يقوم عليها مائتان وأربعون برجاً عالياً مشكوكة بالرجال
 والمقاتلين .

ألب
 أرسلان*

ولقد أبلى أهل نيقية بلاء حسنا حتى قتلوا قهرا من كبار القواد مثل بلدوين كونت غنت ، ولم يسلم قائد بيزنطى من سهام المسلمين ، وكان أمل المحاصرين عظيما فى قلعج أرسلان ، ولكن هذا الرجل لم يكد يقترب من المدينة ويرى الصليبيين ويشتبك معهم فى مناوشة قصيرة حتى آثر السلامة وانسحب تاركا البلد لمصيره وفيه زوجه وعياله ، فقت ذلك فى عضد الحامية ، واستسلمت للامبراطور البيزنطى — لا للصليبيين — فى شعبان ٤٩٠ / يونيو ١٠٩٧ أى بعد أكثر من شهر من الحصار والقتال ، وقد دل أهل نيقية على حكمة سياسية الى جانب ما أبدوه من البسالة ، فان التسليم للبيزنطيين أقهد الكثيرين من أهل البلد من الموت البشع على أيدي الصليبيين ، وخرج بعضهم سالما ، ومن بين ذلك البعض كانت زوج السلطان المتقاعس وعياله . وقد غضب الصليبيون لذلك كل الغضب ، وحقدوا على الامبراطور اذ لم يسلمهم اياهم ليفتكوا بهم .

وقد لقي قلعج أرسلان جزاء جينه ، فظل بقية أيامه شريدا فيما بقى له من ملكه ، ومن الغريب أن همته لم تسهم به الى النهوض للصليبيين بعد ذلك ، بل مضى يحارب اخوانه المسلمين محاولا أن يفوز بشيء من أراضهم يعوض به ما ضاع ، وقد

كانت خاتمته شر ما تختتم به حياة رجل مثله : عدا على الموصل ودخلها فنهض له صاحبها وأوقع به هزيمة ساحقة في سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، وقد قطعت ذراعه أثناء المعركة ورأى نفسه سيصير الى أسر أعدائه فألقى بنفسه في خندق غرق فيه ، فلقى بهذا جزاء وفاقا على ما كان منه من خور وخيانة لأمانة الحكم والاسلام .

ووقع مثل هذا لياغيسيان صاحب أنطاكية عندما تقدم الصليبيون وحاصروا عاصمته في ذى الحجة ٤٩٠ / أكتوبر ١٠٩٧ ، فقد كانت أحوال الصليبيين اذ ذاك أوفق ما تكون للقضاء عليهم : كانت أقواتهم قد نفدت وحط الوباء بمعسكرهم واشتد الخلف بينهم ، بحيث لو حزم هذا الرجل أمره وخرج اليهم لقضى على قواتهم ، وقد بلغ من ضعفهم وسوء حالهم أن أخذ جنودهم ينفضون عن الحصار ويتفرقون في الأرياف يسرقون وينهبون ليحصلوا على القوات ، بل أدرك اليأس بطرس الناسك المشعبذ ، وكان قد أقبل في حراسة الصليبيين ، فترك الجيش وولى هاربا مع نفر من كبار الفرسان ، فتبعهم تانكرد النورمانى وعاد ببطرس ، وجعله يقسم على ألا يعود الى مثل هذا الفرار ، وقد حث بطرس وعاد الى الفرار بعد ذلك ! وأدرك اليأس بوهيوند نفسه — الذى سيصبح أمير أنطاكية — وقرز الانسحاب ، ووجد اديمار

أسقف لينهي — مندوب البابا والرئيس الرومى للحملة —
 أن الفشل محقق لا محالة ، فزعم أن طائفا أتاها فى نومه وقال له
 ان الحربة التى طعن بها السيد المسيح مدفونة فى مكان ما خارج
 السور ، فلما حضر الناس ووجدوها اشتدت حماسهم اذ رأوا
 فى ذلك بشرى من الله بالنصر ، فعادوا يستبسلون فى القتال
 والياس يملأ قلوبهم (واتضح للصلبيين بعد ذلك أنه دفن الحربة
 المزعومة بيده قبل ذلك) .

ولو كان ياغيسىان من الصابرين المؤمنين لما عسر عليه القضاء
 عليهم ، ولكنه جبن عندما رأى بعضهم على السور وولى هاربا ،
 وأراد الله أن يخزيه ويميته شرميته ، فقد خارت قواه وأدركه
 الهلع وهو هارب حتى لم يعد يتمالك على حصانه ، فتركه من
 كانوا معه ومضوا ، واجتاز به خطاب أرمنى فعرفه وأقبل فقطع
 رأسه كأنه أرتب صاده ومضى بالرأس الكريه الى الصليبيين !
 فما ضره لو كان ثبت وقاتل ، فاما أدرك النصر أو كان فى ذمة الله
 مع الشهداء ؟

ولقد كان تصرف جيرانه من أمراء المسلمين أثناء حصار
 أنطاكية أدل على خور العزيمة وقلة الايمان وسوء الضمير من
 المثلين اللذين ضربناهما ، فلقد بعث ياغيسىان صاحب أنطاكية

يطلب المدد عندما اشتد عليه الحصار ، فأما رضوان صاحب حلب فقد أبى أن يجيب صريخ أخيه المسلم الا اذا اعترف هذا بسيادته ، كأن الطرف كان ظرف تنافس على السلطان والجاه ، وكان ياغيسيان من الأناثية بحيث فضل ترك المسلمين يهلكون على أيدي الأعداء على الاعتراف بسلطان صاحب حلب !

واستمر أهل أنطاكية يقاتلون ويصيبون من الصليبيين حتى لم يبق من بين القادريين على القتال منهم غير سبعمائة فارس ، وألحت الرسل على دقاق صاحب دمشق في الاستجابة لصريخ أنطاكية ، فوعده بالعون ولكن همته لم تحركه الى العمل ، وتسامع أخوه رضوان صاحب حلب بالأمر وخاف أن يسبقه أخوه الى أنطاكية ، فعاد يطلب الى ياغيسيان الاعتراف بسلطانه ، ضمانا لحقه في الغنيمة ، فأجاب ياغيسيان طلبه والهلاك آخذ بخناق بلده ، فسار رضوان في قوة طيبة لعون أنطاكية مصطحبا معه تابعه ستقمان الأرمنيّ صاحب ديار بكر ، وقد بلغ من ضعف الصليبيين أن ملكهم الروع وعقدوا مجلسا للتشاور في خيمة اديمار مندوب البابا ، ورسموا خطة القتال ، وفي اليوم التالي — الرابع من ربيع الأول سنة ٤٩١ / التاسع من فبراير ١٠٩٨ — خرجوا للقائه المسلمين والتحموا معهم طول النهار دون أن ينالوا منهم منالا ، واقترب الجيشان لهدنة قصيرة .

ولو في نفوس أولئك الرجال حمية لقضوا على الصليبيين ،
فقد كانوا هلكى يسقط الواحد منهم من الاعياء ميتا ، ولكنهم
تراخوا ووقفوا جمودا ، ثم صدمهم الصليبيون صدمة فلت غربهم
فتهاربوا أمام نيف وستمائة فارس ، وتبعهم العدو بالسيف ، وبلغ
من فرعهم أن روعوا حامية حارم ، وهى على مقربة من أنطاكية ،
فخرج رجالها هم الآخرون يطلبون الفرار ، واستولى الصليبيون
على ذلك البلد دون أن يرموا بسهم ..

وسول سوء رأى للأفضل بن بدر الجمالى وزير الفاطميين
فى مصر أن يتصل بالصليبيين ليكسبهم الى جانبه فى نزاعه مع
السلالة ، حاسبا أن عدو وطنه قد ينفعه على أخيه ، فبعث بسفارة
مشتومة الى الصليبيين ، ونبههم رجال الامبراطور البيزنطى الى
أهمية الافادة من الخلاف والتحاسد بين المسلمين ، فأكرموا وفادة
السفراء ووعدوهم بالتعاون ثم حملوهم بهدايا مما نهبوه من
المسلمين ، وقد فتحت هذه الفعلة من وزير الفاطميين عيون
الصليبيين على ما يملأ قلوب المسلمين من حسد بعضهم لبعض ،
وأخذوا من ذلك الحين يعملون على الايقاع بينهم فأفلحوا فى ذلك
فلاحا كبيرا .

وكان الأمير قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل قد حسب

أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية أن فرصته قد وافت ليفوز هو بالبلد المسكين ، وكان أهله لا يزالون صامدين للأعداء ، فاستأذن السلطان بركياروق في المسير ، ومضى مع ثمر من أمراء شمالي العراق وساروا في جيش قوى انضمت اليه قوة من دمشق يقودها أتابكها طغتكين ، ثم انضمت اليهم قوات من حمص يتقدمها صاحبها جناح الدولة ، وأخرى من سنجار يتقدمها أرسلان تاش ، وثالثة من ديار بكر يقودها سليمان بن أرتق ، وكانت الفرصة أكثر ما تكون ملائمة لكسر الصليبيين والقضاء عليهم ، فبالإضافة الى توالى خسائريهم وانتشار الأمراض بينهم ضربت المجاعة عليهم بجرائها حتى عدموا الأقوات وبعثوا يطلبون المدد من قبرص ، ثم ان الخلاف بين رؤسائهم كان قد بلغ مداه ، وانقسموا فريقين : فريقا يؤيد بوهيموند وفريقا يؤيد راييموند كونت تولوز ، ومن حول الفريقين وقف رجال الامبراطور البيزنطي يجربون حظهم لعل صاحبهم يفوز بالبلد .

وكان قائد الجيش الممد قوام الدولة كربوقا قائدا قادرا ، ولكنه كان مغرورا قليل الذكاء ، وكان أحرص ما يكون على أن يفوز بالبلد دون حليفه دقاق صاحب دمشق ، فوقف بمن معه على أبواب البلد يصيب من الصليبيين الجملة بعد الجملة ، وكلما

قال له رجاله : الساعة نهجم ! تريث وقال : « لا تفعلوا ، أمهلوهم حتى يتكامل عددهم فنقتلهم جميعا ! » واختلف الأمراء معه وأخذوا يكيّدون له ويكيّد لهم ، حتى بيتوا التخلي عنه وإسلامه للأعداء إذا أزفت الآزفة .

فلما جمع الصليبيون جمعهم وصدّموا المسلمين تخلى الجميع عن كربوقا وتركوه وحده ، فلما استحر في جنده القتل ولى هاربا ، وثبتت جماعة من المجاهدين الذين خرجوا للقتال حسبة الله حتى فنت عن بكرة أبيها ، ثم عاد الصليبيون إلى أنطاكية واستعانوا برجل خائن يسمى فيروز واطأهم على الصدر بقومه ، وهدم للصليبيين الدخول والاستيلاء على أحد أبراجها ، وفوجيء ياغيسيان بالأمر ففقد وعيه وخرج هاربا فقتل على ما روينا ، وفي السادس من رجب سنة ٤٩١ / الثالث من يونيو ١٠٩٨ دخل الصليبيون أنطاكية بعد أن دافع عنها أهلها دفاع الأبطال ، فوضعوا فيهم السيف حتى لم يبقوا على مسلم واحد ، بل لم يعفوا النصراني في اندفاعهم ، فقتلوا منهم آلافا ، ونهبوا البيوت والكنائس حتى لقد قال صاحب « الجستا فرانكوروم » (أعمال الفرنجة) : « ان الإنسان لم يكن يسير في الطرقات إلا على الجثث ، وقد تعفنت كلها تحت شمس يونيو وحرارته » . وهذا ما جناه الأمراء التعمساء على رعاياهم الأبرياء ..

تخلى الأمراء والقواد عن رعاياهم ، وانصرف كل منهم الى مطامعه يرضيها على قدر ما يسر له طموحه المتواضع ، وبقي الناس وحدهم دون أن يدفع عنهم أحد ، فمنذ أن استولى الصليبيون على أنطاكية الى أن وصلوا بيت المقدس لم تسم الهمة بواحد من القواد أو الرؤساء الى النهوض لحربهم ، بل أنكى من ذلك أنهم تسارعوا يخطبون ود الأعداء ويحثون بهم ويدخلون فى طاعتهم ، وبينما كان الأهلون يقاتلون عن بلادهم ويدافعون الغزاة عن أرضهم شبرا شبرا ، كان الأمراء يقدمون الهدايا والأقوات الى الصليبيين ، بل بعثوا معهم من يدلهم على الطرق ويعرفهم بمواضع الضعف فى بلاد المسلمين .

*

وليس هذا الكتاب تاريخا للحرب الصليبية الأولى ، ولكنه دراسة فى أسباب قوة المسلمين وضعفهم وتمهيد للكلام على بطل عرف مواضع الضعف فتلافها وقضى عمره فى جمع كلمة المسلمين فلما اجتمعت الكلمة كان النصر ، ولهذا نستطرد فى تفاصيل هذه المأساة ناظرين الى مواضع العبرة منصرفين عن تفاصيل الوقائع والأحداث :

تقدم الصليبيون نحو الجنوب بعد تردد طويل ، واجتهد

أهل المدن التي مروا بها في مدافعتهم قدر طاقتهم ، واجتهد الصليبيون في خداع أولئك المدافعين واعطائهم الأمان ، حتى اذا خدع أهل بلدة واستسلموا لهم قتلوا رجالها أجمعين وباعوا نساءها بيع الرقيق ، ونكتفى من ذلك التاريخ الدموى الطويل بالاشارة الى ما وقع في معرة النعمان ، مولد فخر شعراء العربية أبي العلاء . فقد بدأ الصليبيون يحاصرونها في أواخر ذى القعدة ٤٩١ / نوفمبر ١٠٩٨ ، وصمد أهلها صمود الأبطال ، وقتلوا من المهاجمين عشرات بعد عشرات ، فبنى الصليبيون برجا خشبيا ضخما عاليا خارج السور وأخذوا يناوشون المدافعين من أعلاه ، فردهم هؤلاء بخسائر جسيمة ، ولكن العدو نقب السور تقبا واسعا فانهار جزء منه أثناء الليل ، وخاف المدافعون الواقفون على بقية السور أن يدركهم العدو اذا أصبح الصباح ، فتركوا السور ودخلوا بيوتهم وحصنوها ليدافعوا عن أنفسهم منها ، واقتحم العدو البلد وأخذ يستولى على البيوت واحدا واحدا ، فما كان يستولى على دار الا بعد هلاك رجالها ، فاذا دخل أطلق السيف في العيال والنساء حتى بلغ القتل على ما يحكى ابن الأثير مائة ألف ، وربما بدا عدد أولئك الشهداء مبالغا فيه ، ولكننا لا نستبعد أن يكون قريبا من الواقع ، إذ أن ألوف بعد ألوف

من أهل القرى والحقول التي مر بها الصليبيون كانت قد لجأت إلى البلد لتحتوى خلف أسواره ، وهناك هلكوا بسيوف العدو ، وكان بعض الناس قد استأمنوا لبوهيموند ، فلما تم الاستيلاء على البلد ذبح الرجال ذبحا وباع النساء رقيقا .

وتردد صدى هذه المذبحة الهائلة في جوانب الوطن العربى ، ولو أن رؤسائه كانوا رجالا لصمدوا للغزاة وفتكوا بهم ، إذ أن أعدادهم كانت قليلة : لم يزد فرسانهم على ألف ومشاتهم على خمسة آلاف ، وكان الجهد قد بلغ منهم مبلغه ، فما ظنك بموقف الأمراء عقب هذه المأساة ؟

لقد حسب الفاطميون أصحباب مصر أن انكسار كربوقا وجيوش المسلمين وسقوط أنطاكية ومعرة النعمان وغيرها من العواصم فرصة واتتهم لادراك ثأرهم من السلاجقة ! وكان هؤلاء قد استولوا منهم على فلسطين وتولاها قائد من قوادهم يسمى سقمان بن أرتق وأخوه ايلغازى واستقرا فى القدس ، فلما وقعت الهزائم على السلاجقة أسرع الأفضل بن بدر الجمالى (وكان يلقب بشاهنشاه ، أى ملك الملوك) وزير الخليفة الفاطمى المستعلى وبعث بجيش الى فلسطين ليستعيدها ، وحاصر الجيش مدينة القدس بآلات حصار كانت تكفى للقضاء على الصليبيين لو وجهت.

اليهم ، ولكن سوء الرأي والخيانة جعلاً هذا الوزير يوجهها «لفتح»
بلد إسلامي ، ولقد اشتدت المنجنيقات في رمى أسوار القدس
بالحجارة حتى هدمتها ، ومهدت بذلك لسقوطها في أيدي
الصلبيين . وسعد الفاطميون باستعادة القدس ، وذهبت قوات
الأرتقيين فانضمت الى قواتهم الرئيسية في ديار بكر ، وكانت
مركز امارتهم . واحتل الفاطميون فلسطين كلها وجعلوا حدهم
الأعلى شمالي بيروت بقليل ، واطمأنوا الى هذا « النصر » المعيب
حاسين أن الصليبيين يصلون الى حدودهم ثم يرتدون ..

وفرّح بنو منقذ أصحاب شيزر وبنو عمار أصحاب طرابلس
وغيرهم من الأمراء بهزيمة السلاجقة ، وأقبلوا يمدون يد المعاونة
للصلبيين . وكان بنو منقذ أسرة عربية عريقة تنتمي الى قبيلة
كلب ، وكان يتولى أمورهم في ذلك الحين ثلاثة رجال ذوو أسماء
وألقاب عربية فخمة تلقى في الروع أنهم أسود العرين وحماق
العروبة والاسلام : مجد الدين أبو سلامة مرشد ، وعز الدين
أبو العساكر سلطان ، وعز الدولة نصر أبو المرفف ! فلم تنهض
بهم الهمة الا الى الاتصال بالصلبيين وعرض المعاونة عليهم وتقديم
الأدلاء اليهم اذا هم تركوهم في سلام ، وقد اشترى الصليبيون
خياتهم واعتبروهم أتباعا لهم ، وأقاموا بعد ذلك خدما وأعوانا

للصليبيين . ومجد الدين أبو سلامة مرشد هذا هو والد الأديب المؤرخ أبي المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » ، وستلقاه كثيرا فيما يلي من هذا الكتاب . وقد لقي بنو شيزر الهوان على أيدي الصليبيين وقبلوه على ذلة ، وكان أول ما أصابهم على أيديهم نهب قطعانهم واستياعها الى معسكر الصليبيين غنيمة باردة .

وقد احتج أسامة بن منقذ في تاريخه بأن أباه انما فعل ذلك اذ لم يكن له قبل بقوات الصليبيين ، وتلك حجة لا يتحملها الا مغالط مكابر ، اذ أن بنى شيزر لو صدوا لكسروا الصليبيين ، ويكفى أن نذكر هنا ما فعله أمير صغير هو أبو محمد عبيد الله بن منصور صاحب جبالة ، فقد هاجمه الصليبيون وحاصروا بلده ، فاحتال عليهم وأشاع أن السلطان بركياروق في الطريق لا تقاذ البلد ، فخاف الصليبيون ورفعوا الحصار ، ثم عادوا يحاصرونه ، فأشاع أن الفاطميين في الطريق لعونه ، فخافوا ورفعوا الحصار مرة ثانية ، وعادوا اليه فنزلهم برجاله وقتل منهم نحو ثلاثمائة فارس وأسر أحد كبار فرسانهم ، ولم يزل يحاورهم ويقاثلهم حتى أياسهم من البلد ، ثم اتصل بطغتكين صاحب دمشق وأسلمه البلد ورحل الى بغداد .

وفعل أهل حصن الأكراد شيئاً شبيهاً بذلك : كان هذا الحصن معقلاً عظيماً يشرف على إقليم البقاع كله ، ولا زال باقياً إلى اليوم إلى جنوب بانياس يأخذ القلوب بحصاته وجلاله . وقد تغير اسمه بعد ذلك إلى الكرك ، وقد سماه الصليبيون « كرك الفرسان » ، ويعتبر من أعظم القلاع الباقية من العصور الوسطى في العالم أجمع . بدأ الصليبيون حصاره في ٥ ربيع الثاني ٤٩٢ / ٢٨ فبراير ١٠٩٩ ، فما راعهم إلا وأهله يخرجون فيشدون عليهم ويقتلون منهم عدداً كبيراً ، وملك الخوف الصليبيين وتهاربوا أمامهم حتى كاد رايموند كونت تولوز قائد الجيش أن يقع أسيراً في أيديهم ، ثم ارتدوا إلى حصنهم ، وقد كان عددهم صغيراً :

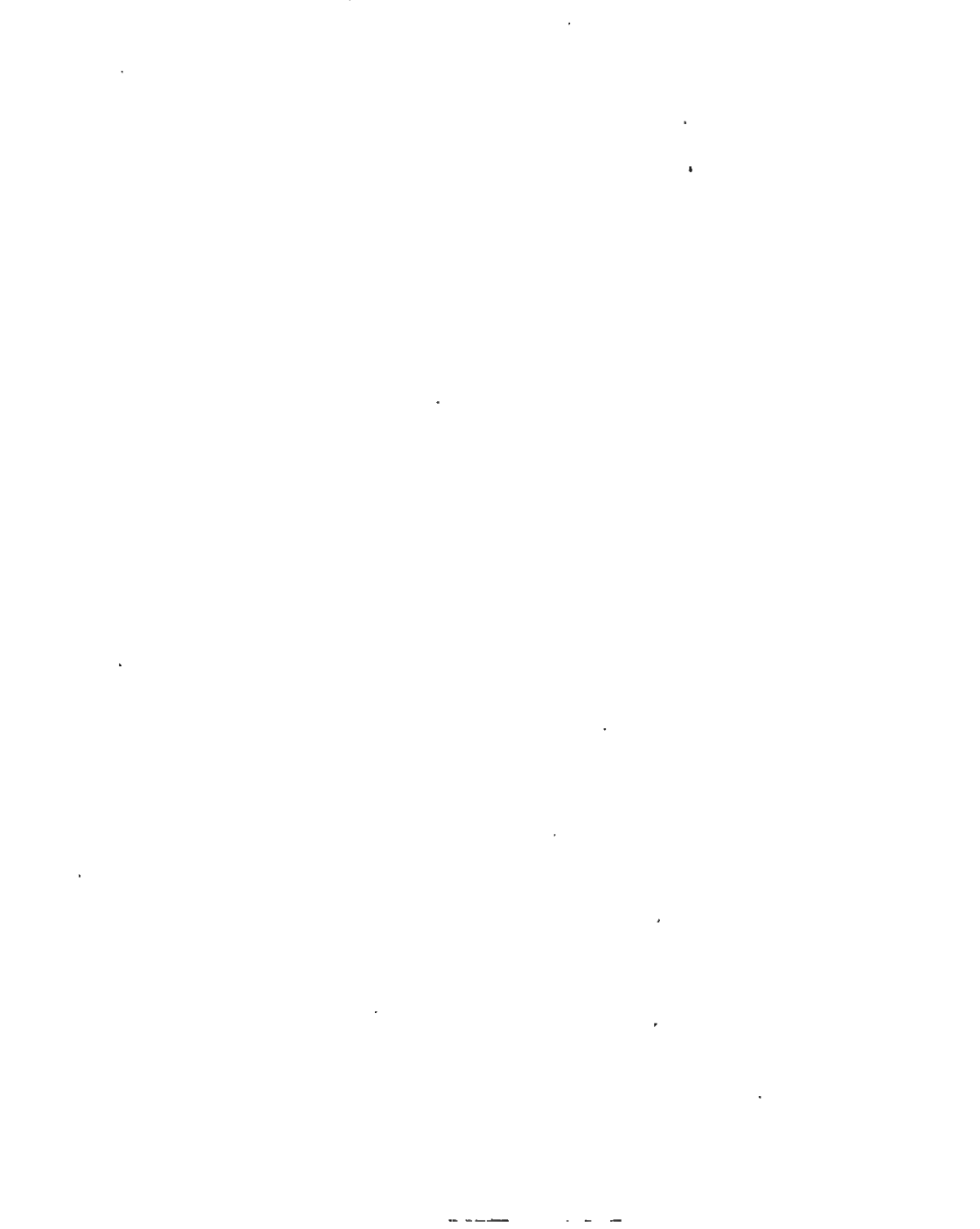
وخجل الصليبيون لما وقع لهم على أيدي هذا النفر القليل ، فجمعوا جمعهم كله ونصبوا أقوى ما لديهم من آلات الحصار ، وأخذوا يقذفون الحصن بالحجارة والنار ، ولما أيقن أهل الحصن أنهم لا يستطيعون الصمود إلى مالا نهاية ، جمعوا أهلهم وغيالهم وخرجوا من الحصن ليل ، ولم يدخله الصليبيون إلا بعد أن اطمأنوا إلى أنه لم يبق في الحصن أحد . وبينما كان الأعداء في الحصن أتنهم رسل من آل عمار أصحاب طرابلس يعرضون طاعتهم دون حصار أو قتال ، فقارن ما فعلته فئة قليلة من الشعب

العربي الكريم ، بما فعله أولئك الأمراء الكبار ..
وقد كانت نتيجة تصرف آل عمار أن وضع الصليبيون أقدامهم
في اقليم طرابلس ، وكان غاصا بالمدائن والعمار ، يمتد من حدود
امارة أنطاكية عند اللاذقية وينتهي شمالي بيروت بقليل . وقد قضى
الصلبيون على آل عمار فيما بعد وأنشأوا امارة صليبية جديدة
في طرابلس تربع عليها رايوند كونت تولوز المعروف عند العرب
بصنجيل (سان جيل) . وقد كانت نتيجة خيانة آل عمار والفاطمين
أن سقطت فيما بعد مدائن الساحل حتى عسقلان : سقطت جونية
وبيروت وصيدا وصور وعكا وقصرية ويافا وابلين . ولم يبق
في يد الفاطميين الا عسقلان ، وهي كل ما بقى لهم في فلسطين
جزاء على خيانتهم ، ومن حسن الحظ أنها بقيت ، لأنها أدت
للعروبة والاسلام أجل الخدمات طوال محنة الحرب الصليبية
الأولى .

وقد تمت المأساة بوقوع القدس في أيدي الصليبيين في الثالث
والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢ / الخامس عشر من يونيو ١٠٩٩
بعد قتال عنيف هلك فيه ألوف المسلمين ومئات الصليبيين ،
وعندما رأى افتخار الدولة قائد الجند الفاطمي أن لا أمل في
الدفاع ، حصل على أمان لنفسه وآله وبعض جنده ، وخرج سالما

معافى يحرسه الأعداء حتى وصل الى عسقلان . أما بقية أهل البلد فقد قتلت عن آخرها : مات منهم ما بين مسلمين ونصارى ويهود سبعون ألفا بسيوف أولئك الذين أتوا ليخلصوا البلد المقدس . مذبحة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب بين الشرق والغرب ، وخاض أولئك الذين بعثهم البابا باسم الدين بحار الدم الى كنيسة القيامة ، ليصلوا الله صلاة الشكر على ما أولاهم من نعمة . ولم يعيش أرباب ليسعد بالنبأ ، فقد كان مريضا أثناء حصارها ، وعاجله الموت فى التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٠٩٩ قبل أن يصل الخبر الى روما ..

ولقد رجت فاجعة القدس العالم الاسلامى رجا ، فصحا من كان وسنانا وفتح عينيه من لم يفتحهما منذ سنين ، واستيقظ شعب العروبة يقظة ما زالت تستقوى حتى صارت نهضة كبرى على أيام آل زنكى ثم صلاح الدين ، وعلى صحوة الشعب ترنحت عروش الأمراء والقواد الذين أنزلوا بالمسلمين هذه الكارثة ، فتهاوت واحدا بعد واحد ، وبقي الشعب العربى وحده فى الميدان ولم تلبث المقادير أن ساعفته بقيادة مخلصين التف حولهم ، فساروا به فى طريق الخلاص .



طلّاع الوحدة

ونادت ، فلبى الخيل من كل جانب ، ولبى عليها القسسور المترقب
خيفاً إلى الداعي ، سراعاً كأنما من الحرب داع للصلاة مثوب
مُسَيِّفين من حول اللواء كأنهم له معقل فوق المساقل أغلب
«أحمد شوقي»

ما أشبه أحوال الشرق العربى فى نهاية القرن الخامس الهجرى
(الحادى عشر الميلادى) بأحواله عند نهاية النصف الأول من
القرن العشرين ! العراق فى ناحية ، ومصر فى ناحية ، والشام موزع
مقسم وحدات سياسية يمضى كل منها فى سبيل ، وكل واحدة
منقسمة على نفسها تتصارع داخل كيائها عوامل الضعف والفتنة
والانحلال ، وفلسطين مضيعة جثم على صدرها عدو خسيس
ملك معظم أرجائها وبسط ظله على بيت المقدس ، ومد له ذراعاً
تصل إلى خليج العقبة تفصل مصر عن بقية العالم العربى ،

واستقرت شمالي العراق اماره صليبيه تهدد بقية بلاده ، تشبه سيطرة الانجليز على مصائر العراق في ذلك الحين ، وقد انتزع الأعداء من الشام قطعة في شماله الغربي وأنشأوا فيها اماره صليبيه هي أنطاكية تذكرنا بسنجق اسكندرونة السليب .. وجنوبي أنطاكية تقوم اماره صليبيه رابعة مستقلة بنفسها حيناً وخاضعة لبيت المقدس حيناً ، وفي بعض نواحيها قامت اماره عربية يحاول بعض رجالها أن يمدوا يدا الى بقية اخوانهم العرب ، فيذكرنا ذلك كله بتضارب الآراء واختلاف السياسات في لبنان في ذلك الحين .. وما أشبه قيام مملكة بيت المقدس الصليبيه اذ ذاك بقيام هذه الجماعة الصهيونية التي تحتل جزءاً من أرض فلسطين اليوم ! كلتاها هجمت على الشرق العربي في وقت أسود بلغت فيه عوامل الاختلاف والتفكك والانحلال مداها ، فمكنت لنفسها وثبتت أقدامها وجعلت من نفسها دولة يؤيدها أقوام من وراء البحر لهم في بلادنا آمال ومطامع ، وكلتاها زعمت أن دولتها تقوم على أساس روحى عاطفى قديم . فأما مملكة بيت المقدس فقد زعم الذين أقاموها أنها قامت لتستعيد بلد السيد المسيح ومشهد حياته ومزارات النصرانية ومقدساتها من المسلمين ، وأنها لهذا أجدر ما تكون بملك الأرض المقدسة لتفتح أبوابها للمهاجرين والحجاج

من يريدون الهجرة أو الحج الى أرض المقدسات والذكريات ؛ وزعمت تلك الجماعة الصهيونية التي انتزعت أرض فلسطين بالأمس أنها تستعيد من المسلمين أرض مملكة اسرائيل التي قامت في الزمن السرمدي السحيق ، وأنها لهذا أولى بها من غيرها لتفتح أبوابها للمهاجرين والمشردين من آل اسرائيل ليعود منهم من يريد العودة الى أرض الأنبياء والذكريات ..

وما أشبه موقف العالم الغربي من مملكة بيت المقدس اذ ذاك بموقفه من احتلال فلسطين في أيامنا هذه ، فقد كان الغرب الأوروبي ينظر الى مملكة بيت المقدس على أنها ذراعها التي مدها في بلاد الشرق وحصنه الذي ابتناه في قلب بلاد العروبة ، وحرص على أن يرعى ذلك الحصن ويصونه ، لأنه رمز سيادته وسلطانه ، ورأس القنطرة التي يعبر عليها كلما أراد أن ينزل بعالم العرب ضررا . وكلما ضعفت مملكة بيت المقدس نهض الدعاة والمتعصبون والهاقدون على العرب والاسلام يستصرخون الناس ويدعون الى حملة صليبية جديدة ، فتتحرك الجيوش الى الشام لترزأ أهلها وتنزل بها البلاء ، وعندما نهضت مصر على يد الناصر صلاح الدين اتجه الغضب كله نحو مصر وحولوا نحوها الحملات الصليبية ، فلا تكاد تصل الى مصر حتى تصاب بالفشل الذريع .

بالضبط كما يفعل الغرب اليوم مع جماعة الصهيونيين في فلسطين ، فكلما ضعف أمرها وأفلست ميزانيتها قام دعاؤها في ذلك الغرب الأوروبي (الذي امتد حتى شمل ضفتي المحيط الأطلسي) فدعوا لمزيد المعونة لها لانتقاذها من السقوط ، فأرسل أهله الأسلحة والأموال اليها لتقوم على قدميها ، فلما نهضت مصر في ظل الناصر جمال الدين اتجه الحقد الغربي نحو مصر ، فأخذ يكيدها ويوجه ضربات اليها ، آخرها الحملة المشؤومة على مصر سنة ١٩٥٦ ، وهي حملة تعود بنا الى ذكريات الحملتين الصليبيتين على مصر : الخامسة التي قادها جان دي بريين ملك عكا (فرنسي الأصل) والسابعة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا ، وكلتاهما نزلت بدمياط وخربتها وأصابتها بكل شر . ودمياط بالأمس هي بور سعيد اليوم ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

ولم تكن هناك اذ ذاك قناة السويس أو مواصلات بين شرق وغرب ، ولكن لأحداث التاريخ منطقاً يتجلى اذا تأمل الانسان الأحداث وقارن بعضها ببعض وربط المقدمات بالنتائج ، وكما انتصرت دمياط بالأمس فقد انتصرت اليوم بور سعيد جارتها ووريثتها في مكانها من البحرية العالمية ، وكان نصر دمياط عزاء لعرب الأمس وذلاً للغرب الذي أراد بها الشر ، فأسر لويس التاسع

وأبيد فرسانه ولم يعد الغرب يجرؤ بعد ذلك على أذى مصر ، وكان نصر بور سعيد عزا لعرب اليوم وذلا للغرب الذي أراد بها الشر ، فاندحر أنطوني ايدن وتلاشى جى موليه وطرده كريستيان بينو من ميدان السياسة الفرنسية ، وأصبح الغرب يهاب مصر والعرب ويحسب لهم ألف حساب .

وكما ارتبط نصر عرب أمس بظهور نور الدين محمود وسعيه لتوحيد المسلمين وجمع صفوفهم ، فلما وحد الموصل والجزيرة الفراتية والشام بدت طلائع النصر وبدا أن مصير امارات الصليبيين في الشام الى زوال ، فكذلك ارتبط نصر عرب اليوم بظهور جمال عبد الناصر ورجاله المؤمنين بالعروبة ووحدتها وسعيهم الى توحيد العرب وجمع صفوفهم ، فلما اتحدت مصر وسوريا بدت طلائع النصر وبدا أن مصير جماعة الصهيونية والاستعمار الذي يؤيدها الى زوال .

وكما كان لدعوة الوحدة أيام الحروب الصليبية صدى بعيد تردد في نواحي بلاد الاسلام والعروبة ، فاستيقظت الشعوب واستعادت ثقتها بنفسها ومضت تنضم لصفوف الوحدة جماعة بعد جماعة ، فكذلك الحال اليوم : ما كادت دعوة الوحدة العربية تردد وتكسب أول انتصاراتها حتى أفاقَت الشعوب العربية

المعاصرة واستعادت ثقتها بنفسها ومضت تنضم الى قافلة الغزوة السائرة الى الأمام ، وأخذت حصون الاستعمار تتهاوى ، وتلاشى أعوانه — بالضبط كما اجتهد عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ثم صلاح الدين فى القضاء على تلك الامارات الصغيرة التى كانت تقوم اذ ذاك فى الشام وشمال العراق متعاونة مع الصليبيين . أو البيزنطيين .

*

ولدت مملكة بيت المقدس غداة استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وانشائهم امارتها وتوليتهم جودفروا دى بنوكتون أميراً عليها فى شعبان ٤٩٢/ يوليو ١٠٩٩ بعد خلافات ومناورات ، وأقام الصليبيون فى القدس بطريركية كاثوليكية تولاها ديكامبير (أو داجوير) وكان قبل ذلك أسقفا لمدينة بيزا بايطاليا ، ولم ينعم جودفروا بالعرش الا سنتين فقد توفى فى رمضان ٤٩٤/ يوليو ١١٠١ ، وخلفه أخوه بلدوين (أو بودوان) الذى كان قد أنشأ اماره الرها وتربع على عرشها ، وقد توج ملكا على بيت المقدس فى ١٧ صفر سنة ٤٩٥/ ١١ نوفمبر سنة ١١٠١ باسم بولدوين الأول وهو المؤسس الحقيقى للمملكة ، اذ كان رجلا نشيطا ومغامرا لا يكف عن الغزو والسلب والنهب ، وقد أشرنا الى

شيء من خصاله فيما سبق ، ونضيف الآن أن ولعه بالسلطان المطلق حفزه الى عزل ديامير عن بطريركية القدس ، واختار مكانه أسقفًا مسنًا ضعيفًا هو افريمار ، وقد سخط ديامير على عزله وذهب الى أوروبا وشكا أمره للبابا يسكال ، الذى خلف أربان الثانى فأيده فى دعواه ، وارتد ديامير عائدا الى فلسطين ليخاصم بلدوين ، ولكن المنية عاجلته فى مسينا فى يونيو ١١٠٧ وأراحه الله من الجشع والطمع والمتاعب .

ثم مات افريمار وأقيم مقامه جييلين أسقف آرل ، ولم يطل به العمر ، وحل محله بطريق خبيث طال به العمر فى أذى القدس وأهلها وهو آرنولف أسقف روه ، وكان رجلا فاسد الخلق لم يأنف عن مد يده الى أموال الكنيسة حتى أصبح من الأثرياء ، وعندما تزوجت ابنة أخيه « امّا » من أمير غنى هو يوستاش جارنييه أهداها ضيعة واسعة فى زمام أريحا من أرض موقوفة على قبر السيد المسيح منذ الزمن القديم ، ولقد حافظ ولاية المسلمين على أوقاف القبر المقدس قرنا بعد قرن ، حتى جاء هذا القس المفسد فتملك بعضها وأهدى بعضها الآخر لذوى قرياه . وقد آذى هذا الرجل مسيحيي القدس الأصلاء وأهان بطارقتهم وقساوستهم واعتدى على أموال كنائسهم ، ولكنه كان مخلصا للملك بولدوين

يؤيده في مطامعه كلها ، حتى غضب عليه البابا پسكال وأوصى رجال الحملة الصليبية بعزله ، فلما وصلت الى الشام لم يزل يسعى حتى انتهى أمرها الى الفشل ، ولذلك حمل عليه وليام الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس ، ورماه بكل شر وقيصة .

ولم يكن لبلدوين الأول هذا من هم الا مغازاة المسلمين ، مستفيدا من ضعفهم وتفككهم ، وكان اذا استولى على بلد من بلادهم قتل الرجال أجمعين وسبي النساء والولدان وباعهم في سوق الرقيق : فعل هذا عندما استولى من أيدي الفاطميين على أرسوف والرملة في صيف ٤٩٦/١١٠٣ ، وعكا في صيف العام التالي . وأصبحت عسقلان آخر حصون الفاطميين في فلسطين ، وقد ظلت حصنا اسلاميا وشوكة في جنب مملكة بيت المقدس حتى سقطت في ٥٤٨/١١٥٣ .

وقد طالت أيام بولدوين هذا واشتد أذاه حتى انتزع يافا وبيروت وكثيرا من موانئ الساحل الشامى ، ولكنه عجز أمام صور وارتد عنها بهزيمة فادحة في سنة ٥٠٥/١١١٢ ، وكانت هذه الهزيمة هى نهاية توسعه وأذاه . وتلك السنة تعين أوج اتساع مملكة بيت المقدس ، فقد أصبحت بذلك تمتد من جليل شمالى بيروت الى يافا على ساحل البحر ، ثم تمتد على هيئة وتد يبدأ من

بحيرة طبرية ويشمل نهر الأردن بصفتيه حتى العقبة على خليج العقبة . ومن عجائب اتفاقات التاريخ أن خريطتها تشبه في الهيئة خريطة الجزء الذي يحتله الصهيونيون اليوم من أرض فلسطين ، وهو توافق يبدو وكأنه مصادفة ، وهو أبعد ما يكون عن المصادفات بل هو النتيجة الطبيعية لتفكك العرب في الحالين ، وعلل الأمم كعلل الأفراد ، تؤدي في الغالب الى نتيجة واحدة وتأخذ مظهرها واحدا .

أما سقوط صور بعد ذلك في سنة ١١٢٤/٥١٨ ، وعسقلان في ١١٥٣/٥٤٨ ، فلم يكن في الواقع زيادة في مساحة مملكة بيت المقدس ، بل كان نتيجة حركة دفع اليها الخوف من نور الدين ، وقد مهد الطريق لتوحيد مصر والشام .

ولم يستطع بولدوين أن يوسع أملاكه الى هذا الحد الا بسبب قساد قلوب أمراء المسلمين وخاصة أصحاب دمشق اذ ذاك ، فقد عارضوا الوحدة الاسلامية وحالفوا الصليبيين على اخوانهم وضيعوا الكثير من جهود نور الدين ومن سبقوه . ولو أن امارة دمشق كانت الى جانب القوة العاملة على الوحدة من أول الأمر لضاع أمر مملكة بيت المقدس كما نقول نحن اليوم : لو أن أصحاب الأردن كانوا دائما مع العاملين على الوحدة

العربية اليوم لكان هذا هو النذير المؤذن بالنهاية العاجلة لجماعة
الصهيونيين .

وفى ذلك العصر المضطرب الذى تحدث عنه ، كان يكفى أن
يمد أمير صغير كصاحب طرابلس يده للعاملين على الوحدة حتى
يطول عمر امارته وتثبت أمام الأعداء الذين يحاصرونها من كل
جهة . فقد كانت طرابلس اذ ذاك حصنا شامخا على شاطئ البحر
يمتد سلطان أصحابه على مساحة واسعة حولها ، وكان يحكمها
بيت عربى هو بيت بنى عمار . وقد تمكن أصحاب بيت المقدس
وأنطاكية الصليبيون من غزو ما قرب منها من البلاد والحصون ،
ولكنهم عجزوا عنها ، لأن أصحابها كانوا يستعينون بدمشق حينما
وحلب حينما ، وربما التمسوا العون من خلافة بغداد . وعندما يئس
الصليبيون من الاستيلاء عليها ، بعد الهجوم المتوالى سبع سنوات ،
اضطروا الى بناء بلد جديد مقابلها ليكون عاصمة لامارة تسمى
امارة طرابلس يتربع عليها رايموند كونت تولوز .

ثم انقطع عن بنى عمار أصحاب طرابلس المدد الذى كان يصلها
من دمشق وحمص ، فلم تلبث أن سقطت فى سنة ١١٠٩/٥٠٢ فى
يد جيثوم چوردان الذى تولى أمر طرابلس بعد وفاة رايموند
صاحب تولوز . وقد قتل جيوم بعد استيلائه على طرابلس بقليل ،

وصارت الامارة لابن غير شرعى لرايموند صاحب تولوز هو
يرتترام وكان محاربا واسع المطامع ، فاستولى على حصن أرتاح
من أيدي أصحاب حلب . وكان من الممكن أن يستمر في توسعه ،
فتنمو اماره طرابلس وتتسع كما نمت اماره الرها من قبل ، ولكن
الظروف في العالم الاسلامى كانت قد تغيرت ، وأخذ دعاة الوحدة
يشقون طريقهم قدما ، وكان سقوط طرابلس نذيرا روع المتخاذلين
وشد أزر المجاهدين ، اذ تردد صدهاء في جوانب العالم العربى
كله من بغداد الى القاهرة ، ونهض الشيوخ وعامة الناس في بغداد
يطالبون الخليفة ومن حوله بضرورة النهوض لاستنقاذ البلاد من
أيدي الغاصبين ، واستقوى بهذه الدعوة أمراء الموصل فضاعفوا
جهودهم في سبيل التوحيد .



كانت الموصل ولاية اسلامية مهددة بالخطر الصليبي ، شأنها
شأن غيرها من بلاد الشرق العربى في ذلك الحين ، وكانت تجاور
امارة الرها الصليبية التى أنشأها النورمانيان بولدوين وأخوه
تافكرد أثناء الحملة الصليبية الأولى ، وقبل سقوط بيت المقدس ،
في غفلة من الصليبيين والمسلمين على السواء . فبعد أن احتل
الصليبيون نيقية وأخذوا طريقهم نحو أنطاكية ، اتجه هذان

الأخوان النورمانيان الطامعان نحو قليقية وأوغلا فيها منفردين بقراتهما ، وكل منهما يبحث عن أرض يغنمها ويقيم نفسه أميراً عليها . وكانت قليقية وما يليها الى الجنوب من بلاد الموصل منطقة جبلية وعرة أهملها المسلمون بعد أيام المعتصم العباسي . فقد كانت منطقة حدود بينهم وبين الامبراطورية البيزنطية يرصدون فيها الجند على ممرات الجبال ، وكانوا يسمونها بالشغور الجزرية ، وهي امتداد للشغور الشامية ، وقد قلت العناية بهذه الشغور جميعا عندما ضعف أمر الدولة العباسية . وكانت تسكن المنطقة جماعات من الأرمن والسريان والأكراد والعرب . وكان الأرمن والسريان نصارى داخلين في طاعة دولة الاسلام . وقد أقام السلاجقة الكبار في هذه النواحي حصونا ومعقل شكوها بالمقاتلة ، وجعلوها الحد بينهم وبين دولة سلاجقة آسية الصغرى ، فلما ضعف السلاجقة الكبار وضع سلاجقة آسية الصغرى أيديهم على بعض حصونها وظلت البقية شبه مهمله .

فلما انتصر الصليبيون على هؤلاء السلاجقة انفتحت أمامهم أبواب هذه النواحي ، وحسب من فيها من الأرمن والسريان أن الصليبيين سيحسنون اليهم ، لأنهم اخوانهم في الدين ، فحالفوهم ويسروا لهم الأمر وأعانوهم على انشاء امارة الرها ، وقد خاب

ظنهم بعد ذلك ، لأن الصليبيين لم يلبثوا أن أساءوا اليهم واضطهدوا عقيدتهم ، اذ أنها أرثوذكسية شرقية ، في حين كانوا هم كاثوليكاً غربيين ، وصار الأرمن والسريان بعد ذلك يستغيثون بالمسلمين عليهم ، وعلموا بعد فوات الوقت أن اخوتهم في الوطن هم اخوتهم حقاً ، وأن عدو وطنهم عدو لهم مهما كان ، وقد أكرمهم الله عندما استعاد عماد الدين زنكى بلادهم فأمنهم وأعاد اليهم حقوقهم ، فعمروا كنائسهم وعادوا الى طقوسهم ، وحمدوا الله على نعمة المواطنة التي هي أساس الأخوة وقاعدة الأمان .

قول ان تانكرد النورمانى ترك معسكر اخوانه الصليبيين بعد دخولهم نيقية ومضى فى شوال سنة ٤٩١ / سبتمبر ١٠٩٨ يوغل فى قليقية ، وخاف بولدوين ^{خطأ} النورمانى أن ينفرد ابن أخيه بالناحية وحده فسار خلفه فى قوة أخرى ، ثم لم تلبث أن لحقت بهما جماعة من قراصنة الدانين والفريزيين والفلمنكيين يقودهم مغامر يسمى جونيور البولونى ، فمضت هى الأخرى تبحث عن فريسة تحط عليها ، وما زالت هذه الجماعات تضرب فى نواحي قليقية حتى احتلت أطنة ومرعش وطرشوس وعبرت الفرات من أعاليه ، وانحدرت شمالى الجزيرة واستولت على بهسنا وسمينساط وورعبان وتل باشر ثم وصلت الى الرها ، كبرى مدائن الناحية ،

فسلمها اليهم ثوروس الأرمني صاحبها . وذهبت به الغفلة الى أن تصور أن بولدوين النورمانى يخلص له فاتخذة ولدا — ولم يكن له ولد — ليملكه من بعده ، فلم يكد النورمانى يستقر فى البلد حتى سطا على زوج ثوروس الشابة وغصبه اياها ، ثم دير عليه مؤامرة وجبسه ، وحرص عليه الناس فثاروا عليه ومزقوه اربا ، وهكذا لقى هذا الخائن جزاءه على يد من خان بلاده لصالحه . وقد كان تصرف ثوروس وأمثاله من الأرمن الذين أعانوا أولئك النورمان على بلادهم قاضيا على دولة الأرمن الى الأبد ، فضاع استقلالهم الذى حافظ المسلمون لهم عليه ، وأصبحوا من ذلك الحين شعبا مشردا يعيش معظم أفرادهم مهاجرين فى نواحي الشرق الأوسط ، وربما هاجرت جماعات منهم الى بلاد أخرى بعد ذلك ، ولم يعد للبقية الباقية منهم فى بلادهم من سبيل للحياة الا الاعتصام بالجبال ، كأنهم قطاع طريق .

والمهم لدينا أنه تكونت نتيجة ذلك امارة صليبية فى حوض انقراة الأعلى تمتد من مرعش فى الشمال الى منبج فى الجنوب غربى الفرات ، وتمتد شرقه فتشمل بهسنا والرها وسروج ، وتجاور امارة الموصل وتهدد بلادها مثل نصيبين وماردين وحران ، وامارة ديار بكر على نهر دجلة الأعلى وتهدد شمالى العراق كله ..

وكانت إمارة الموصل التي تجاور الرها من الشرق والجنوب
إمارة واسعة غنية تصل حدودها إلى شمالي بغداد بقليل ، وكان
عاملها يختار عادة من بين كبار رجال الحرب ، لأنها تواجه
البيزنطيين من الشمال وإمارة ديار بكر وبلاد نيسابور وآذربيجان
وهذان وما يليها شرقا ، وكانت هذه النواحي في تلك العصور
قلقة غير مستقرة تسودها الحروب والمنازعات ، وكان واليها يعتبر
من أكبر ولاية الدولة السلجوقية وأهمهم ، ولهذا نجد على رأسها
في الغالب رجالا ذوي همة ونشاط ، ولكن أحدهم لم يكن ليبدأ
العمل حتى تثور المنافسة بينه وبين أصحاب الأمر في بغداد ، وربما
وقعت الحرب بين الجانبين ، مما أضعف هذه الولاية الثغرية ،
وجعلها عاجزة في كثير من الأحيان عن موازنة الحرب مع البيزنطيين
أو إقرار الأمن في ربوعها ، إذ كان سكانها خليطا من الترك والأكراد
والتركماني والأرمن والعرب ، وكانت تتاخم إمارة حلب .

وقد تطلب الأمر بعد استقرار الصليبيين في إمارة الرها أن
يكون على رأس ولاية الموصل رجل قادر يستطيع أن يوقف
تقدمهم ويحمي الجزيرة الفراتية من أذاهم ، وكان ينبغي أن يقدر
أصحاب الأمر في بغداد أنهم ينبغي أن يقفوا وراء واليها ويشدوا
ظهره ، ولكنهم كانوا في ذلك الحين أبعد ما يكونون عن ذلك

التفكير ، فكانوا يخذلون والى الموصل ويدبرون عليه وربما حاربوه وأعانوا أعداءه عليه كما حدث حوالى سنة ٤٩٩/١١٠٦ ، فقد كان واليها قائدا تركيا قادرا هو جكرميش (تولاها بعد موسى التركمانى الذى خلف قوام الدولة كربوقا) انتصب لحرب بولدوين النورمانى وذراعه الأيمن الفارس جوسلين وأسرها ، فتولى أمر امارة الرها الصليبية أخوه تانكرد ، وبينما جكرميش فى جهاده اذ هاجمه السلطان محمد السليجوقى بجيوشه ليؤدبه على أمر بمر منه فى شأنه ، وانتهاز الفرصة قلع أرسلان سلطان سلاجقة آسية الصغرى فهاجم حران ، وفى هذه الأثناء قتل جكرميش وخلفه قائد يسمى جاولى سقاوه واصل الحرب وانتصر على قلع واضطره الى الفرار فتردى فى خندق وغرق على ما روينا .

وكانت امارة الرها من أوسع الامارات الصليبية وأشدها أذى للمسلمين ، بسبب طمع أصحابها النورمانين واجتهادهم فى الحروب والغارات ، ولكنها كانت مع ذلك من أضعف الامارات الصليبية مركزا بسبب توسعها بلاد المسلمين ورعونة أصحابها التى جعلتهم يتابعون الغزو والحملات يوما بعد يوم ، مما أدى الى وقوع أميرها ونقر من كبار رجاله فى أسر المسلمين . ثم ان الأمر من تبينوا سوء رأيهم عندما يسروا للنورمان مثلك هذه الناحية ، فقد أساءوا

اليهم وعسفوهم وأهانوا رجال دينهم وعاملوهم كأنهم ملاحدة أو شعب قليل القيمة لا يستحق رعاية ، فكانت النتيجة أن تناقص السكان وتخربت الكنائس وعمدت الأرض من يزرعها ، لأن زارعها لم يكن يأمن على محصوله ، فأخذ الأرمن يتصلون بالمسلمين ويسألونهم العودة الى بلادهم ، ولولا أن المسلمين كانوا اذ ذاك متتاذين متدابرين ، لسقطت هذه الامارة في أيديهم بعد انشائها بقليل . بل بلغ من فساد القلوب أن السلطان السلجوقى محمدا غضب على جاولى وسار لحربه ، فلم يكن من هذا الا أن أطلق سراح بولدوين وجوسلين النورمانيين وكانا أسيرين عنده . ومن عجيب ما حدث أن جوسلين عندما أطلق من أسره سار مع جماعة من فرسانه عائدا الى بلده ، فلما مر بمنبج — وكانت من بلاد جاولى — نهبا ، فأرسل هذا يعاتبه ، فرد عليه بقوله : ان هذه المدينة ليست لكم !

وفى سنة ١١١٠/٥٠٣ صارت امارة الموصل لأمير شهم هو شرف الدولة مودود ، وكان أخا للسلطان محمد السلجوقى ، وكان واسع الذهن بعيد النظر ، وهو أول من أدرك ضعف امارة الرها وتنبه الى أن القضاء عليها لا يتم الا اذا تحالف أهل الشام وأهل العراق وأصبحوا يدا واحدة . وكان مودود قبل مجيئه الى الموصل

مقيما في بغداد ، وشهد مجيء ابن عمار صاحب طرابلس مستغيثا بخليفة المسلمين لاتخاذ بلاده ، ورأى جماعات المصلين في بغداد يضحجون أثناء الجمعات مطالبين الخليفة ورجاله باعلان الجهاد والخروج لنصرة الاسلام .

وكانت الأمة العربية بعد سقوط طرابلس ساخطة على حكامها لا تفتأ تطالبهم بالنهوض من هذه الكبوة التى تردوا فيها ، ولكن خلفاء بنى العباس فى ذلك العصر كانوا أبعد عن فكرة الجهاد من خلفاء الفاطميين ، فأما هؤلاء الأخيرون فقد رأيت طرفا من أفعالهم وأما خلفاء بغداد فكان قصارى همهم أن يكتبوا خطابا الى هذا أو ذاك من الأمراء يدعونه للنهوض لجهاد الأعداء ، بينما هم أنفسهم قاعدون فى عقر دارهم يستمتعون بأطياب الحياة .. فقارن هذا بما فعله البابا أربان الثانى عندما خرج يجوب البلاد مئات الأميال داعيا لحرب المسلمين .. ولو نهض الخليفة العباسى اذ ذاك داعيا للجهاد ، وترك عاصمته ومضى يبشر ويجمع ويحشد ، لخف لدعوته الألوف وارتفعت راية الجهاد ، ولاستعادت خلافة بغداد رونقها وقوتها . ولكن هكذا كان حالهم من التخاذل وقلة الهمة ، وهذا أبلغ دليل على أن الظروف لا تخلق الرجال ، بل الرجال هم الذين يخلقون الظروف ، وسنرى ذلك بأوضح صورة فى سيرة عماد الدين زنكى ونور الدين .

استقر شرف الدولة مودود في الموصل وقد ملأت نفسه فكرة
 الجهاد ، فطلب الى أخيه السلطان أن يأمر الأمراء بالخروج معه ،
 فاجتمع اليه سقمان الأرمني صاحب تبريز وبعض ديار بكر وإينليك
 وعماد الدين زنكي ابنا آق سنقر البرسقي أميرا همدان وما جاورها
 وأرسل ايلغازي صاحب ماردين ابنه وخرج معهم مسعود ابن
 السلطان محمد ووريثه في السلطنة وغيرهم ، وكانت هذه أول مرة
 يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء لقتال الصليبيين ، ولهذا تعتبر
 هذه الحملة فاتحة عهد جديد في تاريخ الشرق الاسلامي في ذلك
 العصر ، ونقطة التحول من التفرق والتخاذل الى التجمع والهجوم ،
 وكان ذلك عام ١١١٠/٥٠٤ - ١١١١ .



وقد أدرك بلدوين النورماني صاحب الرها مغزى ذلك التجمع
 وخطره ، وأدرك أنه اذا لم يجمع للأمر عدته ضاعت امارته ،
 فحشد كل من استطاع حشده من جنده ، واستغاث بمملكة بيت
 المقدس فخرج لعونه بلدوين الأول بنفسه ومعه ٧٠٠ فارس وعدد
 من المشاة . وكان المسلمون قد حاصروا الرها ، فلما وجدوا
 الصليبيين يسيرون نحوهم في جمع عظيم رفعوا الحصار ، واتجهوا
 نحو حران حيث التقوا بقوات جديدة أرسلها أتابك دمشق ظهير

الدين طعنتين ، وهنا تحرك تانكرد أمير أنطاكية لينضم الى جيش الصليبيين خوفا من أن يتجه صاحب دمشق الى مهاجمة امارته اذا انتصر المسلمون ، ولكنه لم يكد يسير مع أصحابه قليلا حتى اختلف معهم وانحرف بمن معه الى سميساط .

ووجد بلدوين أن بلده غاص باللاجئين والهاربين أمام المسلمين ، فعرض عليهم أن يوصلهم الى بلادهم ، فخرجت ألوف وسارت تحت حراسته ، فلما أدرك الركب الفرات لم يجد ما يكفيه من القوارب للعبور ، فاذا هم يعبرون طائفة بعد طائفة اذ انقض عليهم فريق من المسلمين فأبادوا منهم بضع مئات . وتخرج مركز بلدوين النورمانى وكاد يقع فى الأسر ويعود الى سجنه الذى قضى فيه سنوات ، فمضى هاربا الى الرها ، ولم يفته أن يغير على بعض نواحي « البقاع » فى طريقه . وأما تانكرد وبلدوين صاحب بيت المقدس فقد آثرا السلامة ، وعاد كل منهما الى امارته .

وكان رضوان صاحب حلب قد تقاعس عن نصره اخوانه أنانية منه وحسبانا أن المسلمين اذا انتصروا خلا له الجو ليهاجم أنطاكية ليصيب منها ، فخرج يعيث فى نواحيها وقتل وأسر من أهل نواحيها عددا عظيما ، فاذا هو مسترسل فى أعماله اذا به يفاجأ بعودة تانكرد ، فعاد بجيشه مسرعا الى حلب وتحصن فيها ، وصب تانكرد

غضبه على ما وصلت اليه يده من حصونها ، فبدأ بالهجوم على حصن الناقرة واستولى عليه ، ثم وقعت في يده ثلاث مدن من أكبر مدائن اماره حلب وهى أرتاح والأثارب وزارندة ، وكانت درعا تبقى حلب من ناحية أنطاكية .

وانتشر الهلع فى الولاية كلها ، فتهارب الناس وخت بعض البلاد من سكانها مثل منبج وبالس ، وتخرج مركز حلب كلها وأحاط بها الخطر ، وأسرع هذا الخسيس رضوان يعرض الصلح على تانكرد ويقدم اليه الأموال على غير جدوى ، وتعرضت امارته للضياع لولا أن أتاه الفرج من حيث لا يحتسب ، اذ أن شرف الدولة مودود قرر أن يخرج لقتال الصليبيين مرة أخرى . وهكذالقى هذا الرجل رضوان جزاءه على ما تخلى عن المسلمين ، ومن أسف أن معظم البلية حاقت برعاياه ، أما هو فظل مقبلا آمنا فى حلب دون أن يستشعر خجلا أو عارا .

وكان نفر من أهل حلب قد أدركه اليأس من ذلك الأمير ، ورأوا أن الأمر اذا استمر على هذه الحال فمصير بلادهم الى السقوط ، فخرج نفر من أهل البلد وشيوخه الى بغداد ، وهناك خطبوا فى المساجد داعين للجهاد ، ثم تعرضوا للخليفة نفسه وقاموا بمظاهرة فى مسجده ، فلم يجد بدا من الاستجابة الى

مطلبهم ، فطلب الى مودود أن يخرج لاغائة حلب .
خرج مودود فى جمع عظيم انضم اليه نفر من جند السلطان
محمد يقودهم ابنه مسعود ، واجتمع الرأى على مهاجمة تل باشر
أكبر معاقل امارة الرها بعد العاصمة نفسها ، وهاجم الجيش الرها
فى طريقه واستولى على حصن من حصونها هو تل قراد ، ثم حاصر
الجيش تل باشر وأنزل بها ضررا جسيما ، ولكن مودود وجد أن
جنده غير منسجم وأن أفرادهم لا يؤلف بينهم روح واحد يضمن له
الاستيلاء على معقل كبير كهذا ، فرفع الحصار بعد خمسة وأربعين
يوما وقرر المسير الى حلب ليستعين بجنده ويواقع الصليبيين فى
الشام ، وكان اتجاه مودود الى الشام حدثا جديدا فى ذاته ، فتلک
أول مرة يفكر فيها أمراء الموصل وشمال الجزيرة فى دخول الشام
ومناجزة الصليبيين فيه .

وصل مودود ومن معه الى ظواهر حلب ، فلما رأى رضوان
كثرة عددهم خافهم على نفسه ورفض أن يفتح لهم أبواب المدينة ،
وكان قد عقد عقدا مع تانكرد تعهد له فيه بدفع جزية سنوية
ثقيلة ، ففضل المقام على هوان الجزية على التعاون مع اخوانه
المسلمين ، فتركهم خارج الأسوار سبعة عشر يوما حتى ضج
جندهم ونقلت أقواتهم فمضوا يغيرون على المزارع طلبا للقوت ،

ثم انصرفوا عن حلب الى معرة النعمان يطلبون حصارها ، فاذا هم في ذلك اذا طغتكين صاحب دمشق يقبل في جمع كبير ويطلب اليهم السير معه لمهاجمة طرابلس ، فثارت ثائرة القواد ، وعجبوا من أمر طغتكين أكثر مما عجبوا من أمر رضوان : فهذا يأبى أن يتعاون معهم — ولنجدته أقبلوا — وذاك يريد أن يستخدمهم لصالحه ، وأخذ القادة ينصرفون ، فلم يبق منهم الا مودود وطغتكين .

فأما مودود فقد عول على الاستمرار في الجهاد ، وما دام في قتال مع الصليبيين فهو حسبه ، وأما طغتكين فكان معتزاً بهذا العسكر الاسلامي الى جوار بلاده ، واستقر رأى الرجلين على السير لنجدة صاحب شيزر أبني العساكر بن منقذ ، واتخذ العسكر المتحد شيزر قاعدة لأعماله . وكان تانكرد يرقبهم في خوف وقد عسكر عند الرّج ، وهناك آتته فجدات يقودها بلدوين الأول صاحب بيت المقدس وبرترام صاحب طرابلس واجتمع جمعهم عند أقمّامية ، وتقدم المسلمون على خيولهم السريعة فأحاطوا بعسكر الصليبيين وأخذوا يتخطفونهم ويفسدون الزروع حولهم ، فأخذت أقواتهم تقل وعدموا علف الخيل ، ثم التحموا معهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فلم يصبر الصليبيون وأسرعوا الى بلادهم بعد ستة عشر يوماً من القتال ، وعاد المسلمون الى بلادهم غانمين (المحرم ٥٠٤ / سبتمبر ١١١١) .

وقد ندم رضوان صاحب حلب بعد قليل على سوء نيته ، فان جند المسلمين لم يكده ينصرف حتى عجل تانكرد الى حلب بقواته ، وبدأ يحاصر حصنا من أكبر حصونها هو عزاز ، فأسرع رضوان يستنجد ولا مغيث ، ثم عرض على تانكرد أن يدفع له عشرين ألف دينار من الذهب لينصرف عنه ، ولكن تانكرد ، وقد اطمأن الى أن المسلمين لن يعيشوه ، رفض وأصر على الحصار . وكان طغتكين قد أراح بحماه وهو في طريقه الى دمشق ، فأتاه صريخ رضوان وأهل عزاز ، وكان يخشى اذا انتصر تانكرد على حلب أن يعود الى دمشق فيذيقها نفس الكأس ، فقرر طغتكين لهذا التعاون مع رضوان . واجتمع الأميران في حماه واتفقا على العمل معا ، ولكن طغتكين لم يستطع شيئا ، فما هو الا أن تم اتفاقية مع رضوان حتى ترمى الى سمعه أن بلدوين صاحب بيت المقدس قد شرع يحاصر صور (ابتداء من ربيع الثانى سنة ٥٠٤ / نوفمبر ١١١١) فروعاه الأمر لأن صور كانت من أكبر ثغور المسلمين الباقية في فلسطين ، وكانت بعض المعاونات الفاطمية تصل الى دمشق عن طريقها ، فاذا سقطت كان ذلك ايذانا بشر كبير يصيبه ، فترك حليفه ومضى مغذا السير نحو الجنوب ، وسقط في يد رضوان فترك عزاز لمصيرها ، وظل أهل البلد يدافعون عن بلدهم حتى تثلم سورها ، ومع ذلك فقد

وقف المجاهدون يقاتلون المهاجمين على أبواب الثغرات ، فلما وهنت قواهم وأتى القتل على أجنادهم طلب من بقى منهم الأمان وخرجوا بجلودهم ، وهكذا استولى تانكرد على ذلك الحصن الكبير نتيجة لخيانة أمير حلب من ناحية وخبث صاحب دمشق من ناحية أخرى .

وفي رجب / ديسمبر من العام التالي ، أى سنة ١١١٢/٥٠٥ ، توفي تانكرد فاخفت شخصية من أجرأ شخصيات الجيل الأول من الصليبيين وأشدّها خطرا على المسلمين ونكاية فيهم . فقد عاون أخاه بوهيموند فى انشاء امارة أنطاكية ، ثم انفرّد بها من بعده (سنة ١١٠١/٤٩٤) وظل يحكمها احدى عشرة سنة مد خلالها حدودها فى كل ناحية ، وأرهب حلب حتى صارت تدفع له الجزية كأنها تابعة من توابعه . وما كان هذا الرجل ليستطيع شيئا من ذلك لولا تخاذل رؤساء المسلمين من حوله وقصر نظرهم وأنانيتهم ، ولو وقفوا أمامه لما استطاع التقدم شبرا ، ولكنهم جنبوا وتقاعسوا وغلبهم شح أنفسهم فنال العدو منهم كل منال .

ولم يفت موقف رضوان وطفكتين فى عضد مودود ، فهذا رجل مجاهد لا يرجو كسبا ولا مغنما ، وانما غايته محاربة أعداء بلاده وقضاء العمر فى ميدان الجهاد . فعبر الفرات للمرة الثالثة

في سنة ١١١٣/٥٠٦ واتجه نحو دمشق ليستعين بصاحبها طغتكين ، وكان هذا ، على بعده عن روح الجهاد ، أحسن من بالشام اذ ذاك من القادة والرؤساء ، وكان يرحب بمودود لأن وجوده مع جنده في الشام كان يخيف الصليبيين ويبعد أذاهم عنه . واجتمع الأميران في سلمية على مقربة من حماه في ذي الحجة سنة ٥٠٦/ يونيو ١١١٣ وقررا السير نحو مملكة بيت المقدس .

وخف بلدوين الأول ملكها للقائهما بعدد قليل من فرسانه ، اذ لم يشأ انتظار الأمداد التي طلبها من أنطاكية والرها . وحاصر المسلمون طبرية ، فلما اقترب منهم انقضوا عليه وأزلقوا به هزيمة سحقت جنده ، فهرب وهو لا يصدق بالنجاة (آخر ذي الحجة سنة ٥٠٦/ ٢٨ يونيو ١١١٣) ثم انصرف المسلمون في اتجاه عكا وبيت المقدس ، وفي طريقهم خربوا ما حول نابلس ، وكانت قوات بولدوين ترقبهم عن كثب دون أن تجرؤ على الاقتراب منهم ، ثم اتجه مودود الى ناحية حوران وأخذ يهاجم ما يصادفه من حصون الصليبيين ، وعندما تعب جنده أذن لهم في العودة الى بلادهم ، ومضى في عدد قليل من جنده الى دمشق ، فدخلها في ربيع الأول سنة ٥٠٧/ سبتمبر ١١١٣ ، وكان قد تواعد مع جنده على أن يعودوا اليه اذا أقبل الربيع من العام القادم ليواصلوا الجهاد .

وفي اليوم الرابع لدخوله دمشق ، وكان يوم جمعة ، خرج للصلاة في جامعها مع طفتكين ، فلما فرغ من صلاته ، خرج الى الصحن ويده في يد طفتكين ، واذا برجل ينقض عليه بسكين في يده فأصابه أربع اصابات كان فيها حمامه . قال ابن الأثير : « وكان صائما فحمل الى دار طفتكين ، واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لا لقيت الله الا صائما ، ومات من يومه رحمه الله » . وهكذا انتهت حياة هذا المجاهد الذي قضى عمره كله في ميدان الجهاد ، وبدأ للمسلمين عصر النهوض وبشر بعصر الوحدة والظفر للعرب والمسلمين . ان مودود من غير شك هو الطليعة الأولى قبل نور الدين وصلاح الدين ، وهو حقيق أن يعد في الظاهرين من أبطال الاسلام .

أما قاتله فقد عاجله الناس وقتلوه وأحرقوه ، فقليل انه باطنى دسته هذه الجماعة الخبيثة على البطل العظيم خوفا على ما كان لهم في الشام ، وقيل أيضا ان سيف الدولة طفتكين هو الذى دسه ليقتله اذ خشى خطره على نفسه بعد أن رأى من همته واتجاهه نحو دمشق . وقد دفن مودود في دمشق ، ثم حملت رفاته الى بغداد ثم الى أصفهان .

وكان للباطنية اذ ذاك شأن عظيم في الشام ، وكان الناس

يخشونهم ويهادنونهم حتى كان لهم رئيس (يسمى المقدم) يعيش كأنه سيد محترم فى حلب يسمى أيا طاهر الصائغ ، فلما قتل مودود ثار بهم الناس ، وقبضوا على أبى طاهر وقتلوه ، وقبضوا على أعيانهم ، ونهبوا أموالهم ، ثم أطلقوهم ، فقصده نفر منهم البلاد التى كانت بأيدي الصليبيين وأقاموا فيها ، واختفى الباقون .

وفى العام الذى قتل فيه مودود توفى صاحب حلب رضوان بن تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، فاخفت من الميدان هذه الشخصية الخسيسة التى قضت عمرها فى الخيانة والأذى . وكان موته نعمة على المسلمين بقدر ما كان موت مودود نقمة عليهم ، اذ تمهد الطريق لانضمام حلب الى الموصل .

ولقد كانت أعظم نتائج جهاد مودود أنه أعاد الى المسلمين الثقة فى أنفسهم فانقلبوا من الدفاع الى الهجوم ، واستخفوا بالصليبيين وقويت نفوسهم فأخذوا ينزلون بهم الضربة بعد الضربة ، والصليبيون فى حيرة من أمرهم لا يدرون كيف يتقون هذا التيار الجديد الذى بدا لهم وكأنه طوفان . ثم ان المسلمين تعلموا من مودود درسا فى الاتحاد ، فأصبح أمراؤهم أميل الى محالفة بعضهم بعضا ، وتبينوا فضائل الاتحاد ، ولم تعد جماعة منهم تخرج الى القتال الا متحدة مع جماعة أخرى فيكتب الله لهما الانتصار .

ثم ان ميلاد حركة التوحيد فى الموصل وامتدادها الى شمال الشام جعل مملكة بيت المقدس تركز قواها للدفاع عن حدودها الشمالية ومدافعة ذلك التيار المطرد الذى لن يتوقف بعد اليوم ، فانصرف بلدوين الأول ملكها عما كان يستمرئه من الهجوم على ما بقى للفاطمين على سواحل الشام ، فتنفس مخنقها واستراحت زمانا . وبعد أن كان بلدوين هذا جريئا لا هم له الا الانتفاض على ما يصادفه من بلاد المسلمين ، اقتضت همته خلال السنوات الباقية من عمره على الدفاع . وحرص على أن يصلح صاحب دمشق طعنين ليطنئن من ناحيته . وأمنت صور وعسقلان على ساحل فلسطين فلم يعد يروعها بهجماتة ، فأفاد الفاطميون من ذلك وأخذوا يحصنونهما من جديد ، بل استقوا ومضوا يهاجمون نواحي مملكة بيت المقدس حتى هددوا بيت المقدس فى صيف ٥٠٨/١١١٥ ، فبذل بلدوين جهده فى دفع هذه الغارة .

وفى طريق العودة الى بيت المقدس اشتغل ببناء حصن منيع على تل الشوبك ، وقد سمي الحصن عند العرب بهذا الاسم ، أما عند اللاتين فيسمى مونت — رويال ، وكان غرضه من الحصن قطع الطريق على قوافل مصر الذاهبة الى فلسطين . ومن الشوبك

خرج في سنة ١١١٦/٥٠٩ وأوغل جنوبى فلسطين حتى أدرك ميناء أيله على خليج العقبة ، ثم اخترق صحراء سيناء وزار دير سانت كاترين ، ولكن الرهبان لم يرحبوا بمقدمه فعاد الى فلسطين عن طريق حَبْرُون ، وأغار فى الطريق على بعض القرى جنوبى فلسطين وغنم منها كثيرا ، فطلب الأفضل وزير الفاطميين اليه الصلح وقرره معه وتوفى فى العام التالى سنة ١١١٧/٥١٠ ، فاختنى من الميدان أجراً وأقدر ملك عرفته مملكة بيت المقدس ، فهو صاحب الفضل فى تثبيت قواعدها وتوسيع رقعتها .

*

تلقى راية الجهاد بعد مودود رجل من حلفائه شاركه فى معظم حملاته وقبس منه فكرة الجهاد هو ايلغازى بن أرتق صاحب ماردین ، ولم يكن ايلغازى من نسيج مودود ، وكانت ولايته صغيرة وموارده قليلة ، ولكنه حمل الراية على قدر ما أطاق حتى سلمها بعد ذلك للأمير آق سنقر والد عماد الدين زنكى وجد نور الدين محمود ، وهو — أى ايلغازى — ثانى أبطال الوحدة الاسلامية الذين ألقوا بلاد العرب من نعمة الاحتلال الصليبي : شرف الدولة مودود ، ونجم الدين ايلغازى ، وأخوه نور الدولة بلك ، وعماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب .

وقد أعانت الظروف نجم الدين ايلغازى على الظهور ، لأن روجرلى بورج أمير أنطاكية بعد تأكرد (ويسميه المسلمون روجيل) تطلع للهجوم على حلب بعد موت مودود ، وكان يمنى نفسه بأخذها ، فسار اليها فى جيش كبير عام ١١١٩/٥١٢ ، واستولى على « بيزاعة » من حصونها وعسكر على مقربة منها . وكانت أمور حلب بعد موت رضوان قد صارت الى غلام من غلمانة يسمى لؤلؤا ، فسارع هذا بالاستنجاد بالخليفة والسلطان ، فلم يجب صريخه أحد منهما ، فاتجه الى نجم الدين ايلغازى فبادر الرجل بالخروج فى جمعه لنجدة .

وفى أثناء ذلك كان روجر قد ضيق على حلب حتى عدت القوات ، واضطر لؤلؤ الى أن يقبل مناصفته فى خراج بعض جهاتها حتى ينصرف عنه ، ولكنه أخذ المال ولم ينصرف واستمر يحاصر حلب ، فاذا هو فى ذلك ترامت اليه أخبار سير ايلغازى ، فبعث يستجد ببلدوين الثانى ملك بيت المقدس الذى خلف بلدوين الأول بعد موته ، وبلغه تحرك بلدوين لنجدة فقامت نفسه وأقدم على لقاء ايلغازى دون عدة كاملة ، والتقى الجيشان عند حصن قسطون ، ودارت رحى معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون واستولوا على هذا الحصن ، واستمرت المعركة ولقى فيها روجر مصرعه ،

وتشجع نفر من أمراء الشام فأقبلوا ينضمون بعسكرهم الى ايلغازى ، ومنهم ديبس بن صدقة صاحب الحلة فى العراق وسلطان ابن منقذ صاحب شيزر وطغتكين أتابك دمشق ، وهبت رياح النصر على المسلمين فمضوا يتعقبون فلول جيش أنطاكية ، فلم ينج منهم الا الشريد .

وقد تردد صدى هذا النصر فى نواحي العالم العربى ، فأما فى بغداد فقد اعتر الناس بايلغازى وبعث اليه الخليفة المسترشد بخلة التشريف وتقبة نجم الدين . وفى أثناء ذلك كانت قد آتحت له فرصة ضم حلب الى بلاده ، لأن لؤلؤا غلام رضوان لم يستطع ضبط أمورها ، وأراد مع ذلك أن يمضى فى رئاسة البلد زاعما أنه أتابك لابن رضوان ، فاستصدر نجم الدين ايلغازى تفويضا من الخليفة بضم حلب الى ماردين والموصل ، وتم له بذلك تكوين جبهة اسلامية موحدة فى هذه الناحية . وقويت نفسه بعد ذلك ، فمضى يواصل جهاد الصليبيين (١١١٨/٥١١) .

وأما فى أنطاكية فقد ملك الصليبيين الهلع بعد مقتل أميرهم ، وتحرك أهلها من النصارى وحاولوا التخلص من نير أولئك التورمان العتاة ، فأسرع الأسقف برنارد ، مندوب البابا ، وكان يقيم فيها منذ خلع بلدوين الأول البطريق ديامير ، ونصب نفسه

حاكما على أنطاكية وضيق على السوريين من أهل البلد وجردهم من سلاحهم وألزمهم بيوثهم تحت حراسة جند الصليبيين ، ولم يأذن لهم بمغادرتها بعد الغروب ، وقد كان لسياسته تلك أسوأ الأثر على هذه الامارة الصليبية ، ودلت كذلك على ما كان يقاسيه العرب النصارى من عسف أولئك الأجانب ، وعلى أن مؤرخى الحروب الصليبية من النصارى كذبوا فيما زعموه من أن قواتهم انما آتت لتتخذ النصارى من عسف المسلمين . وهذا الحال يشبه ما عليه اليوم اليهود الفلسطينيون فى النواحي المحتلة من أرض فلسطين ، فهم فى شقاء وذل مع مهاجرة الصهيونيين وطواغيتهم . وقد رأينا فيما مضى ما أصاب الأرمن والسريان — وهم نصارى — على أيدي الصليبيين النورمان الذين بسطوا سلطانهم عليهم فى الرها ونواحي قيليقية .

أسرع بلدوين الثانى ملك بيت المقدس لنجدة أنطاكية وانقاذها مما هى فيه ، فدخلها فى ربيع الأول ٥١٢ / يوليو ١١١٩ وأعلن نفسه وصيا على امارة طرابلس وتولى مقاليد الأمر فيها .

وكان المرض قد أصاب ايلغازى فلزم الفراش نحو ثلاثة أسابيع ، ثم أبل من مرضه وخرج الى الميدان ، واتجه نحو حصن الأتارب الذى فقدته حلب منذ سنتين نتيجة لتخاذل رضوان ،

وتمكن ايلغازى من استعادته (ربيع الأول سنة ٥١٢/يوليو ١١١٩) ثم استولى على حصن زارنده ، وخرج بلدوين الثانى لحربه وعسكر عند تل دانيث ، فلم يزل جند المسلمين ينوش معسكره حتى ضجر جنده وهبطت عزيمتهم . ثم التقى الجمعان فى ربيع الثانى سنة ٥١٢/أغسطس ١١١٩ ودارت رحى معركة عنيفة لم تنته الى نتيجة حاسمة ، فأما المسلمون فيقولون انهم فازوا بفخرها ، وكذلك يزعم الصليبيون ، وعلى أى الأحوال ، فقد انصرف ايلغازى بعد الموقعة الى حلب ، ثم عجل بالعودة الى ماردين ليجمع جندا جديدا ، فابتدر بلدوين الفرصة واستعاد بعض ما فقد من حصون ، ولكن الأتارب وزارنده ظلتا فى أيدي المسلمين ، وتنفس مخنق حلب وعاد الاطمئنان الى نفوس أهلها .

ورأى بلدوين أن الرها مهددة بالسقوط اذا لم يتداركها بأمر مقاتل عنيد ، فوقع اختياره على جوسلين صاحب طبرية ، وكان جوسلين هذا قبل ذلك أمير تل باشر على أيام بلدوين النورمانى صاحب الرها ، ثم اختلف معه وطرده من خدمته ، فضمه بلدوين الأول اليه وولاه طبرية . فلما مات بلدوين صاحب الرها لم يعد للامارة من يقوم بأمرها ، فعهد بلدوين الثانى صاحب بيت المقدس الى جوسلين فى امارتها ، وكان مقاتلا عنيدا ذكرنا فيما سبق كيف

وقع في أسر جكرمش أمير الموصل ثم أطلق سراحه جاولي ، فكان الرجل محققا على المسلمين لا يكف عن أذاهم ، ولهذا فقد قصده ايلغازي حينما عاد الى الشام من ماردين في ربيع سنة ٥١٣/١١٢٠ وعاث في بلاده ما بين تل باشر وقيسون ، ثم مضى نحو أنطاكية يهاجمها ، فخرج بلدوين الثاني للقائه ودارت الحرب بينهما سجلا ، ثم انسحب ايلغازي الى قنسرين ومنها الى حلب ، فاطمأنت أنطاكية بعض الشيء ، خاصة وقد عاد ايلغازي الى ماردين ليقمع ثورة قام بها ابنه سليمان .

وأقر نجم الدين ايلغازي الأمور في بلاده وعاد الى الشام فنزل في حلب ، التي أصبحت جزءا من أملاكه ، وسار لحرب الصليبيين في ربيع الأول سنة ٥١٦/يونيو ١١٢٢ وانضم اليه ابن أخيه نور الدولة بلك بن بهرام بن أرتق صاحب خرّ تبرت وطغتكين صاحب دمشق ، وخرج بلدوين الثاني للقائهم ودارت بين الفريقين وقائع صغيرة لم تنته الى نتيجة ، ثم ثقل المرض على ايلغازي فعاد الى حلب ليمرض ، وانصرف طغتكين الى دمشق ، وسار بلك بن أرتق عائدا الى خرّ تبرت . وأراد الله أن يكتب له حسنة كبرى ، فحرك جوسلين الى التعرض له أملا في الافراد به وهزيمته . وأدرك بلك مأربه فتحصن خلف منطقة مستنقعات وانتظر العدو ، وتقدم

جوسلين نحوه فلما توسط جنده منطقة المستنقعات أخذتهم سهام المسلمين من كل جانب فقلت غريهم وقتلت أنجادهم ، وحاول جوسلين الفرار فأدركه المسلمون وأسروه مع نفر من فرسانه ، وعاد بلك مظفرا بمن معه من الأسرى الى خربت ، وكأنما أرادت الأقدار أن تنتقل الى يده راية الجهاد فى وقت كان عمه المجاهد يعانى أوصاب المرض الشديد .

وشعر نجم الدين ايلغازى ببعض التحسن ، فأخذ الطريق الى ماردين ، ولكن منيته أدركته فى الطريق (١٧ رمضان ٥١٦ / ٣ نوفمبر ١١٢٢) وبذلك انتهت حياة هذا المجاهد المظفر الذى أدى لوحدة الاسلام قدر ما أدى شرف الدولة مودود . فقد أرادت المقادير أن يتم على يديه توحيد حلب والموصل وماردين ، فكانت تلك خطوة حاسمة فى طريق النصر المأمول . وقد كسب الرجل من الانتصارات ما قويت به نفوس المسلمين ، وقضى على ثمر من أنجاد الصليبيين كانوا شجى فى حلق العرب والمسلمين . وريع بلدوين الثانى عندما علم بأسر جوسلين ، فعجل بالمسير الى حلب وغزا نواحيها واسترد حصن الأتارب ، وكان قد تولى الأمور فيها ابن أخ لنجم الدين ايلغازى يسمى بدر الدولة ، فلم يحسن الولاية وتعرضت حلب للخطر . فأسرع نور الدولة بلك

لتلافي الحال ، وحاصر قلعة كركر ليشغل بلدوين الثاني عن حلب ، ومضى هذا نحوه ودارت رحى معركة عنيفة عند أسوار البلد ، كتب فيها النصر لنور الدولة بلك وأكرمه الله فوقع بلدوين في أسرهِ ، فسيره مخفورا الى خربترب حيث حبس في نفس الغرفة مع جوسلين ، وبهذا جمع هذا الأمير الباسل هذين الصليبيين العاتيين في يده وحبسهما كأنهما طائران في قفص (ربيع الأول سنة ٥١٧ / أبريل ١١٢٣) . ثم سار الى حلب واستولى في الطريق على حران ، فلما بلغ حلب اذاب هذا التافه بدر الدولة يريد أن يرده عنها ويحوزها لنفسه ، ولكنه لم يستطع مدافعته ، ودخل نور الدولة بلك حلب ورتب أمورها ، وتزوج إحدى بنات رضوان فاستقرت له الأمور .

ولم يرح نور الدولة بلك في حلب طويلا ، بل عجل بالخروج للحرب فاستولى على « البارة » وكانت من أكبر المعاقل التي استولى عليها الصليبيون في الحملة الأولى ، وكانوا قد جعلوا مسجدها كنيسة وأقاموا فيها أسقفا ، فأعاد بلك المسجد الى أصله وألغى الأسقفية ، ثم بدأ يحاصر كفر طاب جنوبى معرة النعمان ، فاذا هو في حصارها اذ بلغه نبأ اضطره الى رفعه : لقد تجمع نفر من مأجورى الأرمن وهاجموا البرج الذى كان جوسلين وبلدوين

الثاني سجينين فيه وخلصوهما ، ثم احتلوا الحصن وحاولوا الاستيلاء على خرتبرت ، وهى بلد صغير فى مخارم جبال أرمينية فى أقصى شرقى بلاد الدائشمنديين شرقى آسية الصغرى .

وترك جوسلين صاحبه يباشر القتال ، وأسرع الى الرها لىأتى بالأمداد ليتم الاستيلاء على ذلك الحصن . فرفع بلك الحصار ومضى مسرعا الى ماردين ومنها الى خرتبرت ، فوصل فى مدة لا تكاد تتصور فى تلك العصور : خمسة عشر يوما ، وفى اليوم السادس عشر كان قد قضى على الفتنة وهزم الأرمن وقبض على بلدوين وأعادته الى سجنه ، ثم قتل كل من كانت له فى الفتنة يد . وعلم جوسلين أن لا أمل له فى المسير الى خرتبرت ، فاتجه نحو حلب وأغار على ما حولها غارة وحشية لا يقدم على مثلها الا جلف مثله : لم يكتف باتلاف الزروع بل قطع الأشجار ونبش القبور وأحرق عظام الموتى ، وهدد حلب بشر مستطير ، ولكن قاضى البلد نهض وتولى الدفاع وصمد فيه ، وأراد القاضى أن يعاقب جوسلين على فعله فاستولى على كنيستين وجعلهما مسجدين ، وأبقى لنصارى البلد كنيستين آخرين .

وعاد بلك الى حلب مع ظهير الدولة طغتكين صاحب دمشق وآق سنقر البرسقى من كبار جند السلطان مسعود ، وحاول

الثلاثة استعادة حصن عزاز فلم يوفقوا ، فاتجهوا لمهاجمة تل باشر حتى ينصرف جوسلين عن حلب . واتصل بعلم بلك أن أمير منبج يخامر على المسلمين مع جوسلين ، فحاصره في بلده ، وأقبل جوسلين لبعونه فهزمه بلك واستمر في الحصار ، فأصابه سهم قاتل أقعده عن القتال ، فتمالك وانتزع السهم ، وأحس أن منيته حانت فقال وهو يعالج سكرات الموت : « هذا موت لكل المسلمين » ، ومات في ٢٧ ربيع الثاني سنة ٥١٨/٧ مايو ١١٢٤ ، وقد المسلمون بموته فارسا نجدا قاد جندهم من نصر الى نصر حتى سمي المظفر .

وخلفه على حلب ابن عمه حسام الدين تَمَرْتاش بن ايلغازي ، ولم يكن كفئا للمظفر الذي تولى فيه ، وقد بدأ حكمه بداية سيئة اذ صور له رأيه أن يطلق سراح بلدوين الثاني فيطوقه بمئة يذكرها له ، وكان قد قرر عليه قبل أن يطلقه فدية كبيرة واشترط أن يسلم اليه حصن عزاز ، وقد أدى بلدوين جانبا من الفدية قبل اطلاق سراحه ، فلما أصبح طليقا نكث عهده وأعلن أنه لا يتقيد بعهد قطعه لملك مسلم ، وأحله بطريق بيت المقدس من عهده ، وقال كلمته المشهورة : « لا عهد لمسلم ! » وتوجه في أواخر ذي الحجة سنة ٥١٨/سبتمبر ١١٢٤ نحو حلب وقلبه عامر بالحقده عليها ، ومن سوء الطالع أن انضم اليه رئيس عربي ممن شقى بهم المسلمون

شقاء طويلا خلال ذلك العصر هو ديس بن صدقة لحقد كان منه على تمرتاش ، ثم انضم اليهما جوسلين وجند كثير من أنطاكية .

لقيت حلب من ذلك الحلف أذى لم تعرفه في يوم من أيامها ، وضاق عليها الخناق وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب ، لكن أهلها استبسوا في الدفاع حتى كان الرجل منهم يصاب فلا يطمئن في فراشه الا قدر ما يستريح ثم ينهض للقتال وجرحه يدمى . كل ذلك وتمرتاش في مارددين لا يقدر الموقف حق قدره . و طال الحصار وتناقص المقاتلون حتى كادت المدينة تستسلم .

ولكن الله تدارك حلب والمسلمين برجل من طراز مودود وإيلغازى وبلك ، هو آق سنقر البرسقى ، وكان فارسا شهما تمرس بالحروب وتولى الأعمال لسلطين السلاجقة دهرا ، وقد ولاه السلطان مسعود الموصل وحلب في أواخر سنة ١١٢٤/٥١٨ فرتب أمور الموصل وجمع جنده وسار في سنة ١١٢٥/٥١٩ الى حلب ، فما جال مع المحاصرين جولة حتى تفرقوا وعادوا يجرون أذيال الخيبة ، ونجت جبهة الاسلام من أكبر خطر تعرضت له بعد سقوط بيت المقدس .

وفي أثناء أسر بولدوين الثانى كانت أمور مملكة بيت المقدس

بيد يوستاش صاحب قيصرية وصيدا . وأراد المأمون البطائحي وزير الفاطميين أن ينتهز الفرصة ويستعيد يافا ، ولكنه لم يوفق (ربيع الأول سنة ٥١٧/مايو ١١٢٣) ووصل أسطول بندقي وانضم الى الصليبيين ، وأنزل بأسطول الفاطميين هزيمة لم يحاول بعدها الخروج من مراسيه في عسقلان . ثم توفي يوستاش (١٥ يونيو ١١٢٣) وتولى الوصاية في بيت المقدس ولينام دي بوريس صاحب طبرية ، وأراد أن يشغل المسلمين عن الهجوم على القدس فهاجم مع البندقيين مدينة صور واستولى عليها بعد قتال عنيف . ولم يبق للفاطميين بعد ذلك الا عسقلان (٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨/٧ يوليو سنة ١١٢٤) .

واضطربت الأمور في مملكة بيت المقدس حتى انعدم الأمان ، وبات حجاج النصارى لا يأمنون على المسير من الساحل الى بيت المقدس خوفا من الأعراب والتركمان ، فنفر فارس يسمى هيو دي ينس (في سنة ١١١٩) وكون مع سبعة من رفاقه فرقة من المقاتلين الدينيين سموا أنفسهم فرسان المعبد لحراسة الحجاج ، وعاشوا عيشة الرهبان منقطعين للعمل الذي عاهدوا أنفسهم على اتيام به ، وقد اعترف بهذه الفرقة الرهبانية مجمع ترثوا الدينى في عام ١١٢٨ ، وذلك هو ميلاد هذه الجماعة الدينية التى ستلعب

من الآن فصاعدا دورا هاما في الحرب بين الصليبيين والمسلمين ،
وقد سباهم المسلمون بالداوِية .

ونعود الى آق سنقر البرسقى : افتتح الرجل أيامه في حلب
بعدالة وحزم حباه الى الناس ، واجتهد في اعداد الجند والتمهيد
للحرب ، اذ أنه كان مجاهدا استقرت نفسه على قضاء بقية عمره
في خدمة القضية الكبرى : طرد الصليبيين . ثم خرج في ربيع
سنة ١١٢٥/٥١٩ بعدة كاملة وافتتح انتصاراته باستعادة كفر طاب
وحاصر عزاز ، ووصل بلدوين الثانى والتحم الجانبان في معركة
لم يوفق فيها آق سنقر ، ثم تقرر الصلح بين الجانبين على تبادل
الأسرى وتقاسم خراج ناحية جبل سُمّاك .

وقد تحامى بولدوين الثانى بعد ذلك أرض حلب ووجه ضرباته
نحو دمشق وأنزل بظهير الدولة طغتكين هزائم متوالية أكبرها عند
مرج الصّفَر (ربيع الثانى سنة ٥٢٠/يونيو ١١٢٦) ، ولم يخرجها
من بلاد دمشق الا ظهور آق سنقر البرسقى فارتد عنها وتهادن
الفرقيان . وكان بونس (بَنص) صاحب طرابلس قد استولى على
دِفْنِيَّة (محرم سنة ٥٢٠/مارس ١١٢٦) وعاث في ضواحي حمص .
وعاد آق سنقر الى الموصل ، وبينما كان يصلى الجمعة في
الثامن من ذى القعدة سنة ٥٢٠/٢٦ نوفمبر سنة ١١٢٦ وثب به

جماعة من الباطنية فقتلوه ، وبهذا قضت هذه الجماعة المفسدة على رابع أبطال الوحدة الاسلامية ومجاهدة الصليبيين . ولا يدري أحد ما كان دافعهم الى هذه الاغتيالات . ومن غريب الأمر أن أذاهم لم يمتد الى صليبي واحد ذى خطر أو الى خائن واحد ، فكأنما نذروا أنفسهم لأذى الاسلام والمسلمين .

وحسب الناس أن أمر الموصل وحلب قد ضاع ، ومن أين لها يبطل جديد بعد أن غال الموت هذه السلسلة الباهرة من رجالها الصيّد ؟ وقد غاب عنهم أن الشعوب اذا نهضت للعمل العظيم واشرابت نفوس أهلها للمجد لم يلبث أن يظهر من بين أفرادها من يتولى قيادة ركبهم المظفر ، ولقد استيقظت أمة العرب والاسلام منذ أيام مودود ، وجاشت الصدور بالجهاد والفداء وذات طعم العزة والمظفر ، فلم يكن هناك بد من ظهور القائد وسير الركب في طريق النصر والأمجاد .

ففى ربيع الآخر من سنة ٥٢١ / مايو ١١٢٧ عهد السلطان محمود فى اماره الموصل وحلب الى عماد الدين زنكى بن آق سنقر علاوة على عمله كحاكم العراق . فسار الى الموصل واستقر فيها ، ثم بلغه اختلاف أهل حلب ومهاجمة الصليبيين اياها ، فعجل بالمسير اليها ، واستولى فى طريقه على منبج ويزاعة ، ثم دخل حلب وثبت أقدامه فيها ، فاطمأن البلد من جديد .

وكان وصول عماد الدين الى حلب فاتحة خير ، فقد كان الصليبيون قد كلبوا عليها وعلى دمشق، وتصادف أن توفي طغتكين أتابك دمشق في ذلك الحين ، وكان على فساد نفسه سياسيا حكيما عرف كيف ينجو بدمشق من أيدي الصليبيين ، فلما مات أرجف الناس بها وتطلع اليها أصحاب بيت المقدس وأنطاكية ، فكان استقرار عماد الدين زنكى في حلب أمانا للشام وسلاما للاسلام .

رائد النصر: عماد الدين زنكي

وقد درى الروم مذ جاورت أرضهم^١ أن ليس يعصهم مهل ولا جيل^٢
في كل يوم تزور الثغر لا ضجر يثنيك عنه ، ولا شغل ولا ملل
فالتفمس جاهدة^٣ والعين ساهدة والجيش منمك والمال مبتذل
« أبو فراس الحمداني »

كان عماد الدين زنكي قبل أن يتولى أمورو الموصل من فرسان
«الاسلام المعدودين وشبابهم الذي يدخر لعظائم الأمور . كانت
سنه عشر سنين عندما قتل أبوه آق سنقر ، فضمه اليه قوام الدولة
كربوقا وقال : « هو ابن أخى وأنا أولى بتربيته » وضم مماليكه
الى جنده وأقطعهم الاقطاعات . وتوفي كربوقا سنة ١١٠٢/٤٩٦
فدخل زنكي فى خدمة شمس الدولة جكركميش صاحب الموصل ،
وبقى معه الى أن قتل سنة ١١٠٧/٥٠٠ ، وظل فى الموصل يعمل
مع أمرائها حتى صار فى عداد فرسان شرف الدولة مودود ، فكان

من رجاله الذين يعهد اليهم في عظام أموره ، والى صحبته الطويلة
لمودود يرجع ايمان عماد الدين زنكى بالوحدة والجهاد لطرد
الصليبيين من الشام ، وقد تعلق قلبه بتخليص الشام وأظهر من
الحرص على ذلك الغرض الأسمى ما جعل جنده يلقبونه بزنى
الشامى قبل أن يصل الى الولاية بزمان طويل . واستمر زنكى في
امارة الموصل بعد موت مودود معينا لایلغازى ومن أتى بعده .

وصارت امانة الموصل سنة ١١٢٨/٥٢٢ الى مسعود أخى
السلطان السلجوقى محمود ، ولم يكن مسعود راضيا عن سلطنة
أخيه محمود ، ولم يلبث الطمع أن حركه للثورة على أخيه وطلب
الملك لنفسه ، وكان عماد الدين زنكى من فرسانه فجعل يحذره
من نتائج الخلاف ويصرفه عن هذه الفتنة التى لا تعود على أحد
بخير ، ولكن مسعودا لج في العداوة وأبى الا الحرب ، فتخلى عنه
عماد الدين اذ لم ترض نفسه بأن يحارب سلطانه . وانهزم مسعود
واستأمن لأخيه محمود فأمنه ، وأخذ منه الموصل وأقطعها آق
سنقر البرسقى ، وضم اليه عماد الدين زنكى وأوصاه بالوقوف
عند رأيه وما يشير به .

ثم تقلب آق سنقر البرسقى في مناصب أخرى في البصرة
وبغداد ، وعزل من الموصل ثم أعيد اليها ، فطلب الى زنكى أن

يخرج معه ، وكان قد ضجر بكثرة التقلب في البلاد والوظائف وقال : « قد ضجرنا مما نحن فيه ، كل يوم قد ملك البلاد أمير وثومر بالتصرف على اختياره وارادته ! ثم تارة بالعراق ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة ، وتارة بالشام ! » ولم يخرج الى الموصل ، وأثر الاستقرار في بغداد الى جانب السلطان محمود ، فقربه وأكرمه وتوطدت بينهما صداقة وصحبة . وفي نفس الوقت اتصل بالخليفة المسترشد وكسب وده واحترامه . وعندما وقع بين السلطان محمود والخليفة المسترشد خلاف أدى الى الحرب ، وقف زنكى على الحياد حتى انجلت الغمرة وتصلح الفريقان . ثم ولى زنكى شِحنة (أى حكومة) بغداد . فلما قتل آق سنقر البرسقى عام ١١٢٦/٥٢٠ عهد السلطان محمود فى اماره الموصل وحلب الى ابنه عز الدين مسعود بن آق سنقر ، فلم يستطع ضبط هذه الولاية الواسعة التى كانت تتطلب رجلا قادرا ، فعزل عنها واستقر الرأى فى سنة ١١٢٨/٥٢٢ على أن يتولاها عماد الدين زنكى ، فخرج الى الموصل مصطحبا نفرا من أصحابه من الرجال أحسن اختيارهم ، ومن أعظم فضائله وأقوى أسباب توفيقه أنه كان نقادا للرجال يعرف كيف يختار الأكفاء الصالحين منهم ويوليهم ثقتهم ، وقد انتفع زنكى وابنه نور الدين بهم وبأولادهم

أحسن انتفاع ، نذكر منهم صلاح الدين محمد الياغسياني والقاضي بهاء الدين أبا الحسن علي الشَّهْرزُورِي ونصير الدين جَقَر، فجعل الأول أمير حاجب ، أي أشبه بوزير ، والثاني قاضي قضاة بلاده ، والثالث حافظا لقلعة الموصل وفوض اليه أمر هذه الولاية كلها .

وقد وصف شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة ، مؤرخ نور الدين وصلاح الدين ، أحوال البلاد الإسلامية عند ولاية عماد الدين زنكي للموصل في عبارة توجز ما فصلناه في الصفحات الماضية ، ولا بأس بإيرادها على تواليها ، قال : « وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتدت الى بلاد المسلمين أيديهم ، وضعف أهلها عن كف عاديهم ، وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب ، واستطار في البلد شرر شرهم ، وامتدت مملكتهم من ناحية شِبْخَتان الى عريش مصر ، لم يتخللها من ولاية المسلمين غير حلب وحماء وحمص ودمشق . وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمَد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس — عين . أما أهل الرِّقَّة وحِصَّان فقد كانوا معهم في ذل وهوان ، وانقطعت الطريق الى دمشق الا على الرحبة والبر . ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واثاوة يأخذونها منهم

ليكنفوا أذيتهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم فمن اختار المقام تركوه ومن آثر العود الى أهله أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلاً للمسلمين وصغاراً . وأما أهل حلب فان الفرنج أخذوا منهم مناصفة أعمالها حتى الرحا التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة . وأما باقى بلاد الشام فكان حالها أشد من حال هذين البلدين ، فلما نظر الله سبحانه الى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكى ، فغزا الفرنج فى عقر ديارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم ، واستنقذ منهم حصونا ومعقل ..

وفى كلام أبى شامة مبالغة ظاهرة ، دفعه اليها حبه للبيت الزنكى وظنه أن المبالغة فى تصوير سوء حال المسلمين عند ولاية زنكى جديرة بأن تزيد فى تقدير أعماله وما أداه للمسلمين ، والحقيقة أن أحوال العالم العربى كانت قد تحسنت كثيراً منذ أيام شرف الدولة مودود ، ووصل الأمر الى درجة التعادل بين الجانبين فى شمال الشام ، أما فى جنوبه وفى فلسطين فقد ظل الأمر على ما هو عليه من السوء نتيجة لضعف الفاطميين وسوء سياستهم ، ولهذا ، فان الصليبيين لم يزدوا رقعة بلادهم فى الشمال شيئاً بعد سنة

١١٠٦/٥٠٠ واتجهت همتهم الى الاتساع فيما كان خاضعاً للفاطمين ، حتى لم يبق لهم هناك الا عسقلان ، وحتى هذه ستسقط بعد قليل .

كذلك غاب عن أبى شامة وعن ابن الأثير وابن القلانسي وغيرهم من القدماء أن يلاحظوا التطور الذى أصاب الامارات الصليبية وما دخل عليها من الضعف لأسباب عدة ، منها طول الحرب مع المسلمين وهلاك الأعداد بعد الأعداد من خيرة الفرسان الذين أتوا مع الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، واشتراك الجنود والبندقين فى الحرب أكثر فأكثر واجتهادهم فى الفوز من الغنيمة بأكبر نصيب ، ولقد كانت لهم اليد الطولى فى الاستيلاء على مدائن الساحل بعد أنطاكية ، وكانوا يفوزون فى كل ثغر يشاركون فيه فتحه بثلثه غير نصيبهم من الغنائم ، وحصلوا على الحق فى أن يكون لهم حى خاص يقيمون فيه . وكانوا اذا استقروا فى بلد مضوا فيما أهمهم من التجارة وجمع المال ، ويدفعهم ذلك الى التدخل فى السياسة وشئون المدن ، مما كان يشغل أصحابها عن الحرب والدفاع . وهناك أيضا الامبراطورية البيزنطية التى تبينت أن الصليبيين لم يقبلوا لعونها وانما لعون أنفسهم ، فاختلفت معهم من أول الأمر على امارتى أنطاكية والرها ، وما زال الجو يكفهر بينه

الجبائين حتى تطور الى عداء سافر بل الى الحرب بين الحين والحين ، ومال البيزنطيون في أيام مانويل ويوحنا كومنين (وقد جاء بعد ألكسيوس) الى الاتفاق مع المسلمين على الصليبيين . وأهم من ذلك كله ما أصاب عناصر الصليبيين نفسها ، وبيوتهم الحاكمة من تطور كبير .

ذلك أن أيام الجيل العنفي المغامر من الصليبيين ذهبت مع أمس الدابر : أكلتهم الحروب أو ماتوا حتف أنوفهم أو عادوا الى بلادهم . ولم يعرف الصليبيون بعد الجيل الأول رجالا من طراز راييموند صاحب تولوز ، أو بوهموند وأخيه بلدوين وابن أخيها فانكرد النرمانين ، أو من طراز بولدوين الأول ملك بيت المقدس . فقد اتسعت الامارات وكثر بين أيدي أصحابها الخير ، فبدأ يدب فيهم ديبب الضعف والوهن والخلاف ، فلا نظفر بما يشبه هذا الجيل الأول الا لما كما سنرى في حالة عموري ملك بيت المقدس . بدأت هذه الظاهرة تتجلى للعيان بعد موت بلدوين الثاني في شوال ٥٢٥ / أغسطس ١١٣١ ، فقد أقر رجال المملكة الوريث الذي اختاره بولدوين لعرشه ، وهو فولك الخامس كونت أنجو . ولم يكن فولك من الصليبيين ولا فكر قبل أن يغادر بلاده في أن يحمل الصليب ، وانما كان بلدوين قد أهمله أمر مصير العرش ،

لأنه لم ينجب غير أربع بنات هن مليزاند وأليس وهوديرنا وچوڤيتا ، وكانت مليزاند أكبرهن ولها وراثه العرش ، فبحث لها أبوها عن زوج كفء ، لحمل عبء الدولة معها فلم يعجبه واحد من فرسان الصليبيين في الشام ، فبعث الى لويس السادس ملك فرنسا يطلب اليه أن يختار لابنته نبيلاً فرنسياً جديراً بالتاج ، فاختار فولك هذا ، وكان أبوه كوتتا لأنجو وأمه بيتزادا من آل موتنفور ، اشتهرت بما كان لها من علاقة غير مشرفة بفيليب الأول ملك فرنسا . وكان فولك رجلاً في الأربعين من عمره ، عرفه الناس بالطمع والتدمير السيئ اللذين جعلاه من أغنى نبلاء فرنسا . وكان عندما وقع الاختيار عليه قد بلغ آماله من الغنى والجاه وأوصى بالكوتتية لابنه جودفروا ، فلما أتاها العرش على طبق ذهبي خرج الى بيت المقدس وهو لا يشك في أن أحداً من فرسان الصليبيين تحدثه نفسه بمنازعته ، ثم تزوج الأميرة الشابة مليزاند ، وصار اليه العرش بعد موت بولدوين الثاني بثلاثة أسابيع .

ولكن أمراء أنطاكية وطرابلس ساءهم ذلك الأمر كله ، وغز عليهم أن يأتى هذا الطارئ الغريب عنهم ليصبح سيدهم ، لأن سياسة بولدوين الأول والثاني وما تعرضت له الامارات الصليبية الثلاث من أخطار جعلت ملك بيت المقدس سيداً لسائر الأمراء

يدينون له بما يدين النبيل الاقطاعي للملك من واجبات وولاء .
وكانوا هم من جانبهم يحاولون التخلص من تلك القيود حتى حيال
بولدوين الأول والثاني ، فما بالنا بقولك وهو غريب عنهم مفروض
عليهم ؟

وكان أول الساخطين على ما حدث الأميرة أليس ثانية بنات
الملك الذاهب ، وكانت وصية على عرش أنطاكية ، فقد كان هناك
عرف قانوني فرنجي يقضى بأن الأميرة الوصية مقدمة على غيرها
في كرسي مملكة أبيها اذا مات . ولم يكن جوسلين صاحب الرها
بأقل انكارا لقولك ، فقد كان — بعد بولدوين الثاني — رأس
الصليبيين وأكثرهم جهدا في حرب المسلمين ، بل كان قسيم بولدوين
في الأسر ولقي معه الأهوال . أما في طرابلس فقد رفض الأمير
بونس بن برترام أن يؤدي الطاعة للملك الجديد . فاتفق الثلاثة
على خلفه ، وأراد هو أن يفرض نفسه عليهم بالقوة . وتوفي
جوسلين الأول بعد بولدوين الثاني ، وخلفه في امارة الرها ابنه
الصغير جوسلين الثاني ، فسار في اتجاه أبيه وانضم الى أليس
وبونس . ولم يأذن أصحاب طرابلس لقولك بدخول بلادهم ،
فاضطر الى ركوب البحر من بيروت الى جبل صهيون ، وكانت
من أملاك زوجته ، ولكنه لم يوفق الى شيء مما طلب من ارغام

الأمراء على الطاعة ، واضطر الى العودة الى بيت المقدس ليجد في انتظاره ما هو أقسى وأجلب للأساء .

ذلك أن الملكة مليزاند كانت منذ شبابها متعلقة بفارس صليبي يسمى هيثو دى ليويزيه صاحب يافا ، وكان حديثهما على كل لسان ، ولم تقلع مليزاند عما هى فيه بعد زواجها وتوليها العرش ، ونمى الأمر الى الملك فولك فأهمه وأرقه ولكنه آثر السكوت ، ولكن قبلاء البلاط لم يسكتوا وخرج واحد منهم — والتر جارنييه — عن حدود الكلام الى التحدى ، وطلب هيو للمبارزة ، فنكص هذا وهرب الى يافا ولم يحضر فى الموعد المضروب ، فسقط فى أعين الناس ، وقرر مجلس الملك ادانته بجريمة التخلف عن مبارزة دعى اليها للدفاع عن الشرف . فهرب هيو الى عسقلان وطلب الى المصريين أن يعتبروه لاجئا ، ولكنهم زهدوا فيه ونبدوه . ثم وقع فى أيدي فولك فحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات ، فأخذ يستعد للرحيل الى ايطاليا . ثم أراد أن يلم ببيت المقدس ليودع أصحابه ، وهناك انقض عليه فارس فقتله . وقد حوكم الفارس وحكم عليه بالموت بأن تقطع أطرافه واحدا واحدا ثم تقطع رقبتة ، وتقد فيه الحكم على الملاء . ومع أنه أقر بأن الملك لم يوعز اليه بالجريمة الا أن مليزاند زادت ثقورا من فولك ، واجتهد هذا

في أن يكسب ودها فأطلق لها العنان تفعل ما تريد ، فأقبلت تتدخل في كل شأن من شئون المملكة .

ولم تكن الأحوال في بقية الامارات الصليبية بأحسن مما كانت عليه في بيت المقدس ، فقد كان جوسلين الثاني صاحب الرها (تسميه المراجع العربية ابن جوسلين) شابا كسولا سيئ الرأي والتدبير ، وكان الى ذلك قبيحا قصيرا بطينا مجذور الوجه ، وكان متهاكما على شهواته ، فاحتقره رجاله وأبغضوه ، وكانت أليس الوصية على امارة أنطاكية امرأة أنانية ضعيفة الرأي لا تحسن الا تدبير المؤامرات ، وكان فولك قد أرغمها على أن تنزل له عن الوصاية ، فحققت عليه وباتت تتربص به الدوائر . أما بونس صاحب طرابلس فكان شابا أهوج مفتونا بنفسه مسرفا عليها في شهواتها .

وقد حدث هذا التطور كله فيما بين موت آق سنقر ومجيء عماد الدين ، فلم يتبين واحد من أمراء الصليبيين شيئا من خلاله ومناقبه ، فما كادوا يلاقونه في ميادين الحرب والسياسة حتى فتحوا عيونهم دهشة وعجبا .

ولم تكن الأحوال في بغداد أيضا بأحسن مما كانت عليه في بيت المقدس ، لأن السلطان محمود السلجوقي توفي عام ١١٣١/٥٢٥

واختلف أبناؤه واخوته على العرش ، وجرت الحروب بينهم ، وخاض غمارها معهم الخليفة المسترشد آملا أن يستعيد جاه الخلافة العباسية وسلطانها ، وانضم عماد الدين الى مسعود من أبناء محمود وأيده وسار في جيشه ليحارب سلجوق شاه أخا محمود ، ولكنه انهزم وكاد يهلك لولا أن أنقذه نجم الدين أيوب الكردي صاحب تكريت ، اذ عبره الفرات وأنجاه من الموت . ثم عاد زنكي الى الحرب وخاض معركة مع الخليفة المسترشد ، ولكنه انهزم للمرة الثانية . وتبعه المسترشد الى الموصل ، ولكنه عاد فسرعا الى بغداد ليلقي مسعودا أخا السلطان محمود في معركة قضت على آماله ، فعزل ونفى الى آذربيجان حيث اغتاله الباطنية الاسماعيليون . وخلا الأمر لمسعود ، فأحسن الى زنكي وأفاض عليه الخلع والهدايا ، فاطمأن في الموصل وحلب وباع مسعودا ، وكرس جهوده بعد ذلك لحرب الصليبيين .

وكان زنكي أثناء ذلك كله قد أقام في حلب رجلا من رجاله يسمى سوار ، أو أسوار ، وكان سوار جنديا جريئا وثيق الصلة بقبائل التركمان . فجمع منهم جمعا وخرج في ربيع سنة ٥٢٧ / ١١٣٣ ليهاجم أنطاكية ، فاستعاث الأنطاكيون بفولك ملك بيت المقدس . وخف الملك لعونهم حتى اذا وصل صيدا بلغه أن بونس

أمير طرابلس التحم مع التركمان في معركة عند جبل النصيرين وانهزم ولجأ الى حصن بارين (موتنفيران) ، فأسرع وأبعد التركمان وأتقذ بونس ، فأسره بفضله وأصبح هذا من توابعه ، وزوج ابنه رايموند من هوديرنا أخت الملكة مليزاند . ثم تقدم الى أنطاكية ودفع سوار عنها ، ودخلها دخول الظافر ، فأطاعه من فيها وأصبح بهذا رأس الامارات الصليبية الثلاث ، أى أن قواتها توحدت من جديد قبل أن يدخل الميدان عماد الدين زنكى .

أما في دمشق فكانت الأمور تسير من سيئ الى أسوأ . فقد خلف الأتابك ظهير الدين طغتكين ابنه تاج الملك بورى ، وكان فارسا نجدا ولكنه كان متهورا قصير النظر . وكانت بانياس من بلاده ، وكان زعيم الباطنية على أيامه ، اسماعيل العجمي ، قد استقر فيها وبسط يده عليها ، فسار بورى نحوه ، فما كان من ذلك المتآمر الضال اسماعيل العجمي الا أن عرض على بونس صاحب طرابلس وبوهيموند الثانى صاحب أنطاكية أن يسلم بانياس اليهما وانتقل هو الى بلادهما تاركا أحد أتباعه فى البلد ، وتبين بعد ذلك أن ذلك الرجل الخبيث كان مشتركا فى تدبيره السيئ مع ابن لتاج الملك بورى يسمى بهاء الدين سونج كان يتولى حماه ، ورجل آخر كان يتولى لبورى حمص واسمه قرخان ونفر آخر من

الباطنية في دمشق . ولكن أمر هؤلاء لم ينكشف الا بعد ذلك .. وعلى أى الأحوال فقد سار بونس وبوهيموند الثانى واستوليا على بانياس دون قتال . وكان سقوطها خسارة كبرى للمسلمين ، اذ أنها كانت تقع على رأس وادى الأردن وتشرف على ما حولها حتى بحيرتى طبرية والحولة .

ثم تقدم الصليبيان فحاصرا دمشق حصارا طويلا ، ولكن غزاة التركمان أصابوا من جندهما عددا عظيما ، وهطلت الأمطار مدرارا ، فأثرا العودة . واذا كانا لم يوفقا فى حملتهما عليها فانهما كسبا بانياس ، وهى ليست بالشئ القليل .

وبينما كان بوهيموند الثانى صاحب أنطاكية فى الطريق عائدا الى بلده عن طريق قليقية ، انقض عليه نفر من التركمان وقتلوه ، فأصبحت ابنته كونستانس وريثة للعرش ، وتولت أمها أليس أخت بولدوين الثانى الوصاية عليها . وأراد بولدوين الثانى أن يرغمها على الطاعة فسار الى أنطاكية وأجبر أليس على تسليم الوصاية له . ثم مات بولدوين الثانى وتولى فولك ، وكان من أمره مع أليس ما رويناه .

وكان زنكى فى أثناء ذلك يرتب أمور الموصل ويضم بلادها وأطرافها ، ويستعد لما عقد عليه العزم من تكريس حياته لتوحيد

العراق والشام ، وكانت هذه الفكرة قد اختمرت في ذهنه منذ خاض معارك الحرب المقدسة الى جانب مودود وآق سنقر البرسقي ، هداه الى ذلك حسه السياسي وايمانه وبعد نظره . وكان يرى أن الخطوة الأولى هي الاستيلاء على دمشق ، ولكنه كان يعرف أن أصحابها أشد لددا وبعدا عن الايمان بالوحدة من أن يقبلوا الدخول في أمره ، ثم ان لهم — منذ أيام طغتكين — علاقات بعيدة بالصليبيين ، فاذا هو شد عليهم ألقوا بأيديهم الى الأعداء وضاع الغرض المقصود ، فاستأنى في أمره ، ولم يشأ أن يعبر الفرات الا بعد أن يأخذ للأمر عدته .

لذلك قضى معظم شهور سنة ١١٣٠/٥٢٤ في الموصل ، ف قضى على المفسدين والواثين في سِنِجار والرجة ونصيبين وحران . وطلب اليه أهل حران أن يهاجم الرها وسروج ليقضى على تلك الامارة التي تهدد أملاكه ، ولكنه آثر التريث ، وكانت في طبعه أناة وتقدير لمواقيت أعماله ، فاكفى بمهادنة الرها وتأمين بلاده الجزرية منها ، ثم عبر الى الشام واستقر في حلب .

ولم يكد يستقر في حلب حتى كان تاج الملك بوري في طريقه الى بانياس ليستعيدها ، فنفر فولك ملك بيت المقدس الى مهاجمة دمشق ليرغم بوري على الارتداد ، وتخرج مركز بوري فاستغاث

بزنكى . وكانت دمشق منذ حين حجر الرعى وميدان المنافسة بين الصليبيين ومجاهدى المسلمين ، وكان صاحبها طغتكين يحاور ويداور ، ولم تكن فى نفسه نسمة من ايمان ، ولكنه كان ذكيا واسع الحيلة ، وقد عز على نفسه أن ينضم الى جبهة الجهاد ، وفضل أن يمد يدا للصليبيين ويذا لحلب والموصل ، وحفظ الامارة لنفسه بذلك ما عاش . فاستقرت عزيمة زنكى على أن يضمها الى الجبهة المجاهدة ، ودبر الأمر تديرا بعيدا ، فلم يكذب صريح تاج الملك بورى يبلغه حتى سار لعونه .

واجتهد بورى فى أن يؤكد العهد مع زنكى مخافة أن ينزعه عن بلده ، فسار زنكى فى حذر شديد ، يقدر لرجله موضعها قبل الخطو تقديرا طويلا . وكان بهاء الدين سونج بن بورى لا يزال فى حماه ، فأمره أبوه بأن ينضم الى زنكى . وكان هذا يعلم خيافته وتآمره مع الأعداء ، فعول على اقصائه من الميدان . فلما ذهب سونج ليلقاه على مقربة من حماه أحسن لقاءه حتى اذا اطمأن قبض عليه ، ثم أغذ السير فدخل حماه وملكها (سؤال ٥٢٣ / سبتمبر ١١٢٩) ، ثم تقدم نحو حمص لينزعها من يد صاحبها قرخان ، فحاصرها أربعين يوما دون نتيجة ، وأهل الشتاء فرأى أن يتركها الى فرصة أخرى ، وعاد الى حلب فى ذى القعدة ٥٢٣ / نوفمبر ١١٢٩ .

ثم خرج في صيف ٥٢٤/١١٣٠ واتجه نحو أنطاكية ، والتقى مع جندها في سلسلة من المعارك ولكنه لم يستطع أخذها ، فاتجه نحو حارزم وحاصرها ، فعرض عليه أصحابها مالا لينصرف عنهم ، وكانت الجراحات قد كثرت في جنده ، فأخذ المال وعاد الى حلب . وفي العام التالي (٥٢٦ / ١١٣١) اغتال الباطنية تاج الملك بوري ، وخلفه ابنه شمس الملك اسماعيل ، فتجددت آمال الصليبيين في الاستيلاء على دمشق ، وبدأ دى بور صاحب بيروت يتحرش بها ، ولكن شمس الملك اسماعيل أظهر من الاقدام مارء الأطماع عن بلده ، فقد أسرع نحو بانياس وانتزعها انتزاعا في المحرم ٥٢٧/نوفمبر ١١٣٢ ، فربع الصليبيون لفقدها ، فقد كانوا يعلقون عليها آمالا كبارا . ثم مضى الى حماه فاستخلصها من أيدي رجال زنكى بعد حصار قصير ، فتقدم فولك وهاجم حوران ، ورد عليه اسماعيل بالتوغل في أرض مملكة بيت المقدس فآثر الفريقان السلامة وعاد كل منهما الى بلاده .

وكانت عينا عماد الدين متجهتين نحو دمشق لا يكاد ينصرف عن السعى في ضمها الى بلاده ، اذ لم يكن من الميسور توحيد الجبهة الاسلامية الا اذا دخلت دمشق وما يتبعها حتى بانياس جنوبا في يده . وقد وجد في شمس الملك اسماعيل جرأة طمأنته

على مصيرها الى حين ، فقد كان هذا الشاب مقداما لا يرهب
 جموع الصليبيين مهما كثرت ، وكان يتبع خطتهم في الهجوم
 على بلادهم اربابا لهم . ففى أوائل سنة ١١٣٣/٥٢٨ خرج في
 جمعه وأوغل في أرض أنطاكية . وكانت شقيف أرنون بيد أمير
 عربى مهادن لأنطاكية داخل فى طاعتها ، فاتجه نحوه وهاجمه
 وانتزع منه البلد انتزاعا ردع الصليبيين ، ثم سافر فى جمع من
 التركمان وهاجم طبرية والناصره وعكا وعاث فى أرضها عيثا
 شديدا ، فربهه أصحاب أنطاكية وطرابلس وأقصروا عنه وعن
 بلده ، وكان زكى يعجب بشجاعته ، فتركه فى دمشق ، ولم ير
 تجديد السعى لأخذها .

غير أن شمس الملك اسماعيل كان فظا عاتيا ، وكانت يده ثقيلة
 على رجاله : يصادر أموالهم ويبالغ فى تعذيبهم لاستخراج المال
 منهم ، فأخذوا يدبرون عليه ، وأحس بحرج مركزه فى بلده فصالح
 الصليبيين وأصبح لهم حليفا ، فزادت تقمة الناس عليه واعتبروه
 خائنا مضيعا لأموار المسلمين . وكانت أمه زمرد خاتون فى مقدمة
 الناقمين عليه ، ويبدو أنه تهددها لما بلغه من علاقاتها مع رجل يسمى
 يوسف فيروز . ورأت الأم أن تعاجل ابنها قبل أن يعاجلها ، فجمعت
 أكابر البلد وحرضتهم على ابنها ، وكان لها ابن آخر يسمى

شهاب الدين محمود تحبه وترجو أن يصير الملك اليه ، وربما سعى اسماعيل في هلاك أخيه ، فأسرعت الأم وعقدت العزم على قتل ابنها . ولم يجد اسماعيل حوله معينا أو ناصرا ، فقد كان قد نفّر الجميع ، فأتجه في محنته الى زنكى وكتب اليه يطلب منه القدوم لتسليم البلد له ، فزادت مخاوف نحر من أكابر البلد ممن كانوا يتمتعون بالسلطان فيه ، وعجلوا بالعمل ، وأعانتهم الأم فرصدت نقرا من غلمانها فاغتالوا اسماعيل ، وتولى مكانه أخوه محمود تحت وضاية أمه . وكان زنكى قد تحرك نحو البلد ، فلما بلغه موت اسماعيل رأى أن متابعة السير نحو دمشق قد تجعل أصحاب الأمر فيها يسلمون البلد للصليبيين ، فعاد الى حلب وأفلتت من يده فرصة تحقيق حلمه البعيد .

*

وفكر زنكى في الاستيلاء على دمشق بوسيلة أخرى غير الحرب ، فأرسل يخطب زمرد خاتون الى نفسه على أن تنزل له عن حمص ، فقبلت ، وزفت اليه في شوال ٥٣١ / يونيو ١١٣٨ وأخذ حمص . وأراد الرجل أن يثبت حسن نيته ، فأقام مملوكا من مماليك بيت بوري يسمى معين الدين أنر نائبا عنه في حمص ، وضم اليه حصن بارين من أملاكه . ولكن أنر كان ثعلبا ماكرا ، فما هو

الا أن ابتعد زنكى عن حمص حتى عاد الى دمشق ، ودير اغتيال الأمير الشاب شهاب الدين محمود فقتل في أواخر شوال من نفس السنة ، ثم استقدم ابنا آخر لبورى هو جمال الدين محمود عامل بعلبك وجعله أميرا على دمشق . ومن ذلك الحين أصبح هذا المملوك معين الدين أنر محور الحوادث في دمشق . وقد آذى القضية الاسلامية آذى بالغا ، اذ أنه كان أنايا متخونا لا تحرك نفسه عاطفة ، وقد شقى به عماد الدين شقاء بالغا .

وكان أول ما فكر فيه أنر هو مخالفة الصليبيين ، فعول على ارسال سفارة اليهم ، واختار لذلك الكاتب الفارسى أسامة بن منقذ صاحب كتاب الاعتبار ، وكان أسامة — على طول باعه في الأدب — شخصية قلقة لا تستقر على حال . خرج الى الدنيا من بيت من العفاة تمكنوا من قلعة شيزر عند تفكك الدولة السلجوقية وحسبوا أنفسهم في زمرة الأمراء وأهل السلطان . ومنذ دخل الصليبيون الشام انضوا تحت لوائهم فلم ينهضوا لحربهم أو يتحدثوا مع المجاهدين عليهم الا لماما .

وكان أسامة كثير الفخر بنسبه ، ولكن ملكاته لم تكن تعينه على ادراك ما سعى اليه من المكائنة ، وقد اختلف مع عمه صاحب شيزر ، فتركها الى العراق ، ثم خدم عماد الدين زنكى تسع سنوات

دون أن يوفق الى شىء ، فانتقل الى دمشق ودخل فى خدمة معين الدين أنز ، وكان يده اليمنى فيما سعى اليه من الخلاف ثم التحالف مع الصليبيين ، وسفر له لديهم وعرض العروض المخزية التى سيأتى بيانها ، ثم زار مملكة بيت المقدس مرة أخرى فى صحبة أنز ، وكانت له صداقات متصلة مع رجال من فرسان المعبد (الداوية) أعدى أعداء المسلمين فى ذلك الحين ، ثم مضى الى مصر واشترك فى الفتن الكثيرة التى اجتاحت الدولة الفاطمية فى أواخر سنواتها . وبارح مصر بعد عشر سنوات ، ودخل فى خدمة نور الدين محمود نحو احدى عشرة سنة ، أصيب الشام خلالها بزلزال شديد خرب شيزر فيما خرب من البلاد وأهلك عددا كبيرا من أهلها تحت الهدم . ثم اعتزل عشر سنين فى حصن كيفا ، زار بعدها دمشق ليتقرب من صلاح الدين ، وظل فيها حتى توفى عام ١١٨٨/٥٨٤ وقد عمر ثلاثا وتسعين سنة .

ومع أن هذا الرجل عاش عمره كله فى ظلال محنة الصليبيين — فقد دخلوا الشام بعد مولده بأربعة أعوام وتوفى هو بعد حطين بعام واحد — الا أن عاطفته لم تحفره الى نصره قضية العروبة والاسلام الا فيما ندر . بل كان من المتعاونين مع الأعداء العاملين على تأييد سلطانهم ، وهذا هو الذى حبه الى المستشرقين.

فعلنوا بكتابه « الاعتبار » عناية لم يظفر بها مؤرخ يفضله عشرات المرات كابن الأثير — وكان معاصرا له — فنشره هارتويج ديرنبور وترجمه الى الفرنسية ، وكتب عنه فيليب حتى كتابا ضخما . وكان الزجل متظاهرا بالعلم لا يخرج من بلد الى بلد الا حمل معه على الجمال مكتبة بلغت في بعض الأحيان أربعة آلاف مجلد ، حتى أراحه الله منها فغرقت في البحر عندما أرسلها الى عسقلان ، عند مسيره من مصر . وأسلوبه — رغم هذه الآلاف من الكتب — ضعيف لا بلاغة فيه ، وشعره عادي لا يصل الى مرتبة الجودة ، وهو بعد لم يوفق في حياته في شيء طلبه .

أما الذي عرضه أسامة هذا على فولك باسم سيده أنر فهو أن تؤدى دمشق لمملكة بيت المقدس جزية قدرها عشرون ألف قطعة ذهبية كل شهر ، وتسلم قلعة بانياس في مقابل قيام فولك بدفع عماد الدين زنكى عن دمشق ، أى وضعها تحت حمايته ، وهو عرض لم تسمح به نفس أنر لأخيه في العقيدة عماد الدين ، ومع ذلك فقد عد أسامة ذلك نصرا سياسيا ، ثم عاد أسامة الى بيت المقدس في صحبة أنر حيث استقبلهما الصليبيون استقبالا كله برياء وتصنع . وقد وصف أسامة رحلته تلك في كتابه وصفا يقول المستشرقون انه حافل بالصور المشرفة التى تجلو لنا صفحة من الحياة الاجتماعية في بيت المقدس في ذلك الحين .

وقد أخلص أنر للصليبيين اخلاصا لم يبد منه لعقيدته واخوانه، فكان ذلك دافعا لنور الدين الى تخفيف الوطأة عن دمشق ، فقد خشى أن يؤدي تواني طلبه عليها الى أن يسلمها هذا المملوك العجوز العقور للأعداء ، واكتفى من ذلك الحين بضربات سريعة فيما حولها ينوش فيها ما يجاورها من أرض مملكة بيت المقدس . وقد أدى أنر لمملكة بيت المقدس بخيائه خدمة لم تحلم بمثلها ، فقد أمنت حدودها الشمالية واتسع وقت صاحبها للعناية بتحسين حدوده من ناحية مصر وتأمينها والاهتمام بالجزء الجنوبي من ممتلكاته ، مما أعان الصليبيين فيما بعد على غزو مصر وجعل بعضهم يفكر في المسير الى الحجاز . فأعاد فولك بناء عدد من الحصون على مقربة من عسقلان ، واهتم بأيلة وحصنها وابتنى قلعة الكرك شرقى البحر الميت الى الجنوب ، فأصبحت هى والشوبك درعا يقى بيت المقدس من هذه الناحية ، وفي قلعة الكرك هذه استعد رينو دى شاتيون لغزو الأراضى المقدسة الاسلامية أوائل أيام صلاح الدين ، مما جعل البطل الكبير يصمم على قتله بيده . عندما وقع فى أسره .

وهكذا أقام معين الدين أنر للملك فولك أن يقضى أواخر أيامه فى هدوء . وعندما كان وجود نفسه فى ربيع الثانى سنة ٥٣٨ /

نوفمبر ١١٤٣ اثر كبوة من جواده هشمت دماغه ، شعر بالراحة
اذ وهبته المقادير حليفا سفيها كهذا المملوك معين الدين أنر الذى
طالت حياته فى شقاء روحه وأهل دينه . وقد صارت أمور مملكة
بيت المقدس من بعده الى زوجه مليزاند ، فاختارت ابنه الأكبر
بولدوين شريكا لها فى العرش ، واختارت مستشارا لها صديقا مقربا
من أصدقائها هو منسى دى ايرج صاحب الرملة وزوج هوديرفا
بنت بولدوين الثانى ، فأسخط ذلك رجال البلاط ولكن الظروف
لم تسمح لهم بالاسترسال مع السخط الى مداه .

ذلك أن عماد الدين زنكى عندما أقصر عن دمشق مضى يفكر
فى وجهة أخرى يوجه اليها ضرباته ، وكان منذ حين ينظر الى امارة
الرها الموغلة فى أرض المسلمين ويدبر الرأى فى طريقة للقضاء عليها .
وقد كان حرصه على ضم دمشق انما هو تمهيد لجمع الكلمة وتأمين
حدوده الجنوبية والشرقية قبل أن يضرب ضربته هذه . وكان
الرجل طويل الفكرة كتوما لا يعلن عما ينتويه الا بعد أن يتخذ
الاهبة له كاملة . وقد أتاح له موقف أنر فرصة تجميع قواه وتوجيهها
وجهة أخرى ، وبينما هو يرسم الخطة ويعد العدة اذ هيأت له الأيام
ظروفا طيبة ومواتية لتحقيق أحلامه .

ذلك أن الامبراطور البيزنطى يوحنا كومنين الثانى توفى فى

رمضان سنة ٥٣٧ / ابريل ١١٤٣ ، وكان يوحنا داهية واسع المطامع ، غزاً قليقية وانتزعها من امارة أنطاكية ثم حاصر البلد بنفسه . وكاد ينتزعها من يد صاحبها لولا أن عاجله الموت ، وكانت جيوشه تنوش امارة الرها وآماله تحوم حولها . فلما مات خلفه أخوه مانويل وكان رجلاً قادراً سيكون له دور عظيم أيام نور الدين محمود ، ولكنه كان يؤثر الحيلة والسياسة ، وقد شغلته عن الشام أمور الامبراطورية أوائل حكمه ، فقطع فيه راي موند صاحب أنطاكية ، وبعث يطلب اليه الانسحاب من قليقية ، وتحالف مع جوسلين الثانى صاحب الرها ، وكان جوسلين منهوك القوى بسبب موالاة زنكى للحملة عليه ، اذ كان سوار — أو أسوار — نائب زنكى على حلب لا يكف عن توجيه الحملات الى بلاده .

وكانت سياسة زنكى هى التمهيد للغزو وانهاك قوى العدو بالحملات المتلاحقة ، فاهتم أعداؤه بتقوية حصون بلادهم ، وشيئاً فشيئاً تحولت الحرب مع الصليبيين الى حرب حصون ، وحرب الحصون — كحرب الخنادق — طويلة المدى ثقيلة التكاليف ، يفيد منها من كان أكثر مدداً وأسرع قدرة على تعويض الخسائر فى الأرواح ، وكان زنكى هو الأقوى من هاتين الناحيتين ، حتى لقد أنهك قوى جوسلين الثانى وأوقع اليأس فى قلبه ، فمال الى

الدعة وانصرف الى ما كان يميل اليه من شهواته ، وكان بطبعه ضعيفا أمام نزعات نفسه مسرفا فى نزواته ، مما كلفه أفدح الثمن بعد ذلك بقليل .

وقد وجد جوسلين الثانى أن لا خير فى محالفة صاحب أنطاكية فأثر موادة سورار وعقد معه هدنة ، فغضب صاحبه رايموند وتحول الأمر بينهما الى عدااء . ثم ان جوسلين أساء الى النصرى اليعاقبة — أى أهل البلاد — فى أنطاكية وأهان مقدساتهم ولم يعترف ببطريركهم أناناسيوس الثامن ، ثم غصبهم أثرا دينيا كانوا يتبركون به هو كف مار برسومة وكانوا يحفظونه فى كنيستهم الكبرى ، فامتلات قلوبهم حقدا عليه .

*

هنا أدرك زنكى أن فرصته للقضاء على البرها قد حانت ، فجمع قواده وجنده وخرج من الموصل متجها نحو ديار بكر فضمها الى بلاده ، وكان ذلك حيلة منه أراد بها أن يخدع جوسلين عن هدفه . وقد جازت الحيلة على جوسلين واطمأن باله اذ وجد خصمه يتجه شمالا بغرب بعيدا عن أراضيه ، فمضى الى تل باشر — وكانت مقامه المحبب الى نفسه — وأقام يلهو مع نفر من بطائنه من السوقة ما بين اسكاف وحائك وبزاز . وبينما هو منصرف الى لهوهم

إذ عطف زنكي غربا وأغذ السير وظهر أمام أنطاكية بجيش كثيف
تؤيده فرق من فرسان التركمان الكاسرة . وريع جوسلين للنبا ،
ولكنه لم يجرؤ على المسير للقاء زنكي ، فأرسل يستنجد برايموند
صاحب أنطاكية والملكة مليزاند صاحبة بيت المقدس .

أما راييموند فلم يلب له نداء ، وأما مليزاند فقد أسرعت بتعبئة
جيش قودت عليه صاحبها منسى ، واشتد الحصار على البلد ،
وتضخم جيش زنكي بمن انضم إليه من المتطوعة من شمال العراق .
وتولى الدفاع عن البلد هيو (هيج) أسقف لالين البلد يشاركه
ياسيل أسقف يعاقبتها ويوحنا أسقف الأرمن ، وقد مال بإسـ
يويوحنا من أول الأمر الى التسليم فرفض هيو واستمر في الدفاع .
وقد زعم وليام الصوري — مؤرخ اللاتين — أن هيو استبسل
في الدفاع وأتفق فيه من ماله ، والحقيقة أنه بخل بما عنده ، وكان
قد جمع المال وعدده . وفي ليلة عيد الميلاد ٢٦ جمادى الآخرة
سنة ١١٤٤/٥٣٩ انهار جانب من السور واندفع المسلمون داخل
البلد كالسيل ، فتهارب السكان في فزع نحو قلعة البلد ، فاذا هيو
قد أغلق أبوابها من دونهم ، فهلك منهم آلاف في فوضى الزحام ،
وكان هيو نفسه من بين القتلى . ومضى الجند يقتلون وينهبون ،
فأسرع زنكي بدخول البلد وكف يد الجند عما هم فيه ، ولم يستعمل

القسوة الا مع اللاتين ، أما الأرمن والسرمان والروم فقد أمنهم ،
اذ كان يعرف أنهم فى ضنك مع هذه الطغمة الباغية من الدخلاء .
وأسرع زنكى فاستولى على سروج ثانية الحصون التى كانت
لهذه الامارة شرقى الفرات ، ولم يبق من هذه الامارة الصليبية
غير حصون متناثرة غربى الفرات هى قل باشر ودلوك ومرعش
وعينتاب والبيرة . وظل جوسلين الثانى فى قل باشر ، ولكن امارة
أنطاكية الصليبية زالت من الوجود .

بهذا قضى عماد الدين زنكى على أكبر الامارات الصليبية فى
الشام وأخطرها بعد بيت المقدس ، وأدى بذلك خدمة لقضية
الوحدة الاسلامية لا تضارع الا بما فعله نور الدين وضلاح الدين
فيما بعد . فقد قضى على ذلك الوند الذى كان يمتد شرقى الفرات
حائلا دون الاتصال المباشر بين الموصل وحلب ، واتصل أترك
ايران بأترك آسية الصغرى ، وانقطع أمل المذبذبين من أرمن
هذه النواحي فى الكيد لجيرانهم والتدبير عليهم ، وتمهد الطريق
لعمل الحاسم .

ولقد طربت شعوب العرب والاسلام للنبا العظيم ، وجرت به
البشرى من بلد لبلد فارتفعت الهامات وطابت النفوس واشربت
الى الجهاد . أما الرؤساء وأصحاب الأمر فكأنما ساءهم النبا

وأوجسوا منه خيفة ، ولقد بلغ الخبر بغداد فما طرب له خليفة
ولا حركت البشرى به سلطانا ! بل ان شابا من أبناء السلطان
محمود بن محمد بن ملكشاه كان تحت وصاية زنكى — وكان هذا
يكرمه حتى كان لا يخاطب الناس الا باسمه — زين له الغرور قتل
قصير الدين جقر نائب زنكى فى الموصل ، ففس عليه نفرا من
علمائه فاغتالوه ، وكان ذلك بعد استيلاء زنكى على الرها بأيام ،
فساور نفسه الخوف من أن يكون ذلك فاتحة فتنة ، ولكن القاضى
تاج الدين يحيى الشهرزورى ، أخا كمال الدين الشهرزورى ، عالج
الأمر بحكمته وسجن الشاب ، وقبض الناس على الغلمان وفتكوا
بهم .

وبلغت الأنباء زنكى فأرسل زين الدين على بن بكتكين نائبا له
فى الموصل وعاد الى الغزو ، فجهز جيشا لحصار قلعة جعبر ، وكانت
ذات موقع عسكري خطير ، اذ أنها تقوم عند أوفق نقطة لعبور
الفرات من الشام الى الجزيرة الفراتية .

ومضى زنكى ليحاصر قلعة جعبر ، وكان رأيه قد استقر على
استنزال كل المستبدين من أصحاب البلاد داخل أملاكه « للحزم
الذى كان عنده والاحتياط » كما يقول ابن الأثير فى تاريخ
الأتابكة ، وأقام محاصرا للقلعة ، فبينما هو نائم فى خيمته ذات ليلة

اذ دخل عليه جماعة من غلمانه ، أوغرهم عليه خصومه فوثبوا عليه وطعنه كبيرهم طعنة نجلاء ، توفى منها فى اليوم التالى ، وكان ذلك فى السادس من ربيع الثانى سنة ٥٤١/ ١٤ سبتمبر ١١٤٧ .
بهذا اختفى من الميدان ذلك البطل الذى واصل جهاد مودود وابلغازى وآق سنقر البرسقى وبلك ومهد الطريق لنور الدين ، وقد أدركته المنية فى ميدان الحرب فحقت له الشهادة ، ولهذا يسمى عند مؤرخى العصر بأتابك الشهيد ، وقد ولد سنة ٤٧٧/ ١٠٨٤ وتوفى سنة ٥٤١/ ١١٤٦ ، أى أن عمره عند وفاته كان أربعاً وستين سنة هجرية ، وكان رجلاً مهيب الطلعة واسع العينين أقرب الى الطول .

ولم يكن زنكى محارباً قادراً فحسب ، وانما كان سياسياً بعيد النظر حسن التقدير لا يخطو خطوة الا بعد تدبير وحساب ، وكان يرسم خطته على مهل ويسير فى تنفيذها فى أناة ، ولم تكن له وجهة منذ تولى أمور الموصل الا جهاد الصليبيين ، وفى ميادين الجهاد معهم قضى أيامه . وكان يرى موالاة حربهم واغلاق راحتهم ، ولهذا فقد هباً قوة ضاربة عظيمة الكفاية وجعلها فى حركة دائمة ، فاما قادها بنفسه أو جعل عليها أحد قواده ، فأهلك قوى الصليبيين وأوقع الرعب فى قلوبهم ، ولولا عناد أصحاب دمشق لبلغ من

التوفيق أكبر مما بلغ ، فقد كانت خطته بعد دمشق هى القضاء على امارة طرابلس حتى يفصل أنطاكية عن بيت المقدس . ولم يكن يرى مهاجمة مملكة بيت المقدس حذرا مما يجر اليه ذلك من خوف الغرب الأوروبى ونهوض ملوكه للعدوان على الشام من جديد ، ولهذا فقد أثر الاستيلاء على الامارات الثلاث الأخرى ، وقد ورث ابنه نور الدين عنه هذه السياسة ، وكانت نتيجة جهوده ضعف مملكة بيت المقدس وقعودها عن مهاجمة دمشق أو توسيع رقعتها فى اتجاه الشمال .

وكان الرجل عارفا بشئون الجند خيرا بسياستهم ، وقد اجتمعت حوله ألوف كثيرة من العسكر ، بعضهم نظامية كالعرب والأتراك والأكراد ، وبعضهم غير نظامية كالتركمان والبدو ، وكان يجتهد فى أن يضبط أمور هذه الجموع بحكمة القائد الماهر . وقد كسب حب جنده أجمعين ، وتمكن من أن يسيرهم كيفما شاء ويضبطهم حتى فى أخرج الأوقات ، فعندما اقتحم جنده الرها وكادوا يأتون على ما فيها كف يدهم وحافظ على البلد لأن « تخريب مثله لا يجوز فى السياسة » كما قال . وكان على علم بشئون سكانها قبل أن يدخلها ، ولهذا فقد أكرم السريان والروم والأرمن ، لأنهم مواطنون فى الدولة الاسلامية الكبرى من زمان

طويل ، فهم اخوان مواطنون ، أما اللاتين فدخلوا استقروا مع المعتدين ، ولهذا فقد اشتد عليهم . وبلغ من اكرام زنكى للسريان أن زار كنائسهم المرة بعد المرة وأذن لهم بوضع الأجراس فى كنائسهم ، فعادت اليها بعد أن كان اللاتين قد حرموا ذلك عليهم . وكان زنكى رجلا تقيا مواظبا على الفرائض ، وكانت فيه عدالة تستوقف النظر ، حتى لقد غضب على رجل من كبراء أمراءه هو عز الدين أبوبكر الديبسى ، لأنه غضب دارا ليهودى وسكن فيها ، قال ابو شامة ان زنكى « نظر الى الديبسى نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ، ودخل البلد فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد ، ولم تكن الأرض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : ولقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرتة جعلوا على الأرض تبنيا ليقيموها ، ونصبوا الخيام ، وخرج من ساعته » .

وكان يرى أن الجندى ينبغى أن يظل جنديا ، ولهذا فقد كان ينهى جنده عن اقتناء الأملاك ويقول : « مهما كانت البلاد لنا فأى حاجة لكم فى الأملاك ، فإن الاقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فأى الأملاك تذهب معها . ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغضبوا أملاكهم » ،

واشارته الى الاقطاعات اشارة خير بالنظام المالى لعصره ، لأن الاقطاع كان يعطى مقابل القيام بخدمة يؤديها المقطع للدولة ، فهو أشبه بالراتب ، فاذا اعتمد الرجل على الاقطاع دام ولاؤه وحرص على بقاء الدولة ، أما اذا اقتنى الأملاك فقد استقل عنها ماليا وعاش على خراج أملاكه ، فقلت حميته وحرص على رعاية أمواله ، وقل اهتمامه بشئون الدولة .

وكان اذا فتح بلدا على أطراف أملاكه أنزل فيه جندا وجعل كل ما يستخلصونه من الصليبيين ملكا لهم ، فكان ذلك حافزا لهم على الجد فى الحرب وسد الثغور .

ونختم تقدير زنكى بعبارة رواها أبو شامة مقتبسا كلام ابن الأثير ، قال : « وأما شجاعته واقدامه فاليه النهاية فيهما ، وبه كانت تضرب الأمثال ، ويكفى فى معرفة ذلك جملة أن ولايته أحرق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب : الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها ، بيت سقماق (الأرتقى أصحاب ديار بكر) وركن الدولة داوود صاحب حصن كينا ، وابن عمه صاحب ماردين ، ثم الفرنج ، ثم دمشق . وكان ينتصف منهم ويغزو كلا منهم فى عقر داره ويفتح من بلادهم ، ماعدا السلطان مسعود ، فانه كان لا يباشر قصده ، بل كان يحمل

أصحاب الأطراف على الخروج اليه ، فاذا فعلوا عاد السلطان محتاجا اليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيكون الحاكم على الجميع ، وكان يداريه ويخضع له .

وهذه الملاحظة الأخيرة من ابن الأثير أدل على زكاة زنكى من كل بيان ، فقد كان سلطان السلاجقة قد وصل الى حال من الضعف تغلب عليه معها أمراؤه ، حتى كانوا يقبلون الرشا وينقلون الولايات من رجل الى رجل على هواهم ، فكان زنكى يرغمهم على الاعتراف بقدره بهذا الأسلوب . ولم يعد الصواب فيه ، فقد حدث أن عزلوه عن الموصل وحلب وهو فى عنفوان الجهاد وجعلوا مكانه ديبس بن صدقة ، فشغله ذلك عن العمل المثمر حيناً طويلاً . وبلغ من سوء هذه الحاشية أنهم لم يشبهوه قط فى ولاية الموصل وحلب ، بل كان أتابكا — أى مرياً — لاثنتين من أبناء السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، وكانا غلامين سفيهين ، فكان هذا البطل الجليل يعمل ويفتح باسمهما ، وقد رأيت ما فعله أحدهما بنائبة على الموصل نصير الدين جقر ، ولهذا فقد كانت له العيون والأرصاد فى مقر السلطان يطالعونه بما يتم فيه فى ليل أو نهار .

ظهور نور الدين .. والحملة الصليبية الثانية

والنصرُ دانٍ ، وخيل الله مقبلة ترجوا الشهادة في الهيجا ، وتفتنم
صائب الغمام عليهم والسهامُ معاً فادروا أئمة الهطالة الدائم
« محمد بن نصر القيسراني »

ظهر نور الدين محمود على مسرح الحوادث في وقت اشتدت فيه الحاجة الى مثله ، فوجد الميدان أمامه مهياً ليظهر مواهبه ، ومن نعم الله على صاحب المواهب أن يظهر في وقت يحتاج الناس فيه الى ما عنده ، وأن يجيء وكأنه دواء اشتدت حاجة المريض اليه ، فيعظم به النفع وتنقل مواهبه بالعمل وينشرح صدره بالتوفيق ، ويتصفو نفسه بتقدير الناس اياه . وكأين من عظيم أتى والزمان مدبر ، أو ظهر في زحمة من أمثاله ، أو أقبل وقد انقضت الحاجة إليه ، فأصبحت حياته في الحالات كلها وكأنها تطفيف لكيل ، وربما

وقعت المنافسة بينه وبين أضرابه فضاعت جهوده وجهودهم ، وأنت
البلايا من وجوه المكاسب .

وقد ولد نور الدين محمود في شوال سنة ٥١١ / فبراير ١١١٨ ،
وهو ثاني أولاد عماد الدين زنكى ، اذ كان أصغر من سيف الدين
غازى بقليل ، وكان لزكى ابنان آخران ستلقاهما بعد قليل ، هما :
قطب الدين مودود ونصرة الدين محمد . وقد تأثر بنو زنكى
جميعا بما كان لأبيهم من خلال وفضائل ، فكانوا جميعا من رجال
الجهاد وفرسانه ، على تفاوت في ذلك بينهم ، فكان نور الدين
أطولهم باعا في ذلك ثم يليه سيف الدين فنصرة الدين فقطب
الدين ، ولهذا كان نور الدين أحب أبناء زنكى إليه وأكثرهم
ملازمة له وتأثرا بإيمانه بضرورة توحيد البلاد وضم الصفوف
للخلاص من المعتدين .

وقد كان نور الدين مع أبيه في حصار قلعة جعبر عندما قتل ،
وكانت سنة اذ ذاك ثلاثين سنة هجرية ، وقد أُنقِص سنوات طويلة
مع أبيه في ميدان الحرب والجهاد ، وتعلقت نفسه بالسير على
آثاره . وبينما اتجه أخوه سيف الدين غازى نحو الموصل واجتهد
في اقرار أمره فيه ، مضى نور الدين نحو القاعدة الثانية من قواعد
ملك زنكى وهى حلب واستقر فيها ، ولم يكن ذلك مجرد مصادفة

يل هو اختيار طبيعي : اختار كل من الأخوين الجبهة التي سيعمل فيها . ويذهب المؤرخون الى أن الذي أشار على نور الدين بذلك وأعانه عليه كان أسد الدين شيركوه ، وربما كان ذلك صحيحا ، ولكنه ما كان ليتم لو لم يكن نور الدين قد أراده ، واستقرت نفسه عليه .

ومن حسن حظ نور الدين ، وحظنا معه ، أنه أتى في أوانه ، وجمع الخلال التي كانت الظروف تتطلبها من كل ناحية ، وتمكن هو من أن ينتفع بهذه الخلال على أحسن وجه ، فعمت البركة به وشمل النفع منه وزادت أعماله في قيمة جهود من سبقوه . فقد كان جميع من ذكرنا من أبطال الوحدة والجهاد محاربين قضوا حياتهم في ميدان الشرف يوالون الضربات على الأعداء كأنهم مطارق من حديد تزعزع أسسهم وتوهي بنيانهم ، فقضوا على المئات بعد المئات من أولئك المغامرين ، وأتوا على جيلهم الأول والثاني وألجأوا الثالث الى التحصن وراء ما بقي لهم من معقل ، وهدد عماد الدين زنكي ركننا من أركانهم الأربعة فهاضت النكبة جناحهم ووريعوا روعا شديدا واختبأوا وراء الأسوار ، وبعثوا يطلبون الأمداد والنجادات .

ودلت الدلائل على أن الأوان قد آن للخروج مرة أخرى من

حرب الحصون الى حرب الميدان ، وكان هذا من صالح العرب والاسلام ، لأن حرب الحصون مخربة للزروع والحقول قاضية على الزراع مؤذنة بالخراب . والمقاتل الذى يخرج لحصار حصن يبدأ أول ما يبدأ بالقضاء على المحاصيل فى الحقول وتدمير القرى الغزلاء واحراقها وقتل من فيها ، ويعلم الله كم من قرية فى الشام خربت وباد أهلها أو أسرع الناجون منهم الى أقرب بلد محصن يستترون وراء أسواره . ولم يقتصر الأمر على القرى بل تعداه الى المدن ، فخرّب منها ما قدر الأعداء عليه ، ولم يبق الا المراكز الرئيسية ذات المواقع العسكرية فقد زادت حصانة ومنعة .

واهتم كل من الجانبين بتقوية أسوار ما وقع له من هذه المراكز ولكنها هى الأخرى كانت تتهدم بتوالى الحصار وفعل آلاته ، من أبراج خشبية تنصب على مقربة منها ليقا تل المحاصرون من أعلاها . ويعمل النقابون على فتح الثغرات فى الأسوار من أسفلها ، وكباش هادمة ، وهى قطع ضخمة من الحديد تركب فى نهاية عمود ضخيم من حديد أو خشب ، ثم يوضع العمود على روافع ينزلق عليها ، ولا يزال الناس يجرونها ثم يصدّمون برأسها حائط الحصن حتى يتزعزع ، ومن نيران توقد خلف الجدران وتغذى بالخشب والزيت حتى تحترق الحجارة وتتفتت ، ومن سوائل محرقة من النفط

والكبريت يبل بها القطن والكتان وتدس في ثغرات السور فتتفجر
وتوسع الفتحات وربما هدمت جدار الحصن ، هذا الى المنجنيقات
الضخمة التى ترمى بقطع ثقال من الحجارة أو الحديد على السور
أو داخل البلد ، فتهدم الأول وتهيل البيوت على أهلها فى الثانى ،
وقد تلف الحجارة فى قطع من القماش المنقوع فى النفط وتوقد
وترمى فتحدث الحرائق ، وقد تلقى الخرق المتقدة نفسها وقد
كورت كورا كبيرة فتشرب النار حيثما وقعت ، الى غير ذلك من
آلات التدمير والتخريب .

وكلما تقدمت السنون بالحرب الصليبية زادت هذه الآلات
شدة وبأسا حتى أصبحت الحصون لا تكاد تقف أمامها ، وقد
رأينا كيف صمدت عسقلان أمام الحصار أوائل سنوات الصليبيين
فى الشام ، وسراها بعد قليل تستسلم بعد أسابيع . وكانت هذه
الحرب كلها تدور فى بلاد العرب والمسلمين ، فالخسارة كلها عليهم ،
وكان من الضرر البالغ أن تستمر الحرب على هذه الصورة ، وكان
لا بد أن تعود مرة أخرى حرب ميادين ، وللعرب فيها الكفة العليا
فى ذلك الدور الذى نحن بصدده ، فلديهم من الرجال أمداد
لا يملك الصليبيون مثلها ، وبلادهم بعيدة وتعويض من يموت
منهم عسير .

وقد كانت حرب الحصون أصلح ما تكون للفترة الماضية ، فإن أمر العرب كان مفرقا ، وما كانوا يستطيعون جمع الجموع الكثيرة لحرب الميادين . وكان التحصن وراء الأسوار — مع ضرره على الزمن الطويل — أقمن بإيقاف العدو أو تأخير تقدمه ، وأما الآن ، وقد هبت رياح الوحدة وأخذت الصفوف تتراص والجموع تتوالى ، فحرب الميادين والمواقع أجدى علينا وأقطع لنفس العدو وأسرع نذيرا بآخرفته .

ولم تقتصر حركة التجميع التى قادها من ذكرنا من الأبطال على جمع الرؤساء وما لديهم من قوات ، بل نهضت بهمم الناس ورفعت قواهم المعنوية فخرجوا الى الميادين أرسالا ، فما يكاد النفير يدعو لجملة حتى تنثال جموع المطوعة اثيالا ، بعضهم من أهل البلاد والبقية من أجناس اسلامية عفية من الترك والأكراد والتركمان ، وقد رأينا كيف تضخم جيش زنكى عندما قام بضربته القاضية للرها ، فقد بلغ من كثرة المتطوعين والمجاهدين أن كاد يعجز عن ضبط نظامهم ، وبعد لآى ما كف يدهم عن مدينة الرها يعد استيلائه عليها .

وعسى من يسأل : كيف أتيح لأولئك الصليبيين أن يصدوا هذا الصمود الطويل مع أن مجموع ما وصل منهم مع الحملة

الصليبية الأولى لم يزد على مائة ألف نصفهم من الحجاج والمتطوعين والنساء والأولاد ، أى من غير العسكريين ؟ كيف قتلت منهم ألوف بعد ألوف وبقيت منهم مع ذلك أعداد ظلت تحمى ما بأيديهم وتوجه الى المسلمين الضربات ؟ بل كيف وصلت قبيل قدوم عماد الدين زنكى الى السيطرة على الشام كله عدا مدينة حلب وما يتبعها ، فاذا بارحنا هذه البلاد القليلة لم نجد الا خاضعا لهم أو مؤديا لهم جزية ؟

والحقيقة أن الأمداد لم تتوقف عن الوصول من أوروبا وصقلية يوما ، وهذه الأمداد اما حملات صليبية مصغرة ، تقذف الى الشرق بألفين أو ثلاثة آلاف من المقاتلين دفعة واحدة ، أو جماعات من الحجاج المتحمسين تنضم الى الجيوش ، أو أفراد من الفرسان يخرجون الى بلادنا لتجريب حظهم والاشتراك فى غنائم الحرب الدائرة . ومن المفيد أن نقف هنيهة عند هذه الناحية ، فهى عظيمة الأهمية بالنسبة لما يلى من الأحداث :

لم يتوقف مدد المقاتلين من الغرب عاما واحدا ، فقد انفتح باب الشرق للمغامرين الأوربيين من كل نوع . صحيح أن عدد من وفد الى الشام من البارونات والفرسان الرسميين — أى الذين تدربوا تدريبا كافيا وحصلوا من الملوك والكنيسة على درجة فارس —

فيما بين الحملات الصليبية الكبرى كان قليلا ، ولكن فرسان الدرجة الثانية المعروفين في الحوليات الصليبية باسم السرجندية (وهو معرب لفظ سيرچانت) كان عظيمًا ، وكان تيارهم الى الامارات الصليبية متصلا منذ البداية ، وكان أولئك السرجندية يتولون أهم الأعمال الحربية تحت قيادة الفرسان والبارونات ، وكانت تنضم اليهم ، بصورة متصلة أيضا ، جماعات من المقاتلين .

وكان المفروض أن كل أوربي يصل الى الشام انما يصل للاشتراك في حرب المسلمين ، فيما عدا مهاجرة الجمهوريات الايطالية : البندقية وبيزا وجنوا وأمالفي ، فقد كانوا يقدون تجارا ويسكنون أحياء يقطعهم اياها الأمراء الصليبيون ، ويؤدون للامارات بهذا خدمات ذات أثر مباشر على مجهودهم الحربي . وكان أولئك الوافدون جميعا يقطعون الأراضي ليعيشوا على ريعها ، وسواء آكانت الأرض المقطعة ملكا لعربي هاجر أمام الزحف الصليبي أم بقي في مكانه ، فقد تقلت الادارة الصليبية ملكيتها الى المهاجر . وذلك كله يذكرنا بما فعله ويفعله الصهيونيون في فلسطين . وكما ظل الصليبيون في بلادنا قوة احتلال عسكري دون أن يضرب لهم في الأرض جذر أو يمتد لهم بين سكانها عرق ، فكان ذلك من أقوى أسباب ضعفهم ، فكذلك الصهيونيون

اليوم — رغم كل ما يزعمون من حق « تاريخي » فيما يحتلونه من البلاد — لا زالوا قوة احتلال عسكرية لا تربطها بالأرض التي تستقر عليها صلة أو بأهلها واشجة ، وذلك أيضا من أكد أسباب ضعفهم ، وسيكون في القريب من أقوى أسباب زوالهم وتحرير البلاد منهم باذن الله .

وقد أصهر عدد من مهاجري الصليبيين الى المسيحيين المحليين من الأرمن والسريان وغيرهم ، ولكن ذلك الصهر لم يكن واسع المدى ولا ظاهر الأثر . وانضمت اليهم كذلك أعداد من شذاذ الترك والتركمان في نواحي آسية الصغرى — وكانت الدولة البيزنطية قد سبقتهم الى ذلك ويسمون في تواريخها بالتركوبولى — ولكن الصليبيين لم يعتبروا التركوبولى جندا مساويا لجندهم ، بل زعانف وأذنا ، على أنهم أدوا لهم مع ذلك خدمات جليلة .

ولا يستطاع احصاء أعداد الفرسان والسرچندية الذين هاجروا الى الشام وانضموا الى قوات الصليبيين ، ولكننا نستطيع القول بأن مئات منهم كانت تصل كل عام ، بل وصلت في سنة ١١٠١/٥٩٤ دفعة كبيرة من بضعة آلاف ، هلك الكثيرون منهم في الطريق ، وفي عام ١١٢٩/٥٢٣ ، وبعد اعتراف الكنيسة بهيئة فرسان المعبد (الداوية) سافر رئيسهم هيو دى پاين وطاف بانجلترا واسكتلندا

وفرنسا وعاد معه بضع مئات من خيرة فرسان الغرب الأوروبى .
وحدث مثل ذلك بعد أن تحولت هيئة الرهبان المعروفة باسم
رهبان النزل (هوستال أو هوسپتال) الى فرقة دينية عسكرية
تشارك فى حرب المسلمين . وقد تم هذا التحول فى تاريخ تلك
الجماعة على يد فارس فرنسى يسمى رايموند دى ليوى فى
عام ١١١٨/٥١١ ، فقد ضم اليها قطعة طيبة من الفرسان ، انضافت
اليهم جماعات أخرى وفدت من الغرب استجابة لدعوة البابا ،
الرئيس الأعلى للهيئة . وتعرف الجماعة عند العرب باسم الاستبارة ،
وكان لها ، الى جانب الداوية ، أبعاد الأثر فى الحروب مع المسلمين ،
وخاصة أيام نور الدين وصلاح الدين .
ولنصف الى ذلك كله من كانوا ينضمون الى جيوش الامارات
الصليبية من الحجاج وكانوا آلافا كثيرة ، وكانوا يقاتلون فى
حمية المتحمس لدينه ، ولهذا فقد كان لهم أثر واضح فى الصراع
بين الصليبيين والعرب على مصير الشام .

*

ظهر نور الدين فى الميدان وقد بلغ الصراع بين الاسلام
والنصرانية فى حوض البحر الأبيض مداه ، فقد كانت المعارك
دائرة على أرض الأندلس بين مملكتى ليون وقشتالة وامارة

قطلونية من ناحية ، والأندلسيين والمرابطين فالموحدين من ناحية أخرى . فبعد أن قام المرابطون بدورهم المجيد وأوقفوا تقدم الاسبان من الشمال باتتصارهم فى موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦/٤٧٨ تسلم الموحدون الراية منهم من منتصف القرن الثانى عشر الميلادى تقريبا — وهو نفس الوقت الذى ظهر فيه نور الدين — ومضوا يذودون عن حصى الاسلام فى قوة وخمية ، وظهر من سلاطينهم مجاهدون أدوا لقضية العروبة والاسلام أجل الخدمات : عبد المؤمن بن على وابنه أبو يعقوب يوسف ، وحفيده يعقوب بن يوسف المعروف بالمنصور ، وهو صاحب النصر المدهى على قوات قشتالة وليون عند الأرك فى شعبان سنة ٥٩١/يوليو ١١٩٥ ، أى بعد انتصار حطين بثمانى سنوات .

ولو أن قوات يعقوب المنصور اتحدت مع قوات صلاح الدين ونازلت أوربا صفا واحدا لتجا الأندلس الى الأبد ، ولكان لتاريخ الغرب الاسلامى اتجاه آخر . ولم ينتبه الى ذلك الا عبقرى الاسلام صلاح الدين ، فقد أرسل سفارة الى يعقوب المنصور يعرض عليه ضم القوى ومنازلة الأعداء جبهة واحدة ، ولكن يعقوب أخذته العزة وغضب لأن كاتب الرسالة لم يخاطبه بأمير

المؤمنين ، ورفض التعاون فكانت النتيجة أن كسر الاسبان ابنه محمدا الناصر كسرة قصمت ظهر الاسلام الأندلسي وظهر دولة الموحدين في موقعة العقاب التي تعرف باسم لاس نافاس دى تولوزا عام ١٢١٢/٦٠٩ . وربما كان من المفيد هنا أن نذكر اخوتنا عرب المغرب المعاصرين بهذه الصفحة المحزنة من تاريخ الاسلام ، فان بعضهم يزعم أنه في الغرب وأنه أقرب الى أوروبا ، وأن له — نتيجة لهذا — اتجاهات تاريخيا آخر يختلف عن تاريخ عرب المشرق ، بل يذهب بعض رؤسائهم الى معاداة القومية العربية ورائدها جمال عبد الناصر — صلاح الدين عصرنا — فيجنون بذلك على بلادهم جناية كبرى ، ويؤخرون تقدم ركب الاسلام الزاحف ويضيعون السنين ، ونحن أخرج الى يوم !

ومن أعجب العجب أن شعوبهم تدرك ذلك وتمد يدها الى بقية شعوب العرب ، ولكنهم لا يصغون الى صوت الشعوب ، ناسين أن صوت الشعوب لا ينطق عن الهوى بل هو نور وحق ، والنور نار تحرق الضال والعاث والمفسد ، والحق يحرق الباطل ويظهر عليه ، والعروبة هي الأساس الوحيد السليم الذي يمكن أن تعتمد عليه أمة عربية في جهادها نحو التقدم واستكمال التحرر .

والقومية العربية هي الدعوة الوحيدة الكفيلة بجمع شعوب العرب على صعيد واحد ، وتقوية جبهتها والوصول بها الى تحقيق الأمنى المرجوة ، وقد رأينا فى هذا العرض كيف كان مصير المتخاذلين والمنصرفين عن الوحدة ، الذين حسبوا أنهم يستطيعون أن يقفوا وحدهم أمام الضغط الصليبي ومطامعه ، وسنرى فى الفصول التالية مصير معين الدين أنر وأصحابه من المعارضين للاتحاد مع جبهة الجهاد ، ومصير الفاطميين الذين صور لهم الوهم والأناية أنهم يستعينون بالعدو على اخوانهم . ونحن انما نكتب هذا التاريخ للعبرة ، وبصيرة المعاصرين بما كان من أمر السالفين من أجدادنا مع السالفين من أجداد أعدائنا اليوم ، فلعل الذكرى تنفع المؤمنين !

وفى صقلية كانت راية الاسلام قد انطوت على يد النورمان فى عام ١٠٩١/٤٨٤ ، ثم تطلع ملكهم رجار الى غزو تونس وأخذ يناوش أميرها ، ولم يخطر ببال هذا الأمير أن يمد يده الى اخوانه المجاهدين فى الشرق ، بل وضع نفسه فى عام ١١٣٤/٥٣٨ — أى فى أواخر أيام عماد الدين زنكى — تحت طاعة نورمان صقلية ، وبادر هؤلاء فاحتلوا جزيرة جربة ، مفتاح تونس ، ثم استولوا على

طرابلس سنة ٥٤٠/١١٤٦ ، بعد سقوط الرها بستين ، فلما تم لهم ذلك تنبهوا الى ما لم يتنبه اليه أمير تونس العربي — وتطلعوا للاشتراك في المعركة الدائرة في الشرق ، وكان لهم دور خطير في الحرب الصليبية الثانية .



تردد نبأ سقوط الرها في غرب أوروبا فهز عواصمه هذا عنيفا ، واجتمعت مليزاند ملكة بيت المقدس بالمسؤولين في اماره أنطاكية ، واستقر الرأي على ارسال وفد على رأسه هيو أسقف جبالة الى البابا يوجينيوس الثالث لكي يدعو الى حملة صليبية جديدة . وقد وصل الوفد الى فيتربو في ايطاليا حيث كان البابا يعيش مبتعدا عن روما ، ولم يكن يوجينيوس الثالث في موقف يسمح له بأن يكرر ما فعله أربان الثاني ، فقد كان الناس قد تحزبوا عليه في روما وأبعدوه عنها ، ولكن علاقاته كانت طيبة بملكين من ملوك أوروبا هما كونراد ثون هوهنشتاوفن ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، فوجه اليهما منشورا بابويا يدعوهما الى الخروج مع فرسانهما للزيادة عن الكاثوليكية في الشرق .

وقد رحب لويس السابع بطلب البابا ، فقد كان معظم أهل الامارات الصليبية الثلاث الباقية فرنسيين ، ودعا أفضاله (أى أتباعه) الراغبين فى الخروج معه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من ترتيب ، ولكن كبار الأفضال لم يستجب منهم أحد ، فدعا الى اجتماع آخر يعقد بعد ثلاثة شهور ، ولجأ الى علم من أعلام الدين فى مملكته كان له من السلطان على الناس فوق ما للملك ، وهو برنار قس كنيسة كليرفو ، وكان رجلا ذكيا فصيحاً كاتباً لازالت كتابته تقرأ فى أوروبا الى اليوم ، ولعل رجلاً من رجال الدين الغربيين — بعد جريجورى السابع وأربان الثانى — لم يؤد للكنيسة الكاثوليكية والبابوية ، بل لعالم السياسة فى غرب أوروبا ما أدى هذا الرجل ، وهو فى طليعة رجال أوروبا فى القرن الثانى عشر . ولقد رفعته الكنيسة فيما بعد الى مقام القديسين ، فصار يعرف بسان برنار . ولم تكن هذه أول مرة يتصل فيها بشئون الصليبيين ، فقد سبق أن كتب بنفسه قانون جماعة فرسان المعبد (الداوية) ، ولم يكده لويس السابع ويوجينيوس الثالث يطلبان اليه القيام بالدعوة لحملة صليبية جديدة حتى أسرع ووضع فى هذا العمل كل قواه .

وكما وقف أربان الثانى على باب كنيسة كليرمون يدعو للحرب الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة ، وقف سان برنار خارج كنيسة فيزيلييه فى ٣١ مارس سنة ١١٤٦ (١٦ شوال ٥٤٠) يدعو للحملة الصليبية الثانية ويفرغ بلاغته على قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل نارا ، فما وافى المساء حتى كانت ألوف بعد ألوف قد قررت الخروج الى الشرق لتصب النعمة على رؤوس العرب جزاء لهم على ما جردوا عليه من استعادة جزء من وطنهم المسلوب . وأمام الحماس الشعبى اندفع النبلاء يعلنون رغبتهم فى الخروج الى الشرق ، وحفل سجل الحملة بأسماء أكنات وبارونات من أعتى رجال الحرب فى زمانهم : روبرت كونت درو أخو لويس السابع ، وألفونسو چوردان كونت تولوز (ولد فى فلسطين) ، وجيوم كونت نيثير ، وهنرى وريث كوتتية شامپانيا ، وتيرى دى فلاندر (سبق له الاشتراك فى الحرب فى الشرق وهو صهر ملىزاند ملكة بيت المقدس) ، وأماديوس دى ساقوا عم الملك ، وغيرهم من كبار رجال مملكة فرنسا ، واشترك من كبار رجال الدين أساقفة لانچر وأراس وليزييه ، وبلغ من تراحم أصاغر الناس على الاشتراك أن خلت قرى كاملة من رجالها كما قال سان برنار فى خطاب بعث به الى البابا .

ومن فرنسا اتجه سان برنار الى ألمانيا — كما فعل أربان الثاني من قبل — وهناك ألقى كلامه الملتهب على جماعات الجرمان المتعطشة أبدا للدماء ، وبلغ من حماس الناس أنهم لم يصبروا حتى يجيء أوان الخروج ، فنفسوا عن أنفسهم بمهاجمة اليهود ، فقتلوا منهم عددا عظيما وأحرقوا دورهم ونهبوها ، وقاضت دماؤهم في كولونيا وماينتس وثورمز آنهارا .

وهذه ثاني مذبة لليهود نصادفها في تلك الفترة القصيرة من التاريخ ، ولو ذهبت تقلب صفحات التاريخ الأوروبي لوجدتها مزرقة بدماء اليهود ، بينما عاشوا في ظلال الاسلام آمنين لم يرعهم شيء من ذلك . ومن عجائب النفس الأوروبية أنها تزعم اليوم أنها تتصدى لحماية اليهود وانصافهم منا ، نحن العرب ! ولو أننا سلطنا مع اليهود مسلحهم لما بقى على ظهر الأرض حي ينسب بالشرعية الموسوية ، فان بلادنا كانت على طول العصور الوسطى حصنهم ومأواهم ، ومن هذا المأوى خرجوا في مطالع العصر الحديث ليجمعوا المال ويؤثلوا لأنفسهم جاها وسلطانا ، ثم عادوا يجزوننا عن احساننا بما ترى ، فلو أنك بحثت في صفحات التاريخ عن أحسن احسان قوبل بأسوأ اساءة لما كان الا ذاك . ولكننا لا نأسف على خير أسديناه ، وما هي الا طبائعا ، والكريم على أعراقه يجري ..

اتجه ملك ألمانيا كونراد هوهنشتاوفن عن طريق البر بجيش جرار يحاول المؤرخون المحدثون التقليل من عدده ، ويبالغ القدامى في تكثيره حتى ليلغون به الى المليون ، ونكتفى من هؤلاء وهؤلاء بالقول بأن الجيش كان بضع عشرات من الألوف لا تصل الى المائة ولا تقل عنها الا سيرا ، وكان في الجيش ملكان من أتباع ملك ألمانيا هما فلاديسلاف ملك بوهيميا وبوليسلاف الرابع ملك بولندا ، وكان في الجيش عدة من النبلاء وكبار الفرسان أكبرهم فردريك دوق سوابيا ، وخرج معه كذلك نفر من كبار رجال الدين يقود كل منهم فرقة من فرسان ناحيته مثل أساقفة اللورين وتول وميتس .

وكانت سن كونراد قد ناهزت الخمسين ، فعهد في أمور القوات التي معه الى ابن أخيه فردريك دوق سوابيا الذي ذكرناه . وقد ارتكب الجيش الألماني أعمال النهب والقتل التقليدية للجيش الصليبية في البلاد التي مر بها بعد وصوله الى صوفيا ، حتى لقد أحرقوا ديرا بمن فيه من الرهبان بجوار أدرنه ، وخافهم الامبراطور مانويل كومنين على عاصمته فأمرهم أن يعبروا الى الشاطئ الآسيوي بعيدا عنها ، فرفضوا ودخلوها في ربيع الأول ٥٤٢ / سبتمبر ١١٤٧ .

وخرج ملك فرنسا بمن معه بعد الألمان بشهر — في يونية سنة ١١٤٧ (ذى الحجة ٥٤١) — وكانت عدة الجيش الفرنسى تقل يسيرا عن الألمانى ، واصطحب لويس السابع زوجه اليانور دى آكويتين ، وكانت ابنة أخى رايموند صاحب أنطاكية ، وصحبها نفر من النobiles رأين مراقبة أزواجهن ، وكان فى الحملة ايثيرارد دى بار رئيس هيئة فرسان المعبد مع نخبة مختارة من الفرسان جمعهم للاشتراك فى هذه الحملة . وكان لويس السابع فى السادسة والعشرين من عمره ، ولم يكن على جانب كبير من قوة الشخصية ، ولكن جيشه كان أحسن نظاما وأقوى عدة من جيش الألمان . وقد وصلوا هم الآخرون القسطنطينية عن طريق البر ، بعد وصول الألمان بأسابيع .

واجتمع الملكان بامبراطور الدولة البيزنطية مانويل كومنين ، وانتهى الأمر بعد مناقشات لم تخل من مشادات وخلاف الى وضع خطة العمل ، وبدأ سير الحملة الصليبية الثانية نحو أرض المسلمين يتقدمها الجيش الألمانى . ولا شك أن هذه الحملة كانت أحسن عدة وأكثر عددا من الحملة الأولى ، ثم انها كانت مقبلة على بلاد للصليبيين فيها امارات وجيوش ، فكانت حقيقة أن تفوز بأضعاف ما فازت به الأولى .

ولكن الأولى نزلت بلادا مفرقة وقلوبا متنافرة ، فما أسرع ما كسبت النصر ، أما الثانية فقد أنت وجانب كبير من العالم الاسلامى متحد تحت راية نور الدين محمود ، وقد أزال زنكى امارة الرها وحصى ظهر شمال الشام بفتحه المبين ، وكان يقود القوة الاسلامية رجل مجاهد مؤمن نذر نفسه لقضية الوحدة والاسلام هو نور الدين ، وسرى بعد قليل ما سيصير اليه أمر هذه الحملة الجرارة يقودها ملكان وعشرات من كبار الأمراء والفرسان والنبلاء والأساقفة ، فاذا وصلت الى نهايتها ، فاعلم أن ذلك كله كان بنعمة اتحاد العرب والمسلمين .

*

كان من الممكن أن يقع الخلاف على ملك عماد الدين زنكى بعد وفاته ، فقد كان له أربعة من الأولاد كل منهم جدير بأمر المملكة ، ولكن أكبرهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود أوتيا من الحكمة ما هداهما الى الاتحاد ، فاتفقا فى اجتماع عقدها على أن تكون الموصل وما يتبعها شرقى نهر الخابور — أحد نهيرات دجلة — لسيف الدين ، وحلب وما يتبعها شرقا من أملاك أييهما لنور الدين .

وكانما تدخلت الأقدار لتجعل القسمة بينهما على هذا النحو ،

فان سيف الدين ورث مع القسم الشرقى للمملكة مشاكلها المحلية والآسيوية الخالصة : تأمينها من مطامع السلطان السلجوقى والخليفة ومؤامرات بلاطيهما ، ثم حماية حدودها الشرقية من غارات أصحاب الأمر فى فارس ، وثغورها الشمالية من عدوان أتراك آسية الصغرى وآل دانشمند والبيزنطيين ، فى حين ورث صاحب القسم الغربى - نور الدين محمود - الجهاد مع الصليبيين .

وقد كان كلا الأخوين مؤهلا لما وجهته الأقدار نحوه ، فكان سيف الدين غازى صاحب سياسة وأناة يزينهما اقدام يكف عنه طمع الطامع ، وكان نور الدين جياش القلب بالايمان يرى نفسه مجاهدا لم يخلقه الله الا لجمع كلمة المسلمين واخراج الأعداء من ديارهم ، وكانت فى طبعه رقة كسبت له نفرا من أعدائه كانوا قد نفروا من عنف أييه عماد الدين زنكى ، وكان الى ذلك عفيفا قنوعا اذا قرأت سيرته حسبت أنك أمام مرابط مجاهد بسيط لا أمام سلطان له جاه وجيوش ، وهذا طرف من خلاله وشيمه ، وندع باقىها لتستبينه فى أطواء ما سيلي من الصفحات .

ومن غريب الأمر أن القسمة بين الأخوين كانت عادلة فى كل شيء ، فمال فريق من رجال عماد الدين زنكى الى سيف الدين ،

ومال نفر آخر الى أخيه ، وفى مقدمة رجال سيف الدين الوزير جمال الدين محمد بن على والقائدان صلاح الدين محمد بن أيوب الياغسيانى وعز الدين أبو بكر الديسى ، وانضم الى نور الدين القادة سيف الدولة سوار ، ثم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وأسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الداية ، وكلهم كانوا من فحول الرجال وكبار القادة وأصحاب الرأى والاخلاص الشديد للإسلام والمسلمين .

وقد جنى الأخوان أول ثمرات الاتحاد عقب وفاة أبيهما بقليل ، فقد طمع المحيطون بمملكة عماد الدين فى الفوز بما يستطيعون الفوز به ، حاسبين أن الأخوين سيتحاربان ويفوزون هم بما يريدون ، فأسرع معين الدين أنر صاحب دمشق وأخذ بعلبك وأرغم صاحب حماه على أن يدخل فى طاعته ، وتقدم صاحب ماردين فاستولى على بعض الحصون المتاخمة لبلاده .

وتشجع الصليبيون أيضا ، فتقدم رايموند صاحب أنطاكية واكتسح بلاد نور الدين حتى وصل الى أسوار حلب ، وظن جوسلين الثانى أن الفرصة واثته ليسترد الرها ، فجمع جنده وسار مغذا نحوها ، وتواطأ معه نفر من الأرمن من سكانها ، وتمكن من دخولها فى ربيع الثانى سنة ٥٤٢ / أكتوبر ١١٤٧ ، ولكنه عجز

عن الاستيلاء على قلعتها ، وكان نور الدين غازيا في نواحي أنطاكية ، فكر بأقصى ما يستطيع من سرعة حتى وصل الرها في الثاني من نوفمبر ، واقتحم البلد ففر جوسلين وتبعه المسلمون ونازلوه وأوقعوا به هزيمة دامية قتل فيها من أنجاد جيشه بولدوين صاحب مرعش وقيسون وجرح جوسلين في رقبته فلجأ الى سميساط ، وتحصن فيها .

وعاقب نور الدين من خانوا المسلمين من أرمن الرها فقتلهم عن آخرهم ، وخاف بقية أهل البلد من المسيحيين على أنفسهم ، فغادروها . وقد كان نصارى الشرق يفخرون بالرها ويرون أن كنيستها أقدم كنائس النصرانية في الشام والموصل ، ففضى جشع جوسلين الثاني على هذه الذكرى ، وخلا البلد من النصرانية بعد ذلك .

وبعد ذلك بقليل أتاحت لنور الدين الفرصة ليلقن أصحاب مملكة بيت المقدس درسا أقسى مما لقنه لجوسلين الثاني صاحب تل باشر : ذلك أن أرمنيا حديث عهد بالاسلام يسمى ألتونتاش كان يتولى لمعين الدين أنر حصن بصرى وصرخد من أرض حوران ، فحدثته نفسه بالخروج عليه ، فاتصل بمملكة بيت المقدس مليزاند وعرض عليها تسليم القلعتين اليها اذا هي اعترفت به حاكما على

اقليم حوران كله ، وكان الكثيرون من أهل حوران نصارى
أرثوذكسيين ، فحسبت مليزاند ورجالها ان ذلك يتيح لهم الاستيلاء
على اقليم حوران كله .

وكان معين الدين أنر كما نعلم قد صافى مملكة بيت المقدس
وعاهد أصحابها ، حاسبا أن ذلك ينفعه في صراعه العقيم مع اخوانه
في حلب والموصل ، ولكنهم لم يكادوا يرون فرصة الاستيلاء على
جانب من بلاده حتى بادروها في نهم الجراد الى الحقل الأخضر ،
فأرسل يحنج على تصرف أصحاب بيت المقدس ، وماذا تجدى
الاحتجاجات ؟ فعرف ذلك العجوز الماكر أنر أن الله حق ، والتفت
نحو نور الدين يستجير به ، فعباً نور الدين جيشه وخرج معينا له،
مؤكدًا أنه ما أتى الا لنصرة الاسلام وأن لا مأرب له في دمشق ،
وكان صادقا فيما قال ، لأنه كان يعلم أن مصيرها اليه دون عنف ،
وكان من مبادئه التي سار عليها ألا يعنف على أخ مسلم ، وألا يضم
الى بلاده بلدا لمسلم الا بالمحبة والرضا .

وسار نور الدين ومعين الدين أنر نحو بصرى فسلمها اليهما
أهلها ، وبلغ الصليبيون استسلامها فعادوا بخفي حنين وفرسان
المسلمين يتخطفون من قدروا عليه من عسكر ساقتهم وجناحيهم ،
فلم يصلوا الى بيت المقدس الا وقد هلك منهم مئات ، واذا

بذلك الخيـث معين الدين أنـر يرسل اليهم طالبا تجديد المحالفة
 حذرا من نور الدين ! وقد علم هذا الرجل المخلص بالأمر ، ولكنه
 تظاهر بأنه لا يعلمه ، وترك دمشق لصاحبها حتى يبعث الأمان فى
 قلبه ، ومضى يهاجم حصون امارة أنطاكية ، فاستولى منها على
 أرتاح وكفر لاثا وبَصْرَفُوت (سنة ١١٤٧/٤٥٢) .

وعلى اثر ذلك ملك الرعب الصليبين جميعا من نور الدين ،
 وعلموا أنهم أمام رجل لا يقل عن أبيه عماد الدين زنكى . كانت
 سنه اذ ذاك تسعا وعشرين سنة ، ولكنه أوتى من الحكمة ما لا
 يتيسر للشيوخ ، وكانت موارده أقل بكثير من موارد أبيه ، فقد
 كان يملك نصف دولته فحسب ، ولكنه عرف كيف يدبر الأمر ،
 ويصل بالقليل الذى كان لديه الى أبعد مما وصل اليه أبوه .

فى هذه الأثناء كانت طلائع الحملة الصليبية الثانية
 قد دخلت بلاد الاسلام ، وكان الجيش الألمانى ، وعلى رأسه الملك
 كونراد فى مقدمة الداخلين ، وكان جنده قد أخافوا مانويل كومنين ،
 الامبراطور البيزنطى ، وحفزوه على أن يكون على الحذر منهم ،
 فلجأ — من باب الاحتياط — الى موادة مسعود سلطان سلاجقة
 آسية الصغرى ، وعاصمته قونية ، فعقد معه هدنة ، وساعات العلاقة
 بين مانويل كومنين وبين الألمان نتيجة لهذا واعتبروه خائنا .

وقد حدثت أمثال هذه الخلافات بين البيزنطيين والصليبيين أثناء الحملة الصليبية الأولى ، ولكنها لم تؤثر في تقدمهم لأن المسلمين كانوا أكثر منهم اختلافاً وتفرقا ، أما الآن وجبهة الاسلام موحدة والقلوب مؤتلفة فقد أتيح لهم الانتفاع بما وقع بين العدو من خلافات .

وأول ما أفاد منه المسلمون من اختلاف رأى العدو أن مانويل كومنين نصح كونراد بالآلا يخترق آسية الصغرى في طريقه الى أنطاكية ، بل يسير مساحلا حتى تستطيع الأساطيل البيزنطية أن تقدم له العون اذا حاجه الأمر اليه ، فأساء كونراد الظن بالنصيحة ، وأوغل في آسية الصغرى حتى وصل نيقية في ربيع الثانى سنة ٥٤٢/ أكتوبر سنة ١١٤٧ ، وهناك أمر قائده أوتوفون فرايسنجن

بأن يتقدم بكتلة الجيش نحو ديريليوم (اسكى شهر) على أن يلحق هو به على مهل . فلما كان أوتو على مرأى من ديريليوم انقضت عليه قوات المسلمين وأنزلت بجيشه مذبحة كبرى ، وأسرع كونراد لنجدته فوجد أنه هو نفسه سيهلك بمن معه ، فكر هاربا على الساحل يطلب السلامة .

في هذه المعركة (أوائل جمادى الأولى ٥٤٢ / أواخر أكتوبر سنة ١١٤٧) هلكت تسعة أعشار الجيش الألماني وغنم المسلمون

غنيمة بلغ من ضخامتها أنها ظلت تباع في أسواق المسلمين حتى قلب فارس شهورا متتابعة ، ولم يكسب المسلمون هذا النصر الا بفضل ما سرى في كيانهم من روح معنوى عظيم نتيجة للاتحاد وتآلف القلوب ، وقبل ذلك بخمسين سنة أبادت الحملة الصليبية عند ديرليوم نفسها جيش قلعج أرسلان ومهدت السبيل لدخول الشام. ودخل الفرنسيون آسية الصغرى بعد ذلك بقليل ، فوجدوا الجو مكفهرًا : مانويل كومنين ساخط على الألمان ، وشائعات تحالفه مع المسلمين تملأ الأسماع ، ثم هذه الهزيمة القاصمة التى حلت بمن سبقوهم ، ووقع الخلاف بينهم وبين مانويل كومنين حتى دعا بعضهم الى التحالف مع رجار النورمانى صاحب صقلية على البيزنطيين ، فما زال لويس السابع يرجاله حتى صرفهم عن ذلك الرأى ، ثم تعهد لمانويل بأن يعيد اليه ما ضاع من أملاك ، فزادت نفوس فرسان الفرنسيين غضبا ، وأخذ الجيش الفرنسى الطريق الى أرض المسلمين والنفوس متوترة والخلاف يملأ القلوب .

واجتمع كتراد ولويس السابع فى مدينة نيقية فى جمادى الثانية ٥٤٢ / نوفمبر ١١٤٧ ، واتفقا على أن يسيرا نحو أنطاكية مساحلين ، وتقدم الألمان الطريق فأتوا على جميع الأزواد التى أعدها رجال الدولة البيزنطية للحملة على مراحل الطريق ، وأتى

فى أعقابهم الفرنسيون فلم يجدوا زادا ولا طعاما ، فأخذوا ينهبون
 بلدن البيزنطية ، واشتبكوا مع جند الدولة فى قتال . وكان معهم
 عدد غفير من الحجاج ، فلما رأوا بؤادر الخلاف والحرب آثروا
 العودة الى القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شر الحج والهلاك .

سار الجيش الألمانى فى المقدمة ، فلما وصل الى افسوس
 اشتد المرض بكنراد ، فعاد الى القسطنطينية ، وحرص مانويل
 كومنين على أن يقوم على تريضه بنفسه ، وكان ذا هوى بالطب
 والأعشاب ، فأبل من مرضه ، وصفا الجو بين الرجلين ، حتى
 اتفقا على أن يصهر كنراد الى مانويل فيزوج أخاه هاينريخ دوق
 النمسا تيودورا ابنة أندرونيكوس أخى مانويل . ولم يعاود
 الألمان السير مخترقين آسية الصغرى ، بل نقلوا الى فلسطين فى
 سفن الأسطول البيزنطى فى رجب سنة ٥٤٣ / مارس ١١٤٨ .

وسار لويس السابع بمن معه متثدا خوفا من أن يقع له ما وقع
 للألمان ، ولكن قلوب من معه كانت تفيض بالشك فى البيزنطيين ،
 فلما وصل الى قرب بليدة تسمى «أنطاكية بسيدا» وأرادوا أن يعبروا
 القنطرة اليها وجدوا المسلمين قد ملكوا رأس القنطرة وعسكروا
 على الضفة الأخرى ، بل قيل ان البيزنطيين سمحوا لهم بالتحصن
 وراء أسوار البلد ، فحاضوا معهم معركة خسروا فيها بضع مئات ،

سار
الفرنسيون
اشتد
المرض
بكنراد
فعاد
الى
القسطنطينية
وحرص
مانويل
على
أن
يقوم
على
تريضه
بنفسه
وكان
ذا
هوى
بالطب
والأعشاب
فأبل
من
مرضه
وصفا
الجو
بين
الرجلين
حتى
اتفقا
على
أن
يصهر
كنراد
الى
مانويل
فيزوج
أخاه
هاينريخ
دوق
النمسا
تيودورا
ابنة
أندرونيكوس
أخى
مانويل
ولم
يعاود
الألمان
السير
مخترقين
آسية
الصغرى
بل
نقلوا
الى
فلسطين
فى
سفن
الأسطول
البيزنطى
فى
رجب
سنة
٥٤٣
مارس
١١٤٨

وبعد لأى ما عبروا ، وقد تأكدت مخاوفهم من ناحية البيزنطيين .
وتقدموا على عجل ، وعلى طول الطريق كانوا يصادفون جثث
حجاج الألمان الذين سبقوهم الى الهلاك فازدادوا خوفا ، حتى
كانت الملكة ومن معها يرتعدن خوفا وهن فى المحفات ، وأقسمت
الملكة ألا تعود الى حماقة المغامرة بالسير فى أرض المسلمين مرة
أخرى . وعندما انحدروا نحو البحر هاجمهم المسلمون وألقوا
الفرع فى قلوبهم وقتلوا منهم بضع مئات أخرى ، ولم ينج لويس
السابع بنفسه من الموت الا بجهد الجاهدين .

وعندما وصل الجيش الى أضاليا فى رجب ٥٤٣ / مارس ١١٤٨
كان الشقاء قد بلغ برجاله كل مبلغ ، فطلب لويس الى حاكم البلد
البيزنطى أن ينظر له فى سفن تنقله وجيشه الى أنطاكية فى البحر ،
ولم يجد الرجل سفنا تكفى لنقل جيش كامل ، فركب الملك ونفر من
الفرسان ما تيسر من السفن وترك كونت فلاندر مع البقية لتأتى
بعده ، ولم يكف المسلمون فى أثناء ذلك عن الهجوم وتخطفه
الرجال ورميهم بالنبال .

ثم جمع الحاكم سفنا أخرى فركب فيها الكونت وبقية الفرسان
وتركوا المشاة من خلفهم لمصيرهم . ولم يستطع أولئك أن يحصلوا
على سفن ، ولا كان معهم من المال ما يدفعونه لكرائها ، فساروا

بحذاء الساحل يجرون أقدامهم جرا ، وانضم اليهم من تخلف من
الألمان ، وتعقبهم رماة المسلمين وفرسانهم يصيبون منهم قدر
ما يستطيعون ، فلم يصل من أولئك الرجال الى أنطاكية الا نصفهم
في رمضان سنة ٥٤٣ / مايو سنة ١١٤٨ .

*

رست السفن بالملك لويس السابع ومن معه من الفرنسيين عند
السويدية جنوبى أنطاكية ، وتعرف عند الصليبيين باسم سان
سيميون (القديس سمعان) . كان وصولهم في رمضان سنة
٥٤٣ / مايو ١١٤٨ ، فخفف للقائهم رايموند دى پواتيه أمير
أنطاكية وحاشيته وصحبه ، وعادوا بهم الى البلد ، وبدأت سلسلة
ولائم وحفلات أنست القادمين ما لاقوا من مشقة وشقاء في
آسية الصغرى .

و « راحت السكره وجاءت الفكرة » ، كما يقولون ، فاقترح
رايموند أن تنهض الحملة بكامل هيئتها الى حلب لتقضى على
نور الدين القضاء المبرم ، وكان وجود نور الدين على حدود
إمارة أنطاكية من حماه الى الرها منذرا بنهاية هذه الامارة
ولحاقها بأختها الرها ، ولم يخف نور الدين خطته بل مضى يهاجم
ويوغل ، فما كان يمر شهر حتى يحرر حصنا من أيدي محتليه .

وبالفعل أخذ راييموند جماعة من فرسان لويس وقام معهم بغارة سريعة على أرض حلب ، فكانت هذه الغارة قاضية على آماله ، اذ لقيهم جنود نور الدين ولقنوههم درسا ظل في أذهانهم زمنا طويلا .

وتردد لويس السابع بعد ذلك في الاستجابة الى ما عرضه راييموند دى پواتيه ، وزعم أنه خرج من بلاده على نية الذهاب الى بيت المقدس ، فهو لا يستطيع شيئا قبل أن يفى بما نواه . والواقع أنه كان محيرا في أمره ، فقد توالى عليه وفود الامارات الصليبية وكل منها يرجو أن يستخدمه ومن معه في تحقيق أهداف خاصة بامارته :

أقبل جوسلين الثانى ، طريد الرها وقعيد تل باشر ، يطلب أن يسير معه لاسترداد امارته الضائعة ، وكانت حجته في ذلك جديرة بالنظر ، فان سقوط الرها كان سبب خروج الحملة الصليبية من بلادها ، وكانت أحاديث القديس برنار كلها تدور حول مصابها وضرورة استرجاعها .

وأقبل بطريق القدس برسالة خاصة من مجلس مملكة بيت المقدس يستحث الملك على الاسراع اليها ويقول ان كتراد ومن معه قد وصلوا وهم في انتظاره . وانبرت الملكة اليانور ، زوج

لويس السابع تطلب الى زوجها أن يستجيب لمطالب رايموند ، وكان عمها ، وتحسنت للأمر حماسة جعلت الرجل يراجع نفسه ويتدبر ما يقال من حوله . ذلك أن اليانور لم تزل مذ وصلت الى أنطاكية ملازمة لعمها ملازمة زادت على ما يكون عادة بين الشابة وعمها من مودة القربى .. كانا يقضيان الساعات معا ، اما فى قصر الامارة أو فى القصر الذى خصص لنزولها ، فاذا خرجا مضيا الى الصيد أو للنزهة فى البساتين ، ولغطت الألسن بالكلام ، وكان رايموند رجلا فحلا عرييدا ذا ولع بالنساء ومغامرات المعاشق . ووجد لويس أن مبادرته بالخروج الى بيت المقدس قد تحسم الأمر ، فلم يكذب فصيح عن رغبته حتى قالت الملكة انها باقية فى أنطاكية لتواسى عمها سواء بقى زوجها الملك أم ذهب ، وطال النقاش بينهما ووقع النفور واشتدت الخصومة ، وازدادت الألسن شقشقة ، وأحس الملك أن شرفه يشيل فى كفة الميزان ، فاستجمع شهامته ، ومضى فجر الملكة جرا من قصر عمها ، ومضى بها مرغمة الى القدس ، وهى تقسم لتظلمن الطلاق من ذلك الجلف القاسى ..

وكان الملك كنراد قد وصل مع رفاقه الى بيت المقدس فى شعبان سنة ٥٤٣ / أبريل ١١٤٨ ، واجتمع رجال الحملتين مع رجال مملكة بيت المقدس ومن انضم اليهم من رجال الامارات الأخرى

والاستباليين والداويين . فضمت القدس في ذلك الحين من ملوك أوروبا وأمرائها وفرسانها وأساقفتها من شتى بلادها ما لم يجتمع قط قبل ذلك في عاصمة من عواصم أوروبا نفسها : كان هناك خمسة ملوك وملكتان (كتراد ولويس وبولدين الثالث ملك بيت المقدس تحت الوصاية وملكا بولندا وبوهيميا ثم اليانور ومليزاند) ، وكان هناك من الأمراء الألمان هاينريخ أمير النمسا وأوتو أمير خرايزنجن وفردريك أمير سوابيا ، ومن أمراء الفرنسيين هنري دى شامپانيا وتييري أمير فلاندر ، وأمير غير صريح النسب هو ريرترام الابن غير الشرعى لألفونسو چوردان ، أضف الى هذا الحشد عددا ضخما من الأساقفة وأمراء الكنيسة ورؤساء الاستباليين والداويين وألوف من الفرسان وألوف أكثر من المشاة . كل أولئك تجمعوا ليحاربوا أميرا مسلما واحدا نهض وراية للإسلام في يده ، هو نور الدين محمود ..

وانتهى رأى الجمع بعد مشاورات طويلة الى الاستيلاء على دمشق تمهيدا لمهاجمة حلب ! كان أول ما قرروه القضاء على صديقهم وحليفهم صاحب دمشق الذى باع ذمته ولم يضع ثقته في الله ورجاله ، فكان ذلك القرار عبءا لكل من تحدثه نفسه بالترامى على أعتاب أعداء جنسه حاسبا أنه يضمن بذلك السلامة،

فيخسر كرامته وإيمانه أولاً ثم يقضى أصدقاؤه المزعمون على الباقي من كيانه .

ولا شك أن الذي حفزهم على الطمع في دمشق هو ثقتهم في تخاذل أصحابها وقلة إيمانهم وسهولة القضاء عليهم ، وهو في ذاته مظهر لما كان رجال بيت المقدس يضمرونه من الاحتقار لمعين الدين أنر وأضرابه من الخونة الضالين ، ولو أنهم وقفوا أعزاء أمام الخصوم لكانوا جديرين بالاحترام . نعم ، كان الصليبيون أبغضوهم ، ولكن البغض لون من الاحترام ، فأنت لا تبغض مهينا ، وإنما تحقره أو تهمله ، وليس أسوأ من الموت إلا حياة المحقر المهين .

ويتعجب المؤرخون الأوروبيون من عزم الصليبيين على مهاجمة معين الدين أنر ودمشق ، ويرون أن الهجوم على نور الدين كان أجدى ، ولكن دولهم المعاصرة لو كانت في موقف الصليبيين لما فعلت غير ما فعلوه ، لأن الجيوش انما تبدأ بمواضع الضعف لتنفذ منها وتستعين بالنصر فيها على مهاجمة مواضع القوة والحصانة .

وقد ذاقوا من المسلمين إلى ذلك الحين الويلات ، ولم يعودوا يجرءون على الاقتراب من عرين يقف دونه أسد كنور الدين ،

وحسبهم جانب هين يهيضونه ويصيبون عليه نصرا يرفع من همتهم . ولم يفتهم في ذلك الحساب الا أمر واحد ، هو أن نور الدين لم يكن يعتبر نفسه أمير حلب ، بل درع المسلمين أجمعين ، وما هو الا أن يهوما بالاعتداء على بلد عربي حتى يجدوه في وجوههم ، وهذا هو الذي وقع عندما هجموا على دمشق .

ولو أن نور الدين كان كغيره من الأمراء لا يهتم الا لبلاده لاجتاحوا دمشق ولفرح المؤرخون الأوروبيون بهذا النصر ، ولمضوا يمتدحون حكمة قواد الحملة وبعد نظرهم ، ولكنها فشلت ، وعند الفشل يكون اللوم والتشريب . وغاب عن أولئك المؤرخين الأوروبيين كذلك ما بعثته الصحوة في قلوب العرب والمسلمين من روح غلاب وإيمان بالنصر جعلهم يستصغرون الأعداء ولا يرهبوتهم كما كان الحال قبلا . وسرى في تفاصيل الحملة ما فعله أفراد الشعب العربي وما أتوه من ضروب البسالة والاقدام . وسيلمس الصليبيون هذه القوة الشعبية في كل خطوة يخطونها في بلاد الاسلام بعد الآن .

أخذت الحملة طريقها نحو دمشق في أوائل ربيع الأول سنة ٥٤٣ / منتصف يوليو ١١٤٨ ، ووصلت الى ظواهر دمشق في أواخر ذلك الشهر ، فاستولوا على موضع يعرف بمنازل

العساكر - أو نزول العساكر - على أربعة أميال جنوبى دمشق ، وحاولوا ضرب معسكرهم هناك ، ولكنهم وجدوا أن الماء لا يكفيهم ، فانتقلوا الى ناحية المزة حيث وجدوا ماء كثيرا ، فضربوا خيامهم ، وبدأوا الزحف نحو البلد ، ونشب القتال بينهم وبين أهله ، « واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد الأتراك والقتال وأحداث البلد والمطوعة والغزاة الجم الغفير » ، وبدأوا ينازعون الصليبيين الأرض شبرا شبرا . وتقدم الصليبيون فى ببطء شديد ، ودفعوا المجاهدين نحو الأسوار ، وانتشروا هم فى البساتين المحدقة بها من الجنوب وضربوا معسكرهم قريبا .

وقد استشهد من المسلمين فى اليوم الأول نفر كبير ، ولم تقتصر الشهادة على الفتيان والمقاتلين ، بل شملت الشيوخ والعباد ممن خرجوا مقاتلين فى سبيل الله . وكان معين الدين أنر من وراء الأسوار يدير الدفاع عن دمشق ويرقب تطور القتال ، فرأى الشيخ أبا الحجاج يوسف بن دوناس المغربى الفندلاوى - وكان عابدا مسنا - واقفا أمام السور ومعه صاحبه الشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول ، فلما بصر بالصليبيين قال : أما هؤلاء الروم ؟ فقال صاحبه : بلى ! فقال : فالى متى نحن وقوف ؟ وقال : سر على اسم الله ، وتقدما . وقصد أنر الشيخ الفندلاوى وقال له :

يا شيخ ، أنت معذور ، ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال ..
 فقال : قد بعث واشترى ، فلا ثقيله ولا نستقيله .. (يعنى قول الله
 تعالى : ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)
 وتقدم واستشهد وصاحبه عند الثَّيرب على مسافة كيلومتر ونصف
 جنوبى دمشق . وظل القتال بين الجانبين طول النهار ، فلما هبط
 الليل حجز بينهما ..

وخاف معين الدين أنر أن تكون الدائرة عليه ، فأرسل يستنجد
 بسيف الدين غازى صاحب الموصل ، كأنما خاف على مصيره اذا
 هو استنجد بحلب وصاحبها نور الدين . وفى أثناء الليل وصلت
 الى معسكر المسلمين أرسال من خيل التركمان ورجالة الأطراف
 وأعداد كثيرة من المجاهدين من الزراع وأهل النواحي المجاورة
 لدمشق ، فعوضت خسائر اليوم الأول ، واستقوت النفوس ،
 واشتدت عزيمة الساهرين على أسوار البلد من أهل البلد والمقاتلين
 وطلعت شمس الاثنين الثامن من ربيع الأول سنة ٥٤٣/
 ٢٥ يوليو ١١٤٨ وقد زال الروع من قلوب المسلمين وأفرغ الله
 عليهم الصبر ، فباكروا العدو بوابل من النبل والسهام ، فتأخر
 مشاتهم وأقبل الفرسان مدرعين فى دروع سابعة من الحديد تغطى
 الفارس وفرسه ، وكان فى المقدمة كتراد ملك الألمان ونبلاؤه ،

وما زال يجتهد حتى احتل « الربوة » على نهر بردى . وكان الصليبيون قد عانوا الأمرين في مطاردة المسلمين من البساتين التي عسكروا فيها ، اذ كانوا يستترون بأشجارها ويرمونهم بنبلهم المصمى ، فاجتهد الصليبيون في قطع الأشجار ، ثم أقاموا مما قطعوه من جذوعها متاريس تحميهم .

وظن الصليبيون أن وصول كتراد ومن معه الى هذا الموضع القريب من الأسوار مؤذن بوقوع البلد في أيديهم ، فأسرع الكونت تيبرى دى فلاندر الى مخيمات الملوك الثلاثة كتراد ولويس وبولدوين الثالث يطلب اليهم أن يولوه أميرا على دمشق اذا تم فتحها ، ولقى من بعضهم قبولا . وعلم بذلك بعض الأمراء الآخرين فأنكروه ، ووقع الخلاف بينهم . قال الدكتور حسن حبشى : « وبذلك كان بيع فراء الدب قبل صيده مثيرا للحسد في نفوس بقية الأشراف الذين رأوا أنهم لا يقلون عن كونت فلاندر مكانة أو اقداما » .

ولكن اليوم التالى أتاها بما لم يكونوا يتوقعون ، فقد أحاط بهم المجاهدون والمتطوعة ورماة النبل من كل جانب ، وأخذوا يرشقونهم بالسهام ويرمونهم بالأحجار ، وهم متحصنون خلف متاريسهم ، لا يجرؤ واحد منهم على تخطيها ، فاذا فعل عاجله

الموت ، ثم تسلل المجاهدون مرة أخرى فى البساتين واستتروا بما بقى من الأشجار وأخذوا يصرعون من يقع عليه بصرهم . وسكنت حركة الصليبيين حتى ظن المسلمون أن سكوتهم حيلة مدبرة ، وما كان الا خوفا وحيرة .

وتلاقى الملوك ورجالهم واشتوروا ، فاستقر رأيهم على الخروج من « هذه الشبكة التى حصلوا فيها » كما يقول أبو شامة . فخرج الجيش الصليبي كله من البساتين جنوبى المدينة ، وانتقل الى شرقها بجذاء السور . ولم يكادوا يستقرون فى موضعهم الجديد حتى تبينوا أن موضعهم الأول كان أرحم بكثير ، فقد أصبحوا فى العراء يشد عليهم فرسان التركمان فى عنف ، ويرميهم الرماة بالنبل ، ثم ان الماء كان قليلا ، فأدركهم العطش وتبينوا أنهم قبالة أحصن مواقع السور ، وقد علاه المجاهدون يصبون عليهم الموت صبا ، ووقع فى ظنهم أن الذين نصحوهم بالانتقال من البساتين لم يفعلوا ذلك الا لقاء مال دسه اليهم المسلمون ، ثم تواترت الأنباء بأن نور الدين قد اقترب من دمشق بقواته ، فزاد أمرهم فشلا ، وأيقنوا بالهزيمة .

وبينما هم فى ذلك الموقف الحرج تجددت بينهم الخلافات على مصير دمشق ، وكان الطامعون فى أمر امتلاكها هم الأمراء الجدد

الذين حسبوا أن الشدة التي هم فيها ان هي الا أزمة عابرة ،
 اذ لم يخطر ببالهم أن للمسلمين هذا الجلد في القتال ، وكان أشدهم
 طمعا تيرى كونت فلاندر كما ذكرنا ، فقد زاد سعيه وامتد به
 الأمل الخادع الى أن قال انه يرجو أن يكون أميرا شبه مستقل
 على دمشق على مثال راييموند دي پواتيه في أنطاكية ، وأيده في
 مطلبه لويس وكتراد وبولدوين الثالث ، اذ كان صهره ، وأسرع
 أحد أمراء الصليبيين القدامى في الشام ، وهو جى بريسبار صاحب
 بيروت يخطب امارة دمشق. ويقول انه أولى بها من ذلك الطارىء ،
 وبقى أذنا صاغية من الملكة مليزاند وصاحبها منسى ، ولكنه أحس
 أنه مخذول فائتمر مع نفر من أصحابه من الأمراء واتصلوا بمعين
 الدين أنر ، وعرضوا عليه أن يحملوا الصليبيين على الانسحاب
 اذا هو أعطاهم قدرا كبيرا من المال . وأنفذ المال اليهم ، فاستودعوه
 واحدا منهم هو اليناند أمير « الجليل » ، واتصل الخبر برجال
 العسكر ، ووجد المال فعلا عند اليناند .

وكان أنر قد لجأ الى ذلك ليتحاشى دخول نور الدين دمشق ،
 وكان قد اقترب منها وأقام عسكره في حمص . ولو شاء نور الدين
 أن يتقدم ويأخذ دمشق في ذلك الحين لفعل ، ولكنه كان أبعد
 عما يكون عن المطامع في أرض المسلمين ، فاكفى بالمراقبة من

بعيد . ثم انه كان يحسب ألف حساب لما يمكن أن يفعله أنر ، وليس بمستبعد عليه أن يترامى على الصليبيين اذا هو رأى أمره الى ضياع على يد نور الدين ، فيضيع على المسلمين نصرهم الذي كسبوه الى هذا الحين .

وأخذ أنر يخيف الصليبيين بجيش نور الدين ، فمالت نفوسهم الى الانسحاب ، وفعل المال فعله في نفوس من أخذوه ، واشتد هجوم المسلمين على العسكر الصليبي وزاد بهم العطش . وأحسن كتراد ولويس أن صليبي الشام طغمة من الطامعين الفاسدين لا يؤمن جانبهم ولا يستحقون معاونة ، فعولا على العودة الى القدس بمن معهما .

وبدأ الانسحاب في اليوم الخامس لوصولهم قرب دمشق ، وهو الأربعاء ١١ ربيع الأول سنة ٥٤٣/٢٨ يوليو ١١٤٦ ، ومضى الجيش المفلول نحو القدس عن طريق الجليل ، وطارت جماعات فرسان التركمان ومقاتلة المسلمين خلفه تتخطف من استأخر أو شذ عن العسكر ، حتى خلفوا وراءهم خطا من القتلى ، فما كان أشبههم اذ ذاك بجيش نابليون في عودته الكسيرة من حملته على روسيا في شتاء سنة ١٨١٢ - ووصل الجيش الى القدس منهوك القوى ، ودخلها خافض الرأس ذليلا ، وعجل المقاتلون من صليبي

الشام الى نواحيهم ، وتفرق الباقون فيما قسم لهم من دور يطلبون الراحة .

وقد قضت هذه الحملة على هبة الصليبيين قضاء مبرما ، وتلاشت أسطورة قوتهم التي لا تغلب ، وجرؤ عليهم الناس في كل مكان ، وبات نجمهم وشيك الأفول ، بالضبط كما حدث للأسطورة النابليونية بعد حملة روسيا . ولم يحطم أسطورة الصليبيين الا ارتفاع قوة المسلمين المعنوية نتيجة لاتحادهم ووقوفهم صفا واحدا وايمانهم بأنهم اليوم قلب واحد ، وقد شدوا ظهورهم ينور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازي .

هكذا تحطمت حملة صليبية كاملة على صخرة روح الفداء والاتحاد الذي شمل العرب والمسلمين ، فهذه حملة اشتركت فيها أربع ممالك من أوروبا تؤيدها مملكة بيت المقدس تلاشى أمرها كأنه ورق خريف تذروه الرياح . وما أشبه هذا بما وقع بعد نيف وثمانية قرون في بور سعيد ، حين تحطمت قوات دولتين أوروبيتين هما انجلترا وفرنسا ، تؤيدهما قوات جماعة طارئة على فلسطين محتلة لأرضها هم جماعة الصهيونيين ! وكما انتصرت دمشق بالاتحاد فكذلك انتصرت بور سعيد بالاتحاد وروح البذل والفداء التي شملت العرب أجمعين ، يقودهم ويبعث فيهم روح النضال رجال الثورة المصرية العربية التي أيقظت العرب أجمعين .

وأُسرع كتراد فغادر فلسطين من ميناء عكا في ٢١ ربيع الثاني سنة ٥٤٣ / الخامس من سبتمبر سنة ١١٤٨ ووصل الى القسطنطينية ليحتفل بزواج أخيه هاينريخ دوق النمسا الى تيودورا ابنة أخى مانويل كومنين ، وبينما كان الملك المهزوم يحاول أن يتعزى عما أصابه بمباهج الزفاف ، كان أهل القسطنطينية يبكون ، لا على مصير الحملة الضائعة ، وانما لأن تلك الأميرة الجميلة تزف الى جلف متبربر مثل هاينريخ ! كما قال شاعرهم برودموس . وفي رمضان سنة ٥٤٣ / فبراير سنة ١١٤٩ رحل كتراد الى وطنه قانعا من الغنيمة بالاياب .

وفي أوائل صيف ١١٤٩/٥٤٣ ركب لويس السابع ومن معه السفن عائدين الى بلادهم . وكانت نفس لويس قد تغيرت على مانويل كومنين ، فقرر أن يعاقبه على ما قارف في حق الحملة الصليبية من خيانة . وكان كتراد قد حالف مانويل على أن يكونا يدا واحدة على رجار النورمانى صاحب صقلية ، وكان عدو البيزنطيين اللدود ، لا يفتأ يغزو أراضيهم في البلقان ، واتفق الاثنان على القضاء عليه واقتسام مملكته .

ونمى ذلك الى لويس السابع فقرر محالفة رجار ، وبينما كانت سفنه تمر بين جزائر الپلويونيز هاجمتها سفن البيزنطيين ،

قامر الملك برفع العلم الفرنسى على سفينته حتى يضمن السلامة ،
فنجت سفينته ، واستولى البيزنطيون على سفينة أخرى من سفنه .
ونهبوا ما فيها وأخذوا رجالها أسرى ، فكان ذلك شر ختام لهذه
الحملة ، ولم تسمح نفس مانويل باطلاق سراح أسراه الصليبيين .
الا بعد جهد شديد .

*

وأقبلت المصائب تباعا على الصليبيين ، والمصائب تأتى جماعات
كما يقول شيكسبير : مر لويس السابع ببلاد الملك رجار النرمانى
فى جنوب ايطاليا وصقلية ، والتقى معه فى بوتنزا واتفق الاثنان
على القضاء على دولة البيزنطيين عقابا لها على ما خانت الصليبيين ،
وما ألحقت بالفرنسيين من مهانة حينما هاجمت أسطولهم وأسرت
رجالهم . وعاد لويس الى فرنسا وقد عقد العزم على تنفيذ ما اتفقا
عليه ، وما زال بكبار أهل مملكته حتى أقنعهم بضرورة تحقيق
هذا المشروع ، واستدعى الملك القديس برنار ، وحدثه فى الأمر
فلقى منه أذنا صاغية ، وأخذ هذا الرجل يدبج الخطب ويلقيها فى
أسلوبه البليغ داعيا هذه المرة الى القضاء على دولة مسيحية هى
الدولة البيزنطية ، وسبحان مغير الأحوال !
وأسرع برنار الى كتراد ملك ألمانيا يحاول اقناعه فلم يوفق .

«اذ كان هذا قد عقد الخناصر مع مانويل كومنين وأصهر اليه ،
ولم تتحقق حملة الغرب المسيحي على الشرق المسيحي هذه المرة ،
ولكن الفكرة ما زالت تختمر في الأذهان حتى تحققت بعد
خمسین سنة ، عندما كانت الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٠ /
١٢٠٤ متجهة نحو القسطنطينية ، فاستولت عليها ، وأقامت فيها
دولة لاتينية ظلت تحكمها مدى ستين عاما .

وكان الكونت برترام ، الابن غير الشرعى لأفونسو چوردان
ابن رايموند كونت تولوز (رأس الحملة الصليبية الأولى وأول
أمراء امارة طرابلس الصليبية) قد تملكاً في الشام بعد رحيل الملك
لويس السابع والفرنسيين . كان يرى نفسه أحق بامارة طرابلس
من صاحبها الأول ومنشئها ، وأضمر الاستيلاء عليها بالقوة .
فجمع نفرا من فرسانه وزعم أنه متجه نحو الساحل ليحرر من احدى
موانيه ، فلما قارب حصن «العريمة» انقض عليه ودخله وتحصن
فيه ، وريع رايموند دي پواتيه صاحب أنطاكية للأمر ، ولم يستطع
التغلب على برترام ، وتلفت يلتمس المعونة من الصليبيين فلم يجد
منهم معيناً ، فاتجه نحو معين الدين أنر ونور الدين محمود صاحب
حلب وسيف الدين غازي صاحب الموصل يستعين بهم .
وتلكاً أنر على عهده ، ولكن نور الدين خف الى الفرصة

يتنزهها ، اذ وجدها سيلا يمد بها ذراعا بين امارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس ، ومضى بقواته فاستولى على حصنى باسوطا وهاب ، ورأى أنر منه العزيمة فلم يجد محيصا عن الانضمام اليه ، وحاصرت قواتهما العريمة واستولت عليها وسوتها بالتراب ، ووقع برترام وأخته أسيرين فى يد نور الدين ، فعاد بهما الى حلب ، حيث ظلا أسيرين اثنتى عشرة سنة (١١٤٩/٥٤٣) .

هكذا ختمت قصة الحملة الصليبية الثانية ، ولقد ذهب المؤرخون الأوروبيون مذاهب شتى فى تعليل الهزيمة ، فذهب الفرنسيون — قدامى ومحدثين — الى أن السبب خيانة مانويل كومنين الامبراطور البيزنطى ، وذهب الألمان والانجليز المحدثون الى أن السبب سوء تصرف رؤساء الحملة وتقاعس الصليبيين فى الشام . وهذه كلها أسباب لا تبرر ذلك الفشل الذريع ، فان سياسة الدولة البيزنطية فى هذه الحملة لم تختلف عن سياستها أثناء الحملة الصليبية الأولى ، وقد رأيت اختلافها مع الصليبيين حول أنطاكية ، وكذلك لم تخل الحملة الصليبية الأولى من أخطاء عسكرية وقع فيها قادتها ، ثم ان الخلاف بينهم فى الأولى لم يقل عن اختلافهم فى الثانية .

أما الجديد حقاً فهو نهوض المسلمين واتحادهم وتضام صفوفهم.

وارتفاع قواهم المعنوية نتيجة لهذا الاتحاد ، فقد رأيت اقدام المسلمين على مهاجمة جيوش الألمان والفرنسيين في آسية الصغرى وكيف أرغموا الصليبيين على الخروج منها والسفر الى فلسطين عن طريق البحر ، وجميع أولئك المسلمين الذين قاموا بذلك العمل الجليل كانوا متطوعين خفرتهم الحماسة الوطنية وحماية الرجال على الاقدام دون أن يوجههم ملك أو أمير ، فقد كانت قوة دولة سلاجقة الروم مضغضة في قونية ، وكان سلطانهم قلعج أرسلان الثاني ^{خط} بعيدا عن فكرة التصدي للصليبيين قانعا بحلفه مع مانويل كومنين - ^{السلطان} ^{مستور} ولكن الشعب العربي كان قد صحا واندفع يذود عن بلاده بنفسه ، وأمام صحوته تنبه الغافلون من أصحاب السلطان — مثل قلعج أرسلان هذا — واضطروا الى المسير الى العدو والمساهمة في قتاله . وكانت هذه الشعوب الناهضة تشد ظهرها بالبطل المجاهد نور الدين ، وتعلم أنه معها في الميدان وقد عقد العزم على السير بالجهاد الى غايته . وأمام حماسة الدمشقيين وعزمهم على الدفاع عن مدينتهم حتى الموت اضطر معين الدين أنر الى الوقوف في وجه الصليبيين والاشتراك في الدفاع .

ولقد حاول أن يلتوى ويماطل ، فاذا بنور الدين يتقدم بجيوشه الى حمص على أهبة المسير للقاء الصليبيين ، وبعث قرب

فشل الحملة الصليبية الثانية

قواته في قلوب المسلمين في الشام قوة معنوية كبرى ففاضت حماساتهم وأغرقت الأعداء ، وخاف معين الدين أنر أن يغرقه التيار فاستبسل ، وبدأت منه في هذه المرحلة الأخيرة من حياته الطويلة شجاعة يحمدها له المؤرخون . ولم يكن له بد من أن يسير مع التيار ، وكأنما كان شوقى يعنيه عندما قال :

تحرك أبا الهول ! هذا زمان تحرك ما فيه ، حتى الحجر !

نور الدين يضم دمشق إلى جبهة الجهاد

وقفت في الجيش والأعلام خافقة*
بالنصر، كل قناة فوقها علم*
يحولك الله صرناً من عيونهم والله يعصم من بالله يعصم
« القيسراني »

كان فشل الحملة الصليبية على الشام ، وانسحاب الباقين من رجالها الى بلادهم فرصة ذهبية أتاحت لنور الدين ، فقد باتت الإمارات الصليبية في حال من الضعف والخوف لا تمكن أصحابها من رفع رءوسهم من جديد ، ولم يكن هناك أمل في أن يصل مدد من الغرب خلال السنوات التالية . كان لابد أن ينقضي زمان طويل ينسى الغرب الأوروبي أثناءه ويلات الحملة الثانية وعار هزيمتها ، وكان على نور الدين أن يخطو ليحقق أهدافه في الوحدة وجمع الصفوف

واجلاء بقايا الصليبيين من أرض الشام . وقد آثر أن يسير في طريقه مستأنيا ، حريصا على أن يضم بلاد اخوانه المسلمين بالحسنى فلا ينقص على واحد منهم حياته ، ولا يقهره على أرضه ، بل يمد له في جبال الصبر حتى يكسب بالحسنى والرفق ما تعجز عن كسبه الأسنة والرماح .

وكان أخوه سيف الدين غازى عضده في كل ما طلب ، وكان غازى أسن منه ، ولكنه كان هادىء الطبع لين الجانب مبتلى بالأفراض ، فكان يسلم أمره لنور الدين ويستجيب له اذا دعاه ، ويمدده بالجند اذا طلب ، وقد كان تصافى هذين الأخوين نعمة من نعم الله على قضية الوحدة والتحرير ، ورمزا على ما شمل المسلمين كلهم من اخاء ووفاء .

ولم يكد جوسلين الثانى صاحب تل باشر يرى آخر جنود الحملة الصليبية الثانية يغادر فلسطين حتى أيقن بقرب نهايته ، وهداه رأيه الى أن يستأمن لنور الدين ، فخرج الى معسكره حاملا راية بيضاء ، وطلب أن يضعه نور الدين تحت حماه ويعتبره من أتباعه ، وأخرج نور الدين ، اذ لم يشأ أن يضيفى عليه حمايته ويضمه الى أتباعه ، لأن ذلك يحول بينه وبين الاستيلاء على ما بقى من امارة الرها ، بل يكون مضطرا لحمايته والمحافظة له على

ما بيده من أرض ، ولم يكن يتمشى مع الشهامة العربية أن يرد رجلا استأمن اليه وأتاه طائعا ، فاختار حلا وسطا ، وعقد معه هدنة قصيرة الأجل .

وبلغ النبأ مسعودا سلطان سلاجقة آسية الصغرى ، وطمع هو الآخر في أن يطوى امارة أنطاكية تحت جناحه ، فجمع جمعا ، ومضى فهاجم مرعش لعل صاحبها رايموند دى پواتيه يرهبه ويدخل في طاعته . ولكنه لم يكذب بالمطى الا قليلا حتى نهض له رايموند ، وانضم اليه على بن وفاء شيخ جماعة الباطنية بنفر من رجاله ، واجتاحا أراضيه ، فأسرع مسعود يستغيث بنور الدين . فعجل هذا بالمسير نحو ناحية من بلاد امارة أنطاكية دون أن يستكمل العدة لهذا الهجوم ، وكان قائده أسد الدين شيركوه منحرف الصدر لأن نور الدين فضل عليه منافسه مجد الدين بن الداية وزاد محله قربا ، فأساء شيركوه الى ابن الداية فتراخى في القتال والتقى الجمعان عند بغرا — أو بغراس — ولم يدرك نور الدين أملة المنشود في النصر الكامل فانسحب بمن معه ، وتدارك أمر أسد الدين شيركوه .

وأعاد نور الدين الكرة ، فأغار على بصرى ، وكانت تحت سلطان امارة أنطاكية ، ومنها انتقل الى بغراس ليلقى رايموند من

جديد بعد أن أعد العدة وأصلح بين قائديه ، واضطره الى الفرار أمامه ، ثم اتجه جنوبا وحاصر « انب » وكانت عدة جيشه ستة آلاف فارس غير المشاة والمتطوعة ، ونهض راييموند دى پوانتييه للقاءه فى أربعة آلاف فارس وألف من المشاة ، فاستقر رأى نور الدين على أن يقضى على هذه القوة الكبيرة قضاء تاما ، فرقع الحصار ومضى جنوبا وراييموند يتابعه ، فلما هبط الليل ضرب خيامه فى وهدة من الأرض قرب عين مراد — بين « انب » وبحيرة ضحلة تسمى « غاب » — فزحفت قوات نور الدين وأحاطت به وبجيشه .

فلما أصبح الصباح أدرك راييموند أنه قد أحيط به وأن لا أمل له الا فى الاندفاع بنفر من خيرة فرسانه واختراق الحصار ، ثم يتبعهم بقية الجيش . وكان المسلمون على السفوح المحيطة بالوهدة ، فما كاد راييموند ومن معه يندفعون حتى ردوهم وأعملوا السيوف فى جيش أنطاكية ، وصبوا عليه السهام فتساقط رجاله صرعى ، فلم ينج منهم من القتل الا من وقع فى الأسر ، واندفع أسد الدين شيركوه فقتل راييموند بيده ، وكان بين القتلى ورنالد صاحب مرعش وشيخ الاسماعيلية على بن وفاء (صفر ٥٤٤ / يوليو ١١٥٠) ثم أسرع نور الدين يحاصر أنطاكية ، فاستجد

أهلها ببلدوين الثالث صاحب بيت المقدس ، وأسرع هذا بقوة من رجاله لانجادهم .

وكان نور الدين حريصا على ألا يجتمع عليه أهل مملكة بيت المقدس وأهل أنطاكية ، وكانت رسلهم تتردد عليه في الصلح ، فهادنهم لمدة قصيرة على أن يأخذ كل ما حول أنطاكية من الحصون فلم يعد لها الا شريط من الأرض يمتد حتى اللاذقية ، وبذلك ارتد بولدوين عن أنطاكية وأصبحت هذه قاب قوسين أو أدنى من الوقوع في يد نور الدين .

وانقضى أمد الهدنة ، فأسرع نور الدين واحتل حارم وأرتاح ، وظهر من جديد أمام أنطاكية ، وغزا بلادها حتى السويدية (سان سيمون) ، فاستغاث أهلها بجوسلين الثانى ، وبدلا من أن يسير هذا لنجدتهم مضى نحو مرعش ليأخذها ، اذ اعتبر نفسه وارث رينالد الذى قتل يوم هزيمة عين مراد ، فسار نحوه مسعود سلطان سلاجقة آسية الصغرى . وتمكن جوسلين الثانى من دخولها بمعاونة نفر من أهلها النصارى ، فأخرجه مسعود منها ، وأمر الذين اشتركوا فى تسليمها لجوسلين بالخروج الى أنطاكية ، فلما توسطوا الطريق اتقضت عليهم جماعة من المقاتلين فأبادتهم . وانتهت هدنة نور الدين مع جوسلين فى شتاء سنة ٥٤٣ /

١١٤٩ ، فبادر بالعمل . وكان قد ساءه أن ينتهز هذا الرجل فرصة الهدنة معه ليؤذي بقية المسلمين ، فسار نحوه في ذي الحجة ٥٤٤ / أبريل سنة ١١٥٠ . فاذا هو يغير على بلاده اذ أوقعه الله في يده على أهون سبيل ، ذلك أن جوسلين الثاني كان ذا غارة وفتك حتى وصفه المؤرخون المعاصرون بأنه كان « شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه ، وشدة عداوته للملة الاسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها » .

ولكنه كان الى جانب ذلك فاسدا منحل الخلق ، لا يكف عن طلب النساء ، فخرج في قطعة من فرسانه متجها نحو أنطاكية ليجتمع بمن فيها ، لينظروا في أمر من يحل محل راييموند دي پواتيه المقتول . فلما كانوا في بعض الطريق حانت له فرصة الانقضاض على جماعة من التركمان كانوا قد أراحوا على الطريق فأصاب عددا من نسائهم ، فثارت حمية الباقيين منهم وكروا عليه وأخذوه امساكا باليد ، وبلغ الخبر نور الدين فأرسل من تسلمه منهم ، وأرسله الى حلب ، حيث سملت عيناه وسجن في قلعتها حتى مات بعد تسع سنين (١١٥٩/٥٥٤) .

هكذا خلت الامارتان الصليبيتان من رجل يقوم بأمورهما :

فأما أنطاكية ، فقد تولى أمرها البطريق «أيمرى» ورتب شئونها .
 ريثما يصل بولدوين الثالث ملك بيت المقدس وينظر فى أمرها ،
 وأما بقية إمارة الرها فلم تجد من يلم شعها . وكانت بياتريس ،
 أرملة جوسلين الثانى قد اجتهدت فى القبض على زمام الأرمن
 ففشلت ، فاذا هى فى حيرتها اذا بمانويل كومنين يتقدم عارضا
 شراء حطام الإمارة منها ، ودفع الامبراطور مبلغا طائلا من الذهب
 وتسلم تل باشر وراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك وغيرها ،
 واحتفظت بياتريس ببلدة قلعة الروم لحصانتها ، حاسبة أنها
 تستطيع أن تقضى فيها بقية أيامها فى سلام .

ولكن أملها خاب فيما رجته ، وكذلك خاب أمل مانويل
 فيما اشتراه ، ذلك أنها وجدت أنها لا تستطيع البقاء فيها فتخلت
 عنها لرئيس أرمنى ورحلت الى أنطاكية يصحبها من بقى من
 الفرسان . ولم يهنأ مانويل بالبلاد التى اشتراها عاما واحدا ،
 اذ اتفق تمر تاش أمير ماردين ومسعود سلطان سلاجقة آسية
 الصغرى ونور الدين على تقاسمها ، فأخذ الأول سميساط والبيرة
 وأخذ الثانى عينتاب ودلوك ، وأخذ الثالث — نور الدين —
 «راوندان ثم لم يلبث أن أضاف إليها تل باشر (جمادى الأولى
 سنة ٥٤٥ / يوليو ١١٥١) ، وبهذا تلاشى كل أثر لامارة الرها ،
 وردت الينا بضاعتنا .

وقبل ذلك بقليل ، ربيع الآخر ٥٤٥/ مايو ١١٥١ توفي معين الدين أنر بعد عمر طويل قضاء في الكيد والتدبير ومعارضة الوحدة الاسلامية ، وكان يقوم بأمر دمشق تؤيده عصبة من المستبدين المستمتعين بخيرات البلد معه ، وكان قد فرض وصاية على مجير الدين أبى أمير البلد وحفيد تاج الملك بورى . فلما مات نهض مجير الدين وقبض على الأمر ، ولكن عصبة أنر فرضت عليه رجلا يسمى مؤيد الدولة المسيب بن على ، وجعلته يقيمه وزيرا له ليطلق أيديهم في الأمور كما كانوا ، فقبل ، ثم بدأت المنازعات ، وتعصب لكل فريق جماعة من أهل البلد ، واشتدت الخصومة حتى وقعت الحرب بين الجانبين . وساء حال البلد وأهله ، وخاف نور الدين اذا استمر هذا الحال أن يفضى الأمر الى وقوع دمشق وتوابعها في أيدي مملكة بيت المقدس ، وأدرك أن الوقت قد حان لضمها الى جبهة الجهاد .

ولكن الاستيلاء على هذه الامارة الواسعة بعض الشيء لم يكن بالأمر اليسير ، لا لقوة من فيها وكثرة جندها ، بل لأن هذه العصبة التى سيطرت عليها كانت ترى في الصليبيين سندا لها ، ولهذا لم تكن لتتخلى عن التحالف معهم مهما فعلوا ، وكان نور الدين يعلم ذلك ويحاذر أن يشتد في قصد البلد أو جواره مخافة أن يقع ما يخشاه .

وكان بولدوين الثالث ورجاله يفهمون الموقف فهما كاملا ،
ويعلمون أن حصول دمشق في يد نور الدين معناه نهاية مملكتهم ،
ولهذا فقد كانوا من جانبهم لا يسرفون في الغارة على بلاد دمشق
حتى لا يضطر أصحاب الأمر فيها الى تسليمها لنور الدين ، فاكتفوا
بالضربات والغارات السريعة على اقليم حوران ، ووجهوا قواهم
نحو البقية الباقية من أملاك الفاطميين في جنوب غربي فلسطين ،
وانتهزوا فرصة استحالة مجيء نور الدين لاغاثة هذه البلاد ،
فاستولوا على صور وعسقلان ، كما سيجيء . وكان قلب نور الدين
ينفطر ألما لاستحالة اقاذهما عليه ، فجعل يدير الرأي ويجمع العدة
وقد استقر غزمه على استخلاصهما من أيدي أولئك العابثين .

وبينما نور الدين يستعد اذ بلغه نبأ موت أخيه سيف الدين
غازي (جمادى الآخرة ٥٤٥ / يوليو ١١٥١) فأسرع قطب الدين
مودود — وهو الابن الثالث لعماد الدين زنكي ، وكان مع أخيه
سيف الدين غازي — ووضع يده على الموصل وطلب الامارة لنفسه .
وكان نور الدين يكبره ، وهو أولى — شرعا وكفاية — بالولاية
منه ، فسار نحو الموصل ، وكان يتولى أمرها باسم قطب الدين
الأمير جمال الدين محمد بن علي الذي ذكرناه ، وكان رجلا عاقلا
حصالها ، فما زال يسعى حتى وفق بين الأخوين ، واستقر الأمر

على أن تكون الموصل والبلاد الجزرية — عدا سنجار —
لقطب الدين على أن يخطب في بلاده لنور الدين ، بحيث تكون
هي وحلب دولة واحدة .

ورضى بذلك نور الدين لما في نفسه من قناعة وكره لمعاداة
أهله وأخوانه ، بل نزل لأخيه عن حمص في مقابل سنجار ، واستقر
الأمر على ذلك ، وعادت الوحدة والصفاء ، واطمأن نور الدين
من هذه الناحية وعاد الى حلب ليوصل جهاده ، وقد امتد ملكه
حتى شمل بلاد أبيه كلها .

وقد أعجب نور الدين بالوزير جمال الدين محمد بن علي ،
وطلب اليه أن ينتقل الى حلب ليكون معه ، فاعتذر جمال الدين
وقال مقالة أريب : « أنت عندك من الكفاية ما يستغني به عن وزير
ومشير ، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك ، لأن عدوك
كافر فالناس يدفعونه ديانةً ، وأعداء أخيك مسلمون ، فيحتاج من
يقوم بدفعهم . وإذا كنت عند أخيك فالنفع اليك عائد . وأريد من
بلادك مثل ما لي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي (يريد :
تفقاتي) » ، فأجابه الى ذلك ، فقال له جمال الدين : « أنت عليك
خرج كثير لأجل الكفار ، فيجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك
بعشرة آلاف دينار كل سنة » ، فأمر له بها . فكان نائب جمال الدين

يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .
 واتجه نور الدين بكل قواه ليفرغ من أمر دمشق ، وكان هدفه
 الأول كسب الرأي العام في البلد الى جانبه حتى يقف الناس معه
 أمام الطغمة الباغية التي تستبد بالأمور بمعاونة قوات من الجند
 المرتزق ، وكانت وسيلته الى ذلك أن يترك المتنافسين على السلطان
 في دمشق متصرفين الى عبثهم ، ويتولى عنهم أمر دفع الصليبيين
 عن بلاد دمشق ، فيرى الناس أنه ناصر الحق والعرب وحامي ذمار
 الاسلام .

ففي أواخر سنة ٥٤٥ / مارس ١١٥١ أوغلت قوات مملكة بيت
 المقدس في أرض حوران ، فأسرع نور الدين ليدفعهم عنها ، وكتب
 وهو في الطريق الى مجد الدين آبق ورجاله يطلب اليهم أن يمدوه
 بمعونة قدرها ألف فارس مع قائد يعتمد عليه ، فردوا عليه ردا
 سيئا وأغلظوا له في الكلام . ولم يكن يعنيه ردهم في شيء ، فقد
 كان يتوقعه وكان في غنى عن عونهم ، ولكنه أراد أن يظهر للناس
 حقيقة أمرهم ، واستمر في طريقه حتى اضطر الصليبيين الى
 العودة الى بلادهم ، ثم عاد فاقرب من دمشق ، وأصدر الى جنده
 الأوامر الحاسمة بالآلا يمسوا شجرة أو يفسدوا زرعاً ، بل جعل
 يقدم الأقوات والأموال الى الفلاحين المحيطين بالبلد للتخفيف

عنهم ، فهفت القلوب اليه وتواصل الدعاء له ، وكان المطر قد استأخر على هذه النواحي ، فلما أهل عليها نور الدين هطل على الأرض مدرارا ، فروى الناس وسقيت الأرض وزاد تعلق الناس به .

ومن موضع « منازل العساكر » على أربعة أميال جنوبى دمشق كتب الى مجير الدين آبق وأصحابه يقول : « انتى ما أردت بنزولى هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وانما دعانى الى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج ، وعدم الناصر لهم . ولا يسعنى — مع ما أعطانى الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال — أن أقعد عنهم ولا أتصر لهم ، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ، والتقصير الذى دعاكم الى الاستصراخ بالفرنج على مجاربتى ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين . ولا بد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المتقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة » (١) .

(١) كانتا قد سقطتا فى يد الصليبيين كما سييجى .

أتدري كيف كان رد أولئك الناس عليه ؟ : « ليس بيننا وبينك
 إلا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا
 ونزلت الينا ! » . وقد بلغ عجب نور الدين من سفاهة أولئك الناس
 كل مبلغ ، وازداد اصرارا على ضرورة القضاء عليهم ، قبل أن
 يقارفوا حماقة لا تعود مضرتها الا على العرب والمسلمين .
 ورأى مجير الدين ورجاله من عزم نور الدين ما أوقع الرعب
 في نفوسهم ، فسارعوا في المحرم سنة ٥٤٦ / ابريل ١١٥١ وكتبوا
 اليه يطلبون الاجتماع به ، وعرضوا عليه أن يدخلوا في طاعته على
 أن يظلوا في حكم البلد . ووجد نور الدين أنها خطوة لا بأس بها ،
 والسبب في ذلك — كما يقول ابن القلاسي صاحب « ذيل تاريخ
 دمشق » — « أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين ان أقام
 على حربها والمضايقة لها » ، وخرج مجير الدين ووزيره للقاء
 نور الدين فأحسن استقبالهما وأكرمهما ، ورأيا من طيب خلقه
 ما ملأ قلوبهما أمنا ، وانتهر أهل البلد الفرصة فخرجوا جماعات
 ليملأوا عيونهم من طلعة نور الدين ، فاختص طلبة العلم وقرءاء
 القرآن وضعفاء الناس بعطفه وجهه ، وأوسعهم كرما واحسانا .

*

ولكن الاحسان لا يثمر عند اللئام ، فما هو الا أن ثنى

فور الدين عنانه عن دمشق حتى عاد مجير الدين وأصحابه يتصلون بالفرنج ويمدون لهم يد المودة ويدفعون لهم الأموال ويأذنون لهم فى دخول البلد ، فعاد اليها ونزل بعسكره قريبا ، وبعث الى ولاية البلد يقول : « أنا ما أوتر الا صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلص من فى أيديهم من الأسارى ، فان ظهرتم معى فى عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد ، فذلك هو المراد » .

وكان الرجل يحسب أن قلوبهم لا زال فيها عرق من المروءة والشهامة ينبض ، فما لبثوا أن خيخوا ظنه وكتبوا اليه يرفضون ، بل مضوا يبعثون بجماعات من جندهم تفسد الزروع المحيطة ببلدهم حتى لا يستقوى بها نور الدين ! واستجدوا بالصليبيين فأسرعوا لعونهم ، وأقبل الملك أمورى ملك بيت المقدس الجديد فى نفر من فرسانه فأدخلوه البلد ومضوا يتشاورون معه . وعجل نور الدين فأرسل قطعة من جيشه عدتها أربعة آلاف فارس ليردوا عسكر بيت المقدس عن البلد ونواحيه ، فأوقفتهم عند بصرى ، ثم اقترب من البلد مجتهدا فى تجنب القتال مع المسلمين . وطال مكثه خارج الأسوار ، ولكنه كان قد عزم على الفراغ من أمر دمشق فجعل مقامه غير بعيد عنها .

واستمر الحال على ذلك الى سنة ٥٤٩ / ١١٥٤ ، وكان الفساد

تقد بلغ بحكم دمشق مبلغا جعل الناس يضجون ويطالبون باصلاح الحال ، فاضطر مجير الدين الى اعدام أحد وزرائه واطلاق الشعب على دوره فنهبوها .

ثم ان أموري ملك بيت المقدس ، بعد استيلائه على عسقلان ، اطمأنت نفسه من ناحية حدوده الجنوبية ، فأقبل يشتد على دمشق حتى قرر عليها قطيعة من المال تؤديها كل عام ، وبعث جباته يجيونها من أهل البلد مباشرة .

ثم زاد الأمر حتى أذن لرجال الصليبيين بالبحث عن أسراهم داخل البلد ، فمن أحب المقام منهم تركوه ومن أراد العودة اليهم أخذوه ، فانفجرت مراحل غضب الشعب وثار على مجير الدين آبق فحصره في القلعة مع رجل من معاونيه يسمى مؤيد الدين بن الصوفي ، فكتب اليه نور الدين يلومه ويؤكد له أن رحمته ما زالت تتسع للعفو عنه واکرامه اذا هو أسلم البلد .

وانما لجأ نور الدين الى ذلك خوفا من أن يعود هذا الفاسد الى الاستنجاد بالصليبيين ، « وانشاف الى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين » فان الدم عنده كان عظيما ، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، كما يقول ابن الأثير . وكان رجال مجير الدين يكتبونه ويعرضون استعدادهم للاتقلاب على

سيدهم ، فاكتمى نور الدين بأبلاغ مجير الدين ما يقوله أنصاره أولاً بأول ، فيصب عليهم العقاب وربما قتلهم ، كما فعل مع عطاء ابن حفاظ السلمى ، وكان قد قوض إليه أمر دولته . وما زال على ذلك حتى لم يبق الى جانبه من يستعين به ، وأقام وحيداً .

ثم خطا نور الدين الخطوة النهائية ، فأمر رجاله بأن يتصلوا بأنصاره فى دمشق ليقوموا بالوثبة الأخيرة ، فثار أهل البلد ثورة رجل واحد ، وتقدم القائد أسد الدين شيركوه نحو سور البلد من ناحيته الشرقية ، فأدلى الناس لجنده الجبال فصعدوا وعلوا السور وصاحوا : « نور الدين ، يامنصور ! » ، ويقال ان إحدى نساء دمشق كانت أول من أدلى الجبال ، وكسر الجند باب البلد ودخل عسكر شيركوه .

ثم فتح باب توما ودخل منه نور الدين وخواصه ، فاستقبله الدمشقيون استقبال المخلص . ثم استقدم كبراء أهل البلد من القضاة والفقهاء والتجار وخاطبهم بما ملأ قلوبهم غبطة وأنسا ، ورجاهم الاجتهاد فى اصلاح ما وهن من أمور البلد ، وألغى الضرائب التى كان مجير الدين قد قدرها على القواكه والخضر ومياه الرى والسقيا ، فزاد حب الناس له واستبشارهم بمقدمه . وولى نور الدين أسد الدين شيركوه على البلد (المحرم سنة ٥٤٩ / مارس سنة ١١٥٤) .

هكذا ضم نور الدين دمشق وأعمالها ، وكانت تمتد جنوبا حتى تتأخم حدود مملكة بيت المقدس على خط طويل يمتد مستعرضا شمالي ناحية الجليل ، فزال هذه الفجوة الواسعة التي كانت تحجز بين نور الدين وملاقة هذه المملكة وجها لوجه . وازدادت جبهة الاسلام قوة بدخول دمشق ورجالها وأنجادهما في جبهة الكفاح والتحرير ، وافتتح الطريق الى مصر ، لأن الطريق من نواحي دمشق اليها كان مفتوحا وان كان يخترق الأراضي التي تحتلها مملكة بيت المقدس ، فان رجال هذه المملكة كانوا عاجزين عن حراسة الأرياف وضبط الطرق ، انما كان همهم التشبث بالحصون والسيطرة على ما حولها .

وانضمام دمشق الى جبهة نور الدين يعد لهذا أعظم خطوة عسكرية خطاها المسلمون منذ ميلاد حركة التحرير أيام شرف الدولة مودود . وقد أدرك رجال مملكة بيت المقدس ذلك وباتوا على الخوف من نور الدين ، واتجه هذا يبصره الى الخطوة التالية :

مصر .

فان جبهة العروبة المكافحة لا تستقوى كل الاستقواء ، ولا تشتد كأنها بنيان يمسك بعضه بعضا الا اذا انضمت اليها مصر فهي عقدة بلاد العروبة ومورد لا يلضب من الرجال والقوة

والمال ، وهى اذا اتحدت مع الشام والعراق كان ذلك مؤذنا بالنصر المؤزر ، وقد ملك نور الدين الآن الشام والجزيرة الفراتية والموصل ، وبقيت مصر وهى مدار المعركة القادمة التى خاضها نور الدين فى اقدام البطل الفاتح المحرر .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه المعركة الحاسمة ، لنمر سريعا ببلاد الصليبيين لنرى كيف صارت أحوالها فى أثناء ذلك كله ، لأن كمال هذا التاريخ لا يتحقق الا اذا أحطنا ، خطوة خطوة ، بما يجرى فى بلاد الأعداء .

ولقد استطردنا مع محاولات نور الدين لضم دمشق الى بلاده حتى جمعناها فى صعيد واحد ، ولنعد الآن الى ما استطردنا عن ذكره من الأحداث .

*

تركنا امارة أنطاكية وقد قتل أميرها راييموند دى يواتيه فى ربيع ١١٥٠/٥٤٤ م خلفا زوجة شابة هى كونستانس وأربعة أبناء صغار ، أكبرهم بوهيموند الذى عرف فيما بعد بالثالث . وتولى البطريق ايمرى شئون البلد حتى وصل بولدوين الثالث ملك بيت المقدس ليتدارك الأمر . وقد تبين منذ الوهلة الأولى أن الامارة فى حاجة الى أمير يحميها من نور الدين ، فمضى يختار لكونستانس

زوجا يعينها على أمور الحكم حتى يشب ابنها بوهيموند . فاقترح عليها ثلاثة رجال لتختار من بينهم واحدا ، فاستعرضتهم بنصرها ، فلم يعجبها واحد منهم . وتركها بولدوين ، وكان في التاسعة عشرة من عمره ، وعاد الى بيت المقدس ، اذ لم تكن بلاده آمنة الى الدرجة التي تسمح له بالابتعاد عنها حتى تجد هذه الشابة المدللة زوجا يعجبها ، وكانت سنها اثنتين وعشرين سنة .

وأرسلت كونستانس سفارة الى مانويل كومنين ، امبراطور الدولة البيزنطية ترجوه أن يختار لها من بين رجاله أميرا يليق بها ، فحرب بالطلب ، واختار للأميرة أميرا نورمانى الأصل يسمى قيصر يوحنا روجر ، كان زوجا لابنته ، ثم توفيت عنه ، وكان رجلا في الأربعين قد زایلته بهجة الشباب ، فمضى قيصر الى أنطاكية متأثقا محتفلا بنفسه ، ولكن عين الأميرة الشابة لم تكد تقع عليه حتى رجته أن يعود بأناقته واحتفاله من حيث جاء .

وبلغ الأمر بولدوين الثالث فأهمه ، ثم لم يلبث همه أن زاد بأخبار سيئة وودت عليه من امارة طرابلس ، ذلك أن الشقاق كان قد دب بين أميرها رايموند الثانى وزوجه هوديرنا وهى خالة بولدوين وأخت الملكة مليزاند . فقد كانت هوديرنا امرأة طائشة تتحدث الألسن عنها بما لا يحسن ، حتى وقع الشك فى نسب

ابنتها الى زوجها فوضعها في حجرة وأغلقها عليها ، فاستغاثت بابن أختها ، فأقبل وأصلح ذات البين ، ثم اتجه الى أنطاكية ولام كوستانس على مسلكها ، وجمع نفرا من الأشراف لاقناعها بالعدول عما هي فيه ، فأبت ، وأصرت على أن تبقى بلا زوج . وعاد بولدوين الى طرابلس ، ليستصحب خالته الى بيت المقدس ، لتقضى عنده أجازة تستريح خلالها من العناء الذي لاقته مع زوجها . فلما فصل بولدوين الثالث من طرابلس ومعه خالته ، خرج راييموند الثاني لوداعهما ، فلما كانت الجماعة عند الباب الجنوبي للبلد اذ انتفض عليها نفر من الرجال قطعوا راييموند واثنين من فرسانهم فأردوهم قتلى . فأصبحت طرابلس هي الأخرى بغير أمير ، ورجعت هوديرنا لتحكم الامارة وصية على ابنها بوهيموند الثالث .

وعاد بولدوين الثالث وأمه الى بيت المقدس ، فطلب أن يتوج ملكا اذ أنه بلغ سن الرشد ، وأصرت أمه على أن يتوج معه . وأيدها في ذلك صاحبها منسى وأنصاره ، وكافوا كثيرين . فما كان من بولدوين الا أن اقتحم الكنيسة مع نفر من فرسانه وأرغم البطريق على تتويجه وحده . وثار أنصار الملكة ، وكادت الحرب تقع بينهم ، وأخيرا اتفقوا على أن تكون ناحية الجليل وشمالي المملكة لبولدوين ، وبيت المقدس ونابلس للملكة . وكان هذا

حلا أخرج لا يقنع به الملك ولا تنتظم به الأمور ، فتجدد النزاع وأرغمت هذه العجوز مليزاند على أن تعتزل السياسة وتكتفى بخراج بلدة نابلس ، ثم عزل صاحبها منسى ، وأقيم مقامه رجل يسمى هثفروا تورون من أصحاب الملك . وأعطيت يافا لأماريك ، الأخ الأصغر لبولدوين الثالث ، وهو المعروف عند المسلمين باسم أمورى (سنة ١١٥٢/٥٤٦) .

وكانت هذه الخلافات الداخلية ذات وقع عظيم لنور الدين ، إذ أنه في ذلك الحين كان قد مضى في تنفيذ خطته للاستيلاء على دمشق ، وخاصة بعد موت معين الدين أنر ، فتمكن من إرغام مجير الدين وأصحابه على الاعتراف بسلطانه على دمشق وخطبوا له فيها و ضربوا السكة باسمه على ما رويناه .

وخلال الشهور الأولى من حكومة بولدوين الثالث كانت أمور الفاطميين تسير من سيئ إلى أسوأ ، فإن الخليفة الأمر قُتل بعد مصرع وزيره الأفضل بن شاهنشاه بقليل ، وأقبل من بعده الخليفة الحافظ ، أبو الميمون عبد المجيد . ومن غريب المفارقات أنه ولد في عسقلان حتى كان يخاطب قبل الخلافة « بالأمير عبد المجيد العسقلاني ابن عم مولانا » وهو الذى أهمل أمر عسقلان حتى ضاعت بعد أيامه بقليل ! ذلك أنه كان رجلا سيئ التدبير لا يحسن

اختيار رجاله ، فما زال يبدل الوزراء حتى انتهى رأيه الى أن يجعل الوزارة في أولاده ، فلم يكن حظه معهم بأحسن منه مع غيرهم ، اذ ثار عليه ابنه حسن وطلب هلاكه حتى استخفى ، ثم تمكن الحافظ منه وقتله .

وفي أثناء ذلك كانت المجاعة قد ضربت بجرانها على البلاد ، وعلت الأسعار ، واضطر الحافظ الى أن يسحب جانبا كبيرا من الحامية المصرية في عسقلان ، فضعف أمرها ، وطمع فيها أهل مملكة بيت المقدس ، خاصة وقد أهمل الأسطول ، ولم يعد هناك أمل كبير في أن يستطيع انجاد هذا الثغر اذا تهدده الخطر ، ومات الحافظ عن سبع وسبعين سنة حكم منها تسع عشرة (١١٥٠/٥٤٤) ، وخلفه ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل ، وكان أضعف من أبيه وأسوأ رأيا ، وقد غلب عليه وزراؤه نجم الدين بن مُصْـالَـه اللكي ثم أبو الحسن علي بن السَّـلَّـار وركن الدين العباس بن أبي الفتوح ، ووقع النزاع بين هذين الأخيرين وبدا بوضوح أن أمر الدولة كله الى زوال .

وشرعت نفس بولدين الثالث الى الاستيلاء على عسقلان ، فقد كانت شوكة في جنب بلاده تصل اليها أساطيل الفاطميين بالأمداد والأقوات ، فيخرج رجالها للغارة على ما قرب منها من

البلاد ، ثم انها كانت محطة على الطريق بين الشام ومصر وملجأً للقوافل والسفار ، فبدأ بولدوين يحصن غزة ويشحنها بالأمداد ويشكها بالمقاتلة تمهيدا للهجوم على عسقلان . وبلغت الأخبار مصر واهتم لها الوزير ابن السلار ، فاستقر رأيه على الاستنجاد بنور الدين ، وكان فى ذلك الوقت معسكرا الى جوار دمشق . وكان أسامة بن منقذ مقيما فى مصر اذ ذاك ، فوقع اختيار ابن السلار عليه ليقوم بالسفارة لدى نور الدين ، فذهب اليه وطلب اليه باسم الخليفة الظافر أن يقوم بغارة على اقليم الجليل تشغل بولدوين عن عسقلان .

ولو كان نور الدين يثق فى الفاطميين وسفيرهم لما تردد فى القيام بالغارة المطلوبة ، ولكنه كان يعلم أنهم حفنة من الفاسدين المتعاونين مع الصليبيين لا يؤمن جانبهم ، ولعله يغامر بنفسه وجنوده فيجد الظافر ووزيره وسفيره قد ائتمروا عليه مع الصليبيين بليل ، فأثر ألا يستجيب الى هذا الطلب ، ونفسه تفيض بالألم لمصير هذا الشر الاسلامى الهام الذى لا يستطيع نجاته ، اذ كان أصحاب دمشق لا يزالون على عنادهم لا تحفزهم عاطفة كريمة على التخلي عما هم فيه والانضمام لجبهة الكفاح . ولم يكن نور الدين ليأمن أن يتجه نحو عسقلان مخلفا أولئك الناس فى ظهره .

وكر أسامة بن منقذ عائدا الى مصر ، فألم بعسقلان وأقام فيها سنتين ، ثم عاد الى مصر ليشهد مأساة مصرع الوزير ابن السلار على يد قريبه وخليفته في الوزارة العباس بن أبى الفتوح .

*

وعلى اثر ذلك ، فى ٢٨ شوال سنة ٥٤٧/٢٢ يناير ١١٥٣ نهض بولدوين بكل من أمكنه جمعه من الفرسان والمشاة وأدوات الحرب والحصار واتجه نحو عسقلان ، وخرج فى الحملة رئيسا الداوية والاستبارية بخير رجالهم ومعظم الأساقفة ورجال الدين ، وحمل بطريق بيت المقدس قطعة من خشب كان رجال الدين قد أوهموا الناس أنها بقية الصليب الذى عذب عليه السيد المسيح على قولهم .

وكانت عسقلان اذ ذاك كالحصن الشامخ يدور حولها سور يمتد داخل البحر فى نصف دائرة كأنه درع يقيها هجمات البحر ، وكان فيها من الأقوات والذخائر « مالا يحصر فيذكر » ، كما يقول أبو شامة راويا عن ابن القلاسى .

وأقام بولدوين محاصرا لها بضعة أشهر لا يستطيع حيالها شيئا ، ثم أقبلت طائفة من حجاج النصارى من ناحية غزة وانضمت الى جيشه فزاد عدده ، واجتهدت حامية عسقلان فى دفع الخطر ،

ققامت بكرة على معسكر المحاصرين لم توت نتيجة ، ثم وصلت
 بضع مراكب من الأسطول الفاطمي فاستقوى بها العسقلانيون
 وأرسلوا يستنجدون بنور الدين محمود ومجير الدين آبق صاحب
 دمشق ، فتحمس نور الدين ودعا آبق والدمشقيين الى الخروج
 معه . وجمع هو « من سائر الأعمال والبلدان للغزو في أحزاب
 الشرك والطغيان لنصرة أهل عسقلان على الافرنج النازلين عليها » -
 والتقى نور الدين ومجير الدين عند حصن افليس ، على الطريق
 بين معرة النعمان وحلب ، وكان نور الدين قد فرغ من الاستيلاء
 عليه ، ومضى الاثنان نحو بانياس ليحجرا بولدوين على رفع الحصار
 عن عسقلان ، والاسراع لتدارك بلاده ، ولكن نور الدين أحسن
 من ناحية حليفه بما أوقع الشك في نواياه ، وأدرك أن التعاون
 معه لا يؤمن ، وزاده ايمانا بذلك أن بولدوين لم يتحرك من موضعه
 ولا خاف على بلاده ، فاستيقن نور الدين أن هناك أمرا مبيتا بين
 بولدوين ومجير الدين وزجاله ، فآثر العودة الى حلب وتجنب
 جنده مالا تحمد عقباه ، وانصرف مجير الدين كذلك الى دمشق .
 ومن البديهي أن رجلا مثله يبلغ به التفريط في بلاده المبلغ
 الذي رأيناه لا يصدق اذا زعم أنه خارج لنجدة بلد ليس له هو
 عسقلان . ثم أقبل أسطول فاطمي كبير من سبعين سفينة محملة

بالرجال والأمداد ، وحاول جيرارد الصيداوى قائد الأسطول الصليبي أن يعترضه ففشل ، وأرست المراكب الفاطمية فى ميناء عسقلان ، وأفرغت حمولتها وعادت أدراجها نحو مصر ، واستمر الحصار .

واستعان الصليبيون على الثغر الحصين ببرج ضخى من الخشب يعلو على سور البلد ، أخذوا يقذفون منه الحجارة الضخمة وكرات القطن والخرق المبللة بالنفط المشتعل ، فتهدم البيوت وتشعل فيها النيران . وفى احدى الليالى تسلل نفر من المدافعين فأشعلوا النار فى البرج الهائل ، ولكن قضاء الله المحتوم أراد أن تهب الريح فتدفع باللسنة اللهب نحو حائط السور المقابل فاحترقت الحجارة وهشت ، وما أصبح الصباح حتى انهار جانب منه وانشلم السور ثلثة واسعة ، وكان فرسان جماعة الداوية على مقربة من ذلك الموضع ، فزعموا أنهم أصحاب الفضل فى ذلك ، وأصروا على أن يكونوا هم الذين يأخذون البلد ، ومنعوا غيرهم من الدخول ، ثم نفذ أربعون منهم من الثغرة ، فأحاط بهم المدافعون وقتلوهم عن آخرهم وألقوا بجثثهم الى أصحابهم المحاصرين ، ثم أسرعوا فرموا الثغرة وعادوا الى الدفاع .

وعقد الجانبان هدنة قصيرة ليدفن كل منهما موتاه ، وفى أثناء

هذه الهدنة عقد بولدوين الثالث مجلسا في خيمته ليتدارس الموقف مع رجائه ، ومال نفر من البارونات الى رفع الحصار وترك البلد ، ولكن بطريق بيت المقدس وهو رايموند لى پوى الفرنسى أصر على ضرورة الاستمرار ، وأيده فى ذلك رئيس الداوية ، وما زال رجل الدين هذا يحرض أعضاء المجلس على الاستمرار فى الحصار والاشتداد على البلد وأهله بحجارة المنجنيق والقذائف الملتهبة حتى أقنعهم ، فعادوا يقصفون البلد على أعنف الصور وأقساها ، حتى تصاعدت ألسنة اللهب فى كل نواحيه ، وأيس أهله من المدد ، فطلبوا التسليم ، فأجيبوا اليه على أن يخرج الناس ويمضوا الى مصر سالمين لا يأخذ أحد منهم الا ما يستطيع حمله .

وبينما كان المسلمون يغادرون البلد دخل الصليبيون وتمكنوا من قلعة عسقلان واستولوا على ما وجدوه فيها من مئونة وافرة وسلاح كثير . ثم حولوا جامع البلد الى كنيسة سموها كنيسة القديس بولس ، وضمت هذه الكنيسة الى أسقفية بيت لحم ، وأقام الملك أخاه الأصغر أمالريك (أمورى) — وكان كوتنا ليافا — حاكما على البلد .

هكذا استولت مملكة بيت المقدس على آخر حصون الفاطميين فى الشام وأمنعها . وكانت عسقلان خلال السنين الخمسين الماضية

درة مدائن الاسلام فى جنوب الشام حتى كانت تسمى « عروس الشام » ، وقد أدت حاميتها أجل الخدمات فى محاربة الصليبيين ، ولهذا فقد كان لسقوطها فى يد الأعداء دوى عظيم ، وارتفعت به هامة بولدوين الثالث حتى أعاد الى أذهان الصليبيين ذكريات عصرهم الذهبى أيام بولدوين الأول والثانى .

وكان هذا الانتصار أيضا آخر انتصار كبير لهذه المملكة ، وبعد ذلك بدأ الانحدار السريع ، لأن نور الدين تبين أن مملكة بيت المقدس لازالت تملك من القوة ما تستطيع أن توجه به الضربات القاسية ، اذ قد لجأ اليها الكثيرون من فرسان البلاد التى استولى عليها المسلمون فتضاعف عدد فرسانها ومقاتليها ، ثم ان رجال الكنيسة اللاتينية فيها — ومعظمهم فرنسيون — كانت قلوبهم تنطوى على حقد متفجر مؤذن بالضرر الشديد ، ولا سلام ولا أمان الا اذا قضى على هذه المملكة الواغلة عليهم ، وستكون هذه رسالة نور الدين فيما بقى له من أيام العمر ، ورسالة صلاح الدين عمره كله .

وبينما كان نور الدين يدير الراى فى حسم هذا الداء ، بما عرف عنه من بعد النظر وسلامة التفكير واحكام الخطط ، كان مجير الدين آبق ورجاله يسرعون بطاعتهم الى بولدوين الثالث ،

وقد أُرهبهم مظهر القوة الذى بدأ فى حصار عسقلان والاستيلاء عليها ، فقرر عليهم جزية سنوية ، وبعث رجاله يجمعونها داخل البلد على مذكرناه ، وأخذ فرسانه يجوسون خلال بلاد امارة دمشق ينهبون ويحرقون ويقتلون ، ومجير الدين ومن معه مصرون مع ذلك على الاستقلال عن نور الدين ، وصدق من قال : ان الانحطاط البشرى لا يعرف حدودا — وكان من نتيجة ذلك أن قرر نور الدين أن يضرب ضربته التى تريت طويلا قبل أن يقدم عليها ، فدخل دمشق بالقوة ، وضمها الى جبهة الكفاح والنضال ، وأبى خلقه الكريم الا أن يفى لمجير الدين بما وعده به اذا هو سلم قلعة دمشق ، فأقامه على حمص ، ثم بدا له ما اقتضى نقله الى بـالس ، ثم خاف الرجل على نفسه ، فمضى الى بغداد ، حيث عاش خاملا الى أن أدركه الموت .

وليت نهاية مجير الدين كانت آخر متاعب نور الدين مع اخوانه المسلمين ! ما زال فيهم من لم تسمح نفسه بأن يدع هذا المجاهد يتوجه بقواه لاتمام ما عول عليه من السير بالجهاد الى نهايته ، وأصر على أن يشغله عن الغرض العظيم : ما كاد نور الدين يطفىء جمره أصحاب دمشق حتى نهض قلج أرسلان الثانى سلطان سلاجقة آسية الصغرى يطمع فى شىء من أملاك نور الدين فى الشمال ،

واستعان في ذلك بال دانشمند والصليبيين ، ولكن نور الدين أوقع به الهزيمة وانتزع منه كل ما كان قد أعطاه إياه من بقايا امارة الرها .



وفي أثناء ذلك كله لم يكف نور الدين شهرا عن الخروج للغزو . كان أمن البلاد اذ ذاك معقودا بنشاط الحاكم ، فاذا توقف عن التجوال في نواحي بلاده والالمام بالعواصم والمعاقل لم يأمن أن يخرج عليه بعض ولايتها ، ولو كانوا أقرب الناس الى الأمير ، وكذلك الحدود كانت سلامتها رهينة باستمرار المراقبة فيها وموالاته الغزوات منها في أرض الأعداء ، لا هدنة تدوم ولا محالفة تقعد العدو عن اقتراس بلد حليف اذا أنس منه تراخيا عن الدفاع .

ثم ان أعداد جيوش نور الدين كانت تتزايد كل يوم ، وكل رجالها راغبون في الحرب ناظرون الى ما فيها من ثواب ومغانم ، ولم يكن يستطيع أن يدع هذه الجموع خالية من العمل فترة من الفترات ، فما هو الا أن يعود من غزوة حتى ينهض بالتي تليها ، حتى أنهك هذا النشاط المتصل بدنه وسار به نحو المشيب قبل أوانه .

وينبغي أن نذكر أن حملات هذه العصور كانت طويلة ،

تستغرق الواحدة منها الشهر والشهرين ينقضى معظمها على صهوات الخيل ، أما الراحة فلا تصاب الا لما ، ساعة هنا وساعة هناك ، بالليل أو بالنهار ، وأما النوم فكان في خيام جافية مفتحة الجوانب يحوم حولها الجند والفرسان والخيول والحرس والخدم محدثين من الضوضاء ما يحول دون النوم المريح الذى يتطلبه البدن .

وقد كان نور الدين زاهدا في النعيم قلما يستريح الى فراش وثير ، وكان مهما استأخر به النوم لا يأذن لجنبه أن يمس الفراش الا اذا صلى فأطال الصلاة ، قفلت ساعات نومه وزاد جسده جهدا ، ثم انه كان زاهدا في الطعام فلا يصيب منه ما يكفيه ، اذ كان كغيره من أصحاب الرسالات يعيش بايمانه وقوة روحه لا بجسده وقواه ، فلا عجب أن بدأت صحته تضعف حتى بدا وهو فوق الأربعين بقليل وكأنه شيخ في الستين ، وسرى أثر ذلك الاجهاد بعد قليل .

وكانت سنة ٥٥٢ والتي تلتها (١١٥٧ - ١١٥٨) فترة عصيبة على الشام كله ، فقد دهمى بسلسلة من الزلازل توالى في تلاحق وقسوة كأنما مادت الأرض بما عليها ، وقد بدأت الهزات في حلب في أواخر جمادى الأولى سنة ٥٥٢ واستمرت موجتها الأولى حتى

نهاية الأسبوع الأول من جمادى الثانية ، فانهارت المنازل فى حلب وحماه وكفر طاب وحمص وأقامية وشيزر على من فيها ، ثم عادت فى أوائل رجب وأثرت فى دمشق أثرا بالغا حتى هرب الناس من الدور ، وتصدعت حوائط الجامع الأموى وتناثرت فصوص الفسيفساء التى تزين ما حول الصحن ، واستمرت الهزات تغدو وتروح أياما متوالية .

وبلغت المصيبة غايتها فى حماه ، حتى نسبت الزلازل كلها إليها فقيل « زلزال حماه » . قال ابن القلانسي فى « ذيل تاريخ دمشق » : « وقد انهدمت حماه وقلعتها وسائر دورها ومنازلها ، على أهلها من الشيوخ والشبان ، والأطفال والنساء ، وهم العدد الكثير والجم الغفير ، بحيث لم يسلم منهم الا القليل اليسير . وأما شيزر فان ربضها سلم الا ما كان خرب أولا ، وأما حصنها المشهور فانه انهدم على وإليها تاج الدولة بن أبى العساكر بن منقذ ومن تبعه ، الا اليسير ممن كان خارجا » ، وكان من بين هذا اليسير الذى نجا أسامة بن منقذ ، لم يبق بعد هذه النازلة من كبار أهل بيته سواه ، واستمرت هذه النازلة الى رمضان .

وقد شغل المسلمون والصليبيون جميعا بهذه الزلازل خلال هذين العامين ، اذ أن الكارثة امتدت من قبرص الى حلب ومنها الى

جنوبى بيت المقدس ، فانصرف الناس الى اعادة بناء ما تهدم من البيوت والحصون والأبراج . ولكن نور الدين ورجاله لم يدعوا الوقت يمضى دون جهاد ، ومطولات تاريخ هذه الفترة حافلة بأخبار عشرات الانتصارات التى كتبت لسرايا نور الدين وغزوات رجاله ، وقد حال هذا النشاط بين الصليبيين وبين النظر الى ما يلى عسقلان جنوبا من بلاد الخلافة الفاطمية .

وكان نور الدين حريصا كذلك على أن يلم بالمدائن المنكوبة ، لينظر فى أمر اعادة بناء ما انهدم من بيوتها وأسوارها وقلاعها ، وليعين المنكوبين من أهلها بالمال الكثير ، والمواساة تصدر عن قلب رحيم .

وتأثرت نفس نور الدين بما رأى من آثار النكبة فى كل مكان، واشتد اشتغال باله بأمر الثغور. خلال سنة ١١٥٧/٥٥٣ ، حتى لنجده فى حركة دائمة بالليل والنهار ، فاذا أتيت له لحظة سكون طلب المكاتبات الواردة من الأطراف والرسائل التى يأتى بها الحمام الزاجل فيقرؤها واحدة واحدة ، ويتخذ فى كل شأن ما يراه ، وكثيرا ما كان يحدث أن ينزل ليريح ، ويعد له الفراش ، فلا يلم به، وانما ينهض من مجلسه ويتجه نحو حصن أو ناحية فيواصل الركوب أياما وليالى متتابعة ، ثم يخوض معركة حامية ويعود

أدراجه كأنما كان يحسب أن الله رزقه جسدا من حديد .
وقد بدأت علائم الاجهاد تظهر على نور الدين من أوائل
سنة ٥٥٢/١١٥٧ ، ولكنه استمر على نشاطه كأنه لا يحس شيئا ،
ثم تقل جسمه شيئا في أوائل جمادى الأولى ، وطلب الراحة ، ولكن
رسائل يحملها حمام الزاجل سقطت على معسكره في التاسع من
ذلك الشهر بأن بولدوين الثالث خرج في جند كثيف يغير على
اقليم حوران ، وأنه عسكر عند الملاحه ، قرب الركن الشمالى من
بحيرة الحولة ، بين طبرية وبانياس ، واستعد لغارة عنيفة على أرض
المسلمين ، فنهض اليه في عسكره .

فلما أطلت عليه رايات جيش نور الدين تهيأ للحرب ، وجعل
جيشه أربع فرق ، فعلم نور الدين أنها خطة رسموها وأنهم يبتوا
أمرا عظيما ، فترجل عن فرسه تأهباً لخوض غمار المعركة والسيف
في يده ، فكان لعمله هذا أثر السحر في رجاله ، فترجل كبارهم
وجردوا سيوفهم ، ثم دخل المعركة ورجاله من خلفه وحوله ،
واتصب رماة جيشه يصبون سيلا من السهام على الأعداء ، وأقبل
أصحاب الرماح يطعنون فرسان الصليبيين المحصنين بدروع
الحديد فيلقون بهم عن خيلهم ، فلم تلبث قواتهم أن زلزلت زلزالا
شديدا ، وأعمل المسلمون فيهم السيوف ، فاستأثر منهم مئات

وفر بضع عشرات وهلك الباقون ، وكان من بين الفارين بولدوين الثالث ، هرب الى قلعة صفد واحتسب فيها ثلاثة أيام ، ثم خرج مستخفيا الى عكا ، ولم يأمن على نفسه الا بعد أن دخلها ، وكان من بين الأسرى برتراند دى بلانكفورت رئيس الداوية .

وعاد نور الدين بالأسرى والغنائم الى دمشق ، فدخلها في موكب حافل خرجت له دمشق كلها لتملا عينيها من جيش الاسلام المظفر ولتحمد الله على ما أفاء على رجل الاسلام المجيد من نصر عزيز .

أما نور الدين فقد كان الجهد قد بلغ به مداه ، وكان حقيقيا بأن يأذن لجسده في شيء من الراحة ، ولكنه اتجه نحو أنطاكية وأخذ يتأهب للهجوم عليها ، فاذا هو في ذلك أحس ديب المرض يسرى في جسده ، ثم دهمته العلة دفعة واحدة ، فاشتدت به الحمى ، وتضعف كيانه حتى أرجف الناس بموته لعدة أيام من رقاذه ، ثم أفاق شيئا فاستدعى أخاه نصرة الدين وقائده أسد الدين شيركوه وبقية رجاله ، وأوصى لأخيه هذا من بعده على أن يكون مقامه في حلب ، وينوب عنه أسد الدين في دمشق . وخاف أن تنزل به المنية في موضعه هذا بازاء الأعداء فطلب أن يحمل في محفة ويسار به الى حلب ، فوصلها ورقد يتمرض في قلعتها .

وترددت أنباء مرضه فاضطربت الأمور ، وتشجع رجال مملكة بيت المقدس فهجموا على شيزر ودخلوها وقتلوا وأسروا من أهلها قهرا ، ولكن الناس تسارعوا لنجدها فأخرجوهم منها ، وبلغ من الهرج أن نصرة الدين عندما وصل الى حلب بعد أيام ليقوم مقام أخيه أثناء مرضه منعه مجد الدين بن الداية نائبها من دخول القلعة خوفا على نور الدين ، ووقع القتال بين الرجلين ونور الدين مسجى في فراشه ، ودامت الفتنة بضعة أيام .

ثم رفع الله غاشية المرض عن نور الدين فانتشرت البشري ، ودخل اليه نفر من أهل البلد فتحققوا من عودة العافية اليه ، وما زال التحسن يطرد حتى أبل من مرضه وارتدت اليه صحته ، فاستدعى أسد الدين شيركوه وشكره على وفائه له أثناء مرضه ، والتمس العذر لمجد الدين بن الداية فيما فعل ، وولى أخاه نصرة الدين اقليم حوران وصرفه اليه ليتابع الجهاد .

ثم عاود المرض نور الدين مرة أخرى أوائل سنة ١١٥٤/٥٥٩ ولكن الله لطف به فأبل بعد قليل ، وقد عاين أثناء هذه المروضة انسانية من خيانة نفر من رجاله ما يذهب صبر الحليم ، فقد اتصلوا بأخيه نصرة الدين ودعوه الى الاسراع الى دمشق ليسلموا له البلد فما زاد الرجل على أن أمر باعتقالهم ، ولو أمير غيره لفعل

بهم الأفاعيل ، ولكنه كان واسع الحلم شديد الكراهة لاراقة دماء المسلمين ، أما أخوه نصره الدين الذى أسرع ليغتم الفرصة ، فقد صرفه ولم يمسه بأذى ، واستقر رأيه على أن يكون خليفته أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة القراتية ، وأقضى الى خواص رجاله بذلك . وقد أظهر جمال الدين محمد بن على وزير قطب الدين من الكياسة وبعد النظر فى هذه المناسبة ما زاد نور الدين به اعجابا .

*

وفى هذه الأثناء كانت الأمور تتطور حول بلاد نور الدين تطورا بعيد المدى ، فان كونستانس أرملة رايموند دى پواتيه التى رويننا طرفا من أخبارها مع خاطبيها استقر قلبها آخر الأمر عند فارس ممن تخلفوا بعد الحملة الصليبية الثانية يسمى رينو دى شاتيون ، فأرسلته الى بولدوين الثالث ، وكان معسكرا عند عسقلان ليستأذنه فى الزواج منها ، فأذن له ، وتم الزواج . ولكن مانويل كومنين لم يرض عنه ، وكأنما كان لا يزال يرجو أن تنزوج الأرملة أحد رجاله ، فتعود أنطاكية اليه .

ولكن الخبر وصله بعد أن كان كل شيء قد تم ، فأراد ألا يفلت الأمر دون أن يغتم منه شيئا ، وبعث يقول انه مستعد للموافقة اذا

قام رينو بحملة على بلاد الأرمن ، ورد ملكهم توروس ، وكان قد أوغل في أرض أنطاكية حتى بلغ اسكندرونة ، فعجل رينو بالقيام بالحملة المطلوبة ، واسترد اسكندرونة من الأرمن ، وسلمها الى فرسان المعبد ، وارتبط معهم من ذلك الحين بصداقة عادت بالوبال عليه وعلى الصليبيين بعد ذلك .

وكان مانويل قد وعد رينو بمال اذا هو رد الأرمن ، فلما قام الرجل بما طلب اليه سأل أن يبعث اليه بالمال فماطل وتعلل ، فما كان من رينو الا أن حالف توروس واخوته وغزا معهم أرض ميزنطة . وأراد أن يمعن في عقاب الامبراطور فقرّر غزو قبرص ، واحتاج الى المال ، وكان ايمرى بطريك أنطاكية رجلا موسرا محتجنا للمال ، ولكنه كان فاسدا منحل الخلق ، فطلب اليه رينو أن يقرضه قرضا حسنا ، فرفض ايمرى أن يقدم قرضا حسنا أو غير حسن ، فقبض عليه وأمر به فضرب على رأسه ضربا موجعا ، ثم قيد بالسلاسل وصب عليه العسل وطرح على سقف القلعة فتقاطرت عليه الهوام ، وقضى في هذه المحنة يوما وليلة ، ولم يطق أكثر من ذلك ، فأعطى المال . وريع بولدوين الثالث للخبر ، فأرسل من أتاه بالبطريق فأكرمه وواساه .

وعجل رينو دى شاتيون فعبّر الى صقلية مع حلفائه الأرمن ،

وقهر حاكمها البيزنطى ، ابن عم الامبراطور ، وأسره ، ثم مضى
ينهب كل ما صادفه من قرية أو بلد أو بيت أو كنيسة ، حتى
ديارات الرهبان دخلها زجاله ونهبوا ما فيها . ثم طلبوا من الحاكم
أن يؤدى لهم مالا جسيما ليرحلوا ، ولم يكن قد بقى فى البلد مال ،
فأخذوه وقائد الحامية والقساوسة وسروات البلد والرهبان ، وعادوا
بهم أسرى الى أنطاكية ، واحتفظوا بهم حتى يدفع الفداء .
وكان المرضى قد اشتد اذ ذاك بنور الدين ، فاتهز بولدوين
الثالث الفرصة وخرج ليغزو شيزر على ما قلناه ، وكان البلد قد
تهدم فلم يستطع المقاومة ، ولكن رينو كان قد أسرع للاشتراك
فى الحملة ، فلما ظهرت طلائع النصر اختلف مع بولدوين ، فقد كان
هذا يريد أن ينشئ فيها امارة تابعة لبيت المقدس يولى عليها
تيبرى دى فلاندر ، وطمع فيها رينو بحجة أن بنى منقذ كانوا
أتباعا لأنطاكية ، واشتد الخلاف ، فانسحب بولدوين الى بيت
المقدس ، وفى طريق العودة استولى على حارم ، فتشبث بها رينو ،
فولى عليها بولدوين الثالث أحد فرسان تيبرى وأذن له فى أن يكون
تابعاً لرينو ، وعاد الى بيت المقدس وهو يفكر فى وسيلة ينتقم بها
من ذلك الشرير رينو دى شاتيون الذى لا تقف روعته عند حد .
ورأى بولدوين أن أقصر الطرق وأوفاهها على الغاية

المقصودة هي محالفة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين على هذا العاصى ، فخطب ابنة أخته وتزوجها ، وكانت أميرة جميلة في الثلاثين من عمرها فرح بها بولدوين وأقطعها ناحية عكا بائية لها ، ويبدو أنهما اتفقا على محاربة نور الدين ، ورينو دى شاتيون معا ، لأن بولدوين أسرع بالايغال في أراضي نور الدين حاسبا أنه ما زال في فراش المرض ، فما راعه الا وخصمه العنيد في انتظاره عند البطيحة ، فأحجم عن اللقاء ، وكان نور الدين لا يزال ناقها لا تمكنه قواه من خوض معارك طويلة ، فاتفق الاثنان على أن يتهادنا ، وأمنت حدود نور الدين الجنوبية لبضع سنوات ، واتسع الوقت أمامه للنظر في أمور الشمال (سنة ١١٥٨/٥٥٣) .

وكان الامبراطور مانويل قد عجل بالمسير نحو توروس ملك الأرمن في خريف ذلك العام ، فوصل طرسوس وفجأها ، فجمع توروس أهله وأمواله وهرب الى الجبال . ثم تأهب للمسير نحو أنطاكية ، فرعب رينو دى شاتيون للخبر ، وأحس أن ساعة القصاص قد دفت ، فأسرع — على عادة أولئك الناس من الذلة أمام القوة — وعرض أن يدع حامية الامبراطور تحتل قلعة أنطاكية في مقابل تركه أميرا لها . ولكن الامبراطور رفض ، فقد كان يريد أن يذهب في اذلاله الى أبعد مدى ، فما كان من ذلك المتجبر الطاغى رينو

ألا أن أسرع بلبس ملابس التوبة ، وهى خرقة صوف ، ووقف حافيا على باب معسكر الامبراطور عند المصيصة يلتمس العفو !
ومال نور الدين الى تأييد الامبراطور ، فقد كانت الامبراطورية جارا قديما للمسلمين ، عرفوها وعرفتهم واستقرت الأحوال بينهما على نحو لا يهدد سلامة دار الاسلام مهما بلغت العداوة بين الجانبين . ثم ان المسلمين عرفوا دائما كيف يردون الامبراطور عن بلادهم ، وكان تقدمهم فى آسية الصغرى متصلا منذ استقر فيها سلاجقة الروم ، فلم ير بأسا بترك الامبراطور يستعيد سلطانه على أنطاكية وينزع عنها الصليبيين أو يضعف قبضتهم عليها على الأقل .
وقد حمد له الامبراطور هذا الموقف ، وبعث اليه بهدايا من الديباج والجوهر والخيول وتعهده بألا يمس أرض المسلمين .

وترك الامبراطور رينو واقفا ببابه حافى القدمين حاسر الرأس بعض الوقت ، فلما أدرك أنه بلغ الغاية من اذلاله أذن له فى الدخول ، ثم تركه واقفا خاشعا بين يديه بضع دقائق تشاغل أثناءها بالحديث مع غيره ، ثم « تفضل » وعفا عنه ورضى أن يبقيه أميرا على أنطاكية على ثلاثة شروط : الأول أن تحتل حامية بيزنطية قلعة أنطاكية ، والثانى أن يقدم رينو فرقة من جنده لجيش الامبراطور ، والثالث أن يحل بطريق أرثوذكسى محل الكاثوليكي فى الرئاسة

الدينية للبلد . وقبل رينو ذلك ، وأقسم على أن يبر بعهدده وانصرف عائدا الى أنطاكية .

وكان بولدوين الثالث لا يحسب أن اذلال أمير أنطاكية يبلغ الى درجة التضحية بالطريقة الكاثوليكية ، فأسرع ولقى حليفه البيزنطى ، ولم يزل يحاوره حتى وافق على أن يؤجل تنفيذ هذا الشرط ، وعاد ايمرى الى بطرقة أنطاكية وتصالح مع رينو .

ثم دخل مانويل أنطاكية دخول الظافر ، وفصل عنها عائدا الى بلاده . وكان الصليبيون قد رجوا أن يحمل على حلب ، ولكن مانويل لم يكن الغر الذى حسبوه ، فما كان ليفكر فى مهاجمة عرين الأسد ، بل خيب ظنونهم والتقى مع سفارة من نور الدين واتفق مع رجالها على هدنة طويلة . وقد غضب الصليبيون لذلك ، وزعم نفر من المؤرخين الأوروبيين المحدثين — وبخاصة الفرنسيين — أن مانويل خان النصرانية بذلك ، وما هى الا أوهام الحقد على الاسلام وأهله توارثها هذا نفر من الغربيين جيلا عن جيل .

وما كان مانويل ليجرؤ على النظر الى أرض نور الدين ، الا اذا كان غيبا كهذا رينو دى شاتيون ، الذى ستدفعه الغفلة بعد قليل الى ركوب هذا المركب الوعر ، ليجد نفسه أسيرا فى يد الزعيم المسلم العظيم . وكان نور الدين قد وافق على أن يطلق نفرا من أسرى الصليبيين لديه ، ولم يكن له بهم حاجة ، فقد كان معظمهم

من ألمان الحملة الصليبية الثانية ، وليس منهم من كبار الصليبيين
الا برتران دى بلانكفور رئيس الداوية ، وبرتران دى تولوز ،
فأطلق سراحهم . وكانت صحتهم جميعا قد تضعفت بطول
السجن ، ولم يعودوا يصلحون لشيء .

وكان نور الدين يرجو من وراء ذلك أن يصيب هدنة من
المشاغل المتلاحقة ، لينظر فى أمر خطوته التالية بعد دمشق ، وهى
ضم مصر واراخة الفاطميين من آلام النزاع الطويل . فسكن بضعة
شهور ، ولكن قلج ارسلان سلطان سلاجقة آسية الصغرى أصر
على أن يحدث المتاعب ، فهاجم أراضى الدولة البيزنطية ، ثم انهزم
واضطر الى أن يعقد اتفاقا خاسرا مع مانويل كومنين ، ولم ير
نور الدين أن يشغل نفسه بأمور آسية الصغرى ونظره متجه نحو
الجنوب ، فترك الأمور هناك تجرى على علاتها .

وكأنما حسب رينو دى شاتيون أن ذلك ضعف من نور الدين،
فنهض فى خريف ١١٦٠/٥٥٥ واقتض على قطعان من الماشية
والجمال لنفر من المسلمين كانت ترعى آمنة فيما يجاور حلب ،
واستاقها وأخذ الطريق نحو أنطاكية ، كآى لص من لصوص
المواشى الذين تقرأ عنهم فى الأقاويص . فاذا هو فى بعض الطريق ،
وقد أمن وامتلات نفسه رضا عما فعل ، اذ بكمين قد خبأ له

مجد الدين بن الداية — نائب نور الدين على دمشق — يخرج عليه ويأخذه أسيرا كأنه رأس من رءوس الماشية التي استاقها . وأرسله مجد الدين الى حلب مقيدا محمولا على جمل ، وهناك ألقى به في سجن ظل فيه ستة عشر عاما .

وهكذا عادت كونستانس الى ما كانت عليه قبل زواجها بذلك المغامر ، فقررت ألا تجرب حظها مرة أخرى في الزواج ، وأقامت نفسها أميرة وصية على ابنها الصبي بوهموند الثالث المنبوز بالثقليل اللسان . وزادت نفسها رضا بعد قليل ، اذ تزوجت ابنتها مارية من الامبراطور مانويل كومنين ، بعد وفاة زوجه الامبراطورة ايريني ، وكانت ألمانية من أميرات سالتنباخ .

وفي أوائل سنة ١١٦٢/٥٥٧ نزل المرض ببلدين الثاني ملك بيت المقدس ، وكان كما رأينا رجلا عفيا نشيطا لا تخمد له حركة ، وكان اذ ذاك شابا في الثالثة والثلاثين ، ولكن الدوستاريا كانت قد تمكنت من كبده وأمعائه ، فألم بيروت ليتمرض فيها ، وعجل رايموند الثالث صاحب طرابلس ، فأرسل اليه طبيبا سريانيا ، فلم يكد المريض يتناول دواء الطبيب حتى انهدت قواه ، وأسلم الروح في ٢٣ صفر سنة ٥٥٧/١٠ من فبراير سنة ١١٦٢ ، وقد عجب الناس من أمر هذا الموت المفاجيء ، وشكوا — وربما كانوا على حق — في دواء الطبيب السرياني .

وتولى أمر مملكة بيت المقدس أخوه أمالريك (أمورى)
صاحب يافا ، وكانت مواهبه أقل بكثير من مواهب أخيه . كان
شابا فى الخامسة والعشرين لم يعرف الى ذلك الوقت بفضيلة أو
خلق متين ، وكانت زوجه أجنيس دى كورتنيه — ابنة جوسلين
الثانى صاحب تل باشر فيما مضى — على شاكلته ، تلوك الألسن
اسمها ، فطلقها ليصل الى العرش . ولم يكن يتمتع باحترام من
رجالها ، فقد كان سوقى الطبع بعيدا عن الوقار ، ولكنه كان لا يخلو
من حزم وجراءة .

ويبدو أنه كان قد عقد العزم على الاتجاه بكليته نحو مصر ،
لأنه أسرع بتسوية الأمور فى الشمال ، فجدد الحلف مع الامبراطور
البيزنطى . ووافق على أن يتولى بوهيموند الثالث امارة أنطاكية ،
وكان قد بلغ سن الرشد وانتزع الأمر من أمه كنستانس بعد
خلاف طويل .

أما نور الدين فكان قد خرج الى الحج ، فأدى مناسكه وأوسع
على أهل الحجاز ، وكان قلبه معلقا بالخطوة التالية التى كان يتأهب
لها نصره للإسلام والمسلمين ، فدعا ربه متوسلا بصاحب القبر
والمقام صلوات الله عليه أن يكتب له التوفيق فيما يطلب من اعزاز
كلمة الله ، وعاد الى دمشق وأخذ ينظر مع أمرائه فى الخطة المثلى
لتحقيق هذا المشروع الخطير .



أكنمال لوحدة مصر في صفوف المجاهدين

أهوية في ظل أمن وغلبة وعيش كنوار الحملة فاعم ؟
دعواكم والحرب ترنو ملحاً إلينا بألحاظ النور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية تعطيل عليها الروم عض الأباهم
« أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى »

يبدو فتح مصر على يد نور الدين وكأنه مصادفة طيبة لقيته
في تاريخه ، ذلك لأن مؤرخينا انقدامى يروون الحوادث وكأنها
قطع منفصل بعضها عن بعض ، دون أن يحاولوا الربط بينها ، ولم
يخطر ببال أحد منهم أن يجمع أعمال نور الدين العسكرية على
نسق ، ثم ينظر فيها ليستخلص الخطة التي سار عليها في هذه
الأعمال ، وتابعهم في ذلك المؤرخون المحدثون الذين تعرضوا

لتاريخ نور الدين أو جانب منه ، فبدأ نشاط الرجل وكأنه نشاط فارس مغامر يضرب ضربة هنا وضربة هناك ، بل فاتهم أن يتبينوا العامل المحرك لنور الدين في نشاطه كله ، وهو إيمانه الديني العميق واحساسه بأن رسالته في الوجود هي جمع كلمة المسلمين واخراج الصليبيين من الشام .

ولم يكن ينتظر أن يعلن نور الدين خطته وأهدافه ، فذلك لا يتفق مع حكمة القيادة وأساليب أمثاله من الأعلام . ولكننا لو نظرنا في كل ما رويناه من فتوحه ، وتبعناه خطوة خطوة على الخريطة ، لتبيننا أن نشاطه كله كان خطة واحدة مرسومة في دقة وعن تدبر . وقد سار الرجل في تنفيذها سير القائد الحكيم المتدبر ، الذي لا تصرفه فرصة عابرة عن خطة مدبرة ، ولا يغامر بقواته في مظاهرات عسكرية قليلة القيمة ، بل لا يتأخر عن الانسحاب وتجنب جنده الهزيمة إذا أحس أن ما معه من القوات لا يكفي لتحقيق النصر المرموق .

ولا يتضح ذلك في أجلى معانيه مثلما اتضح في الخطة التي سار عليها لفتح مصر والقضاء على دولة الفاطميين فيها وضمها الى جبهة الكفاح . ولنمر — قبل أن نوجز الكلام عن هذه الخطوة — على فتوحه الماضية ونشاطه العسكري خلال عشرين السنة الماضية،

فقد تولى أمور حلب سنة ١١٤٦/٥٤٠ وكان البدء في تنفيذ مشروع فتح مصر سنة ١١٦٥/٥٦٠ ، أى وهو في الثامنة والأربعين من عمره (١) .

ولقد كان من القواعد الرئيسية التى سار عليها نور الدين أن يوجه قواه كلها نحو غاية واحدة في وقت واحد ، فلا يشغل نفسه بجبهتين في نفس الوقت ، ويحرص على ألا يجمع على نفسه عدوين في آن واحد ، فإذا كان في اشتباك مع بيت المقدس اجتهد في أن يكون على هدنة مع الدولة البيزنطية ، وإذا اتجه نحو هذه لم يسر الى الشمال الا وقد اطمأن الى سكون الجبهة جنوبى بلاده ، وهكذا .

وقد يتداخل بعض أجزاء خطة في أخرى ، ولكن ذلك التداخل لم يصرفه قط عن الخطة الرئيسية التى رسمها لنفسه في وقت معين ، وإنما يكون الغرض منه تأمين جبهة للتفرغ لجبهة أو ارهاق عدو ئيخلص لعدو ، فقد كان الرجل يقاتل في جبهات متعددة ، وأعداؤه من حوله كثيرون ، فلا بد له من الالتفات نحو الجبهات كلها في كل حين .

(١) على الحساب الهجرى ، أما بالسنوات الميلادية ، فكان عمره إذ ذاك سبعا وأربعين سنة .

وينبغى ألا ننسى أن أعداءه من المسلمين لم يكونوا أقل خطراً عليه وعلى مشاريعه من الصليبيين والبيزنطيين ، وقد كلفه أولئك الاخوة الذين لم يوهبوا الايمان الصادق أو البصر الحكيم من العناء والمتاعب أكثر مما كلفه الصليبيون مجتمعين . وزاد في أذاهم أن الرجل كان مسرفاً في الحلم والرافة بالعرب والمسلمين ، يتحاشى جهده توجيه قواه نحوهم ، وقد كان من مبادئه أن جيش الاسلام المحرر لا ينبغى أن يوجه نحو بلد مسلم ، وقد رأينا مطاولته وصبره مع أصحاب الأمر في دمشق ، وقنوعه في النزاع الذى شبه عليه أخوه قطب الدين مودود بعد موت أخيه سيف الدين غازى ، ورأينا تساهله معه ، وقد كان قادراً على أن يخرج من بلاده .

وتتلخص الخطوات التى مشاها نور الدين نحو تحقيق حلمه فى الوحدة فيما يلى :

بدأ نور الدين بتصفية بقية امارة الرها ، ثم اجتهد فى الاستيلاء على كل ما لامارة أنطاكية شرقى نهر العاصى ، فاسترد للاسلام دلوكة وروندان وعزاز وبزاعة وأرتاح وحارم وأرزغان واب والبارة وأقامية ومعرة النعمان وكفر طاب ، وبذلك أصبحت بلاده متصلة من شاطئ دجلة الى نهر العاصى ، وأمن أن يهاجمه أحد من الشرق أو الغرب .

ثم التفت نحو الحدود الشمالية فأقر الأمور فيها على نحو
يطمنن اليه مع سلاچقة آسية الصغرى وآل دانشمند والأرتقيين
أصحاب ماردین . ثم ركز قواه حتى فرغ من مشكلة دمشق وضماها
الى بلاده وأصبحت حدوده متاخمة لامارة أنطاكية وطرابلس
ومملكة بيت المقدس . فبدأ بامارة طرابلس وحصرها في شريط
ضيق يبدأ من صافيتا في الشمال وينتهي عند جيل شمالى بيروت .
ثم التفت الى مملكة بيت المقدس ، فاستولى على اقليم حوران ،
واهتم اهتماما خاصا ببصرى أكبر معاقله ، وثبت حدوده الجنوبية
بالأستيلاء على صرخد ، وأصبحت مملكة بيت المقدس شريطا
ساحليا ينتهى عند المجرى الرئيسى لنهر الأردن ويمتد بعض الشيء
شرقى البحر الميت .

وحرص في أثناء ذلك على ألا تكون سيطرة مملكة بيت
المقدس على أراضيها كاملة ، فكان يقوم بغارات سريعة في بلادها
ويرسل قواده فيوغلون حتى الرملة وعسقلان ، ويبحث بجماعات
من خيالة التركمان السريعة تخترق البلاد من الشمال الى الجنوب ،
ومنها ما كان يتخذ معسكرات متنقلة داخل أراضي مملكة بيت
المقدس نفسها ، كلما طاردها جند الصليبيين في ناحية انتقلت الى
ناحية أخرى . وكان هدف نور الدين من ذلك أن يستمر الطريق

مفتوحا الى مصر ، وسنرى جيوشه بعد قليل تخترق مملكة بيت المقدس من دمشق الى مصر وكأنها تجوس في بلادها .

وقد حرص نور الدين أثناء حياته كلها على تجنب أمرين :
مجيء حملة صليبية جديدة ، واتحاد مملكة بيت المقدس والدولة البيزنطية عليه . فلكى يتحاشى الأمر الأول حرص على ألا يهاجم مملكة بيت المقدس هجوما عاما يؤدي الى اسراع غرب أوروبا لنجدتها ، ولكى يتلافى الأمر الثانى ترك أنطاكية باقية كأنها الشبح ، لأنها — من الناحية الاسمية — كانت تحت سلطان الامبراطور البيزنطى أما من الناحية الفعلية فكانت تدور فى فلك مملكة بيت المقدس ، فهجومه عليها يجمعهما عليه ، فيضطر الى توزيع قواته بين الشمال والجنوب .

وكان واثقا من أن استيلاءه على مصر سيهيء له من القوة ما يمكنه من مواجهة الدولتين ومن ينضاف اليهما من رجال الحملات الصليبية ، ولكن الأجل لم يمهله بعد مصر الا قليلا ، فارتفع خليفته صلاح الدين بذلك كله ، وواجه الدولتين والحملة الصليبية الثالثة فسرهما كلها ، وقضى على مملكة بيت المقدس ، وأعاد ذلك البلد الطاهر الى أهله العرب .

كانت الدولة الفاطمية قد تحولت الى « رجل مريض » من أواخر القرن الخامس الهجرى ، واشتد ضعفها واضطراب أمورها من أوائل القرن السادس الذى تلاه ، فأصبحت « تعيش بالوهم وقلة المطالب » كما يقول ابن خلدون .

ولقد تطورت الدنيا من حول الفاطميين : فاستقر الصليبيون فى الشام ، ونهض رجال الوحدة يلمون الشعث ويضمون الصفوف ، وجرت معارك ووقائع تردد صداها حتى بلغ اسكتلندا والسويد والترويج ، وخلفاء الفاطميين فى غفلة كأنهم لا يعيشون على وجه هذا الكوكب ، ونهض الغرب الاسلامى وتوحد تحت راية الموحدين ، وأقبلت قواتهم المظفرة نحو تونس وطرابلس ، واضطرب البحر الأبيض كله وساد النشاط حوضه الشرقى : من أساطيل بيزنطية تقاتل أساطيل نورمانية ، وأساطيل ايطالية تحمل أفواج الصليبيين الى سواحل الشام أو تعود ببقاياهم منه ، كل هذا والفاطيون ووزراؤهم فى غفلة تبعث على العجب . وضاعت منهم عسقلان فلم يبعث فيهم ذلك حسرة ولا ألما ، ونهض رجال سواحل مصر الشمالية ينشئون السفن ويخرجون بها فيهاجمون الصليبيين فى غزة وصيدا وعسقلان دون أن يظفروا من الفاطميين بعون أو تأييد .

ولم يكن من الممكن أن يستمر هذا الحال ، فإن مصر أهم من أن تترك خارج صراع الموت الذي نشب من حولها ، وأهلها شعب عربي لا يطيق البقاء مكتوف الأيدي يتفرج على مهازل القصر والوزراء ، ونور الدين ينظر من بعيد ويرتب الأمور لضم هذا الجانب الضخم الى جبهة الكفاح ، والملك أموري في بيت المقدس شاب طموح يريد أن يؤيد عرشه بفتح جديد ، فلم يكن هناك محيص من أن يمتد اللهب الى وادي النيل ، وأن يصبح هذه الوادي مدار الصراع بين الجانبين .

سقطت عسقلان في أيام الخليفة الظافر أبي منصور اسماعيل ابن الحافظ (١١٤٩/٥٤٤ — ١١٥٤/٥٤٩) ، وكان شابا غافلا لا يصلح الا للعبث ، وكان رجال دولته على مثاله ، أظهرهم الوزير عباس الصنهاجي وابنه نصر ، فجرى نصر هذا مع الخليفة في مجال لهوه ، ثم قتله على صورة مهينة لم تجر على خليفة قبله أو بعده : خرج « الخليفة » من قصره ليلا وذهب الى دار نصر ليسمر معه ، فقتله هذا وألقى جثته في بئر في البيت ، وفي الصباح زعم أبوه أن الخليفة خرج يتنزه في قارب في النيل فغرق ! ثم اتهم اثنين من اخوة الظافر ونفرا من خدم القصر بقتل الخليفة فضربت رقابهم في مجلسه ، ثم دخل دار الحريم وأتى بابن صغير للظافر

يسمى عيسى ، وعاد به الى المجلس فرأى الصبى القتلى ففزع وأصابه اضطراب عصبى لم يشف منه بعد ذلك ، ثم جمع أهل القصر وقال لهم : هذا ولد مولاكم ، وقد قتل عماء مولاكم ، وقد قتلتهما به كما ترون — وأشار الى القتلى — والواجب اخلاص الطاعة لهذا الولد الطفل ، فقالوا كلهم : سمعنا وأطعنا ، وضجوا ضجة واحدة بذلك ، ففزع الطفل ومال على كتف عباس من الفزع . وسموه الفائز ، ثم سيروه الى أمه وقد اختل عقله من تلك الضجة فيما قيل ، فصار يتحرك في بعض الأوقات ويصرع . وهذا هو الفائز الذى ورث عرش الفاطميين ، وحكمت مصر باسمه سبع سنين (١١٥٤/٥٤٩ — ١١٦١/٥٥٦) .

وكان لابد أن يدفع الوزير عباس الصنهاجى وابنه ثمن الجرائم التى ارتكباها ، فخرج عليهما رجل من أصل أرمنى يسمى طلائع ابن رزيك كان واليا على المنيا ، وزعم أنه يطالب بدم الخليفة المقتول ، ودخل القاهرة واستولى على مقاليد الأمور ، ففر عباس وابنه الى الشام ، وفى الطريق لقيهما جماعة من جند بيت المقدس فقتلوا عباسا ثم أرسلوا نصرا الى مصر فى قفص من حديد ، وهناك قتل على صورة بشعة .

ثم كشف طلائع بن رزيك عن وجهه ، فاذا هو طاغية مفسد

شره الى المال ، وأخذ يبيع ولايات النواحي لمن يدفع الثمن الأكبر ،
فاذا انقضت ستة شهور باعها مرة أخرى ، فكان المولى يجتهد في
تحصيل أضعاف ما دفع خلال الأشهر الستة ، حتى هلك الناس
لكثرة ما دفعوا . وكان مع ذلك متشاعرا يعقد مجالس لأهل الأدب
ممن يرضون القدوم على أمثاله ، فينشدهم شعره السخيف ،
ويردون عليه بقصائد مدح في نظم أثقل من ظلالهم وظل مولاهم .
وما زال هذا الرجل — الذي تلقب بالملك الصالح — يثقل
على الناس حتى خلصتهم منه إحدى عمات الخليفة الصبي ،
فوضعت عليه من قتله وجرح ابنه رزيك بن طلائع جرحا بليغا .
وفي هذه الأثناء مات الفائز ، فنصبوا من بعده ابن عمه
أبا محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ عبد المجيد ولقبوه
بالعاضد ، وهو آخر خلفاء الفاطميين ، وترتيبه في سلسلتهم الرابع
عشر ، وكانت سنة إحدى عشرة سنة ، تولى سنة ٥٥٥ / ١١٦٠ وظل
الى أن خلعه صلاح الدين سنة ٥٦٦ / ١١٧٠ . وكان رزيك بن طلائع
قد شفى من جرحه ، وتولى الوزارة مكان أبيه ، وثقلت يده على
العاضد ، فبعث هذا مستنجدا برجل كان يتولى الصعيد اسمه
شاوور بن مجير السعدى ، فأسرع الى القاهرة مع نفر من أصحابه ،
وهزم رزيك وتولى مكانه ، واختفى رزيك حتى ظفر به بعد
قليل فقتل .

وكان بولدوين الثالث قبل وفاته قد التمس وسيلة يفيد بها من هذه الفوضى التى استبدت بأمور الفاطميين ، فهدد بالسير الى مصر ، فسارع رجال الفاطميين وعرضوا أن يقدموا اليه مائة وستين ألف دينار فى العام اذا هو سكت عنهم . وسكت بولدوين فلم يؤد الفاطميون شيئا ، ثم توفى وجاء أخوه أمورى ، وكان فى حاجة ملحة الى المال ، فتعلل بذلك الاتفاق المنقوض وسار الى مصر فى ذى القعدة سنة ٥٥٨ / سبتمبر ١١٦٣ ، وحاصر القرما ، وكانت مياه الفيضان تملأ الترع ، فكسر المصريون بعض الجسور فساح الماء وأغرق الأرض وتعذر على أمورى الاسترسال الى ما وراء ذلك فعاد أدراجه .

وكانت عين نور الدين ساهرة لا يغيب عنها مثل هذه الحركة ، وأعجله الأمر عن المسير الى مصر فلجأ الى عمل يرغم به أمورى على الارتداد . فسار فى جيش كثيف واخترق أرض طرابلس ثم حاصر حصن الأكراد (الكرك) الذى يشرف على اقليم البقاع ، وكاد يستولى عليه ، لولا أن رفقة قوية من حجاج النصارى كانت عائدة من بيت المقدس وفيها هيو كونت لوزينان وجود فروا مارتل وهما من أكبر فرسان عصرهما ، فانضما بمن معهما الى قوات رايموند صاحب طرابلس الذى خرج للدفاع عن الكرك ،

واستصرخوا أنطاكية فخفف اليهم بوهموند الثالث وقائد الحامية
البيزنطية قسطنطين كولومان برجالهما .

ولم يكن نور الدين يتوقع أن يسير الصليبيون نحوه في هذه
الجموع كلها ، فما راعه ، وجنده آمنون ، الا والصليبيون يدهمون
المعسكر ، ففرع الجند وتطايروا بددا ، حتى اقترب المهاجمون من
موضع نور الدين ، فأسرع فامتطى صهوة جواده ، ومضى به
مسرعا وجنده يتلاحقون به حتى وصل الى قرب حمص ، فنزل ،
ووصل جنده أرسالا ، فأعاد ترتيبهم واستعد للقاء اذا تبعه العدو .
وخاف بعض رجاله ، فرجاه أن يسرع العودة الى حمص حذرا من
ملاحقة الأعداء اياه ، فقال : « اذا كان معي ألف فارس لقيتهم
ولا أبالي بهم ، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر
الاسلام » ثم أرسل الى دمشق وحلب يطلب الأموال والثياب
والخيام والسلاح والخيول ، فأعطى جنده عوض ما أخذ منهم .

وبلغ الصليبيين أنه لهم بالمرصاد ، فتحوفوا ملاحقته وعادوا
الى بلادهم ، وعاد عسكر نور الدين كأن لم تصبه هزيمة . وعوض
أهل القتلى بمال جسيم ، وأعطى أولادهم اقطاعاتهم وظل ينفق
حتى نقد ما لديه ، فقال له بعض رجاله : « ان لك في بلادك
ادارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ،

«فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح» فغضب من ذلك وقال: «والله اني لا أرجو النصر الا بأولئك، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطيء، وأصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطيء؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟».

*

وكان العاضد في استغاثته بشاوړ كالمستجير من الرمضاء بالنار، فما كان هذا الا طامعا مفسدا لازمة له ولا عهد، كما سترى. فاستنجد الخليفة عليه بضرغام بن ثعلبة، ويقال انه كان قد تولى الصعيد مكان شاوړ، فأقبل ضرغام وهزم شاوړ وقتل ولده الأكبر طيء، ونجا ابنه الثاني شجاع. فأسرع شاوړ الى الشام يستنجد بنور الدين، وعرض عليه أن يكون نائبه على مصر، وأن يؤدي له ثلث دخل بيت المال الفاطمي كل سنة بعد دفع رواتب الجند.

ولا شك في أن استنجد شاوړ بنور الدين وقع من نفسه موقعا طيبا، واستقر رأيه من أول الأمر على المبادرة بارسال الجند الى مصر، ولكنه تمهل — على عهده — حتى يعد للأمر عدته كاملة.

قال أبو شامة انه « كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تارة تحمله . رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الافرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الافرنج فيه » ، فلما انتهى من دراسة الموقف ورسم الخطة قرر ارسال جيش الى مصر يقوده . أسد الدين شيركوه ، وكان مقداً لا يهاب شيئاً ، وقرر أن يقوم هو نفسه بحملة على باناس ليصرف اهتمام الملك أمورى نحو الشمال .

وتسامع ضرغام قبل موته بقليل بمسير جيش نور الدين الى مصر فعرف العاقبة وجزع جزعا شديداً ، وحمله الجزع وموت الضمير على أن بادر بالاسراع الى بيت المقدس طالبا من أمورى أن يسبق نور الدين الى امتلاك مصر ، ووعد به بأن يؤدى اليه جزية سنوية . ولم يكن شئ ليخيف أمورى أكثر من استيلاء نور الدين على مصر ، فمعنى ذلك نهاية مملكة بيت المقدس . فأسرع يجمع فرسانه ، ثم سار هو الآخر نحو مصر . ولكن أسد الدين شيركوه كان قد أسرع السير كأنه السهم المنطلق ، فدخل مصر والتقى بجيش يقوده نصر الدين أخو ضرغام عند تل بسطة قرب الزقازيق وقضى عليه فى جمادى الثانية سنة ٥٥٩/ مايو ١١٦٤ ، ووصل ضرغام الى القاهرة بعد قليل حاسبا أن الجند الصليبي

مقبل لنصره ، وحاول التمهيد لحلفائه باستنهاض نفر من العامة لتأييده ، فخذله الناس ، وقتلوه عند مشهد السيدة نيسة .
 واستقر جيش نور الدين فى القاهرة يقوده أسد الدين شيركوه ويعاونه ابن أخيه صلاح الدين ، وكان شابا مجربا بعيد النظر قربه نور الدين وعهد اليه فى الأعمال ، وكان شيركوه لا يقطع برأى من دونه . وكان وصول هذا الجيش النورى الى القاهرة حادثا له .
 ما بعده ، فهو بداية تنفيذ خطة نور الدين للاستيلاء على مصر ، وأول الصراع على مصيرها بين جبهة الاسلام الموحدة ومملكة بيت المقدس . ثم ان أسد الدين وابن أخيه اتصلا بهذا القطر الكبير اتصالا مباشرا ، واطلعا على ما فيه من أسباب القوة والثروة وتعلق قلباهما بالاستقرار فيه ، وكان شيركوه قد طالت خدمته لنور الدين وأبدى من الاخلاص لسيدته ما جعله رأس قواده وأمرائه ، فتاقت نفسه الى أن يكون نائب نور الدين على مصر ، ولم يكن لهذا العمل سواه ، فهو خير من يستطيع تنفيذ الخطة النورية التى كانت ترمى الى حصر مملكة بيت المقدس بين شقي الرحى .

ولكن شاور كان يهيم فى واد آخر ، وأمثال هذا الرجل يبلغ بهم قصر النظر أن يتصوروا أن غيرهم على شاكلتهم ، لا مآرب لهم

الا منصب يسيئون الى الخلق بجاهه ، ومال ييسر لهم الاستمتاع بالحياة . لهذا ثقلت عليه وطأة أسد الدين شيركوه ، وأحس أنه لم تعد له به حاجة ، فقد قتل ضرغام وصفا الجو ، فماذا يخشى بعد ذلك ؟ فبدأ بالتوقف عن الوفاء بما وعد به نور الدين ، ثم طالب شيركوه بالعودة الى الشام وهدده بالحرب .

ولم تكن قدم شيركوه قد استقرت في مصر بعد ، وما هو الا قائد جيش صغير في بلد بعيد تفصل بينه وبين الشام جماعات الصليبيين ، ثم انه سمع من أخبار غدرات رجال الفاطميين وسعة حيلتهم في الاغتيال والأذى ما حفزه على تدبر أمره ، فأرسل يطلب من نور الدين مددا ، وأشار عليه ابن أخيه صلاح الدين بالارتداد الى بلد يتحصن فيه ويسيطر عليه بحيث يأمن الغدرات ، واستقر رأيهما على الانسحاب الى بليس ، فانتقل اليها ، ولم تكن بالبلد الحصين ، اذ كان يدور حولها سور ضعيف منخفض ، ولكن شيركوه اجتهد في تحصينه وتأمين نفسه وجنده فيها .

وعجل شاور الى أموري يستنجد به على نور الدين ، وألح عليه في القدوم الى مصر وعرض عليه أن يعطيه سبعة وعشرين ألف دينار ، ألفا عن كل مرحلة من مراحل الطريق ، ووعد قرسان الاستتارية بمال جزيل اذا هم اشتركوا في الحملة ، وتعهد الى

جانب ذلك بأن يقدم العلوفة اللازمة للخيـل . ولم يكن أمورى فى حاجة الى كل هذا الاغراء ، فقد كان يدرك تماما أن مصير بلده فى الميزان اذا تمكن نور الدين من مصر ، ولكنه عندما رأى هذا الخسيس يستحثه ، مضى يتعل عليه ، وبلغ من قلة الثقة بينهما أن شاور اعتذر عن دفع المال مقدما ، وأبى أمورى أن يؤجل الدفع الى نهاية الحملة ، فاتفقا على أن تدفع ألف دينار فى آخر كل مرحلة . وسار أمورى فى رمضان سنة ٥٥٩ / أغسطس ١١٦٤ حتى بلغ فاقوس ، ثم لحق به شاور واشتركا فى حصار شيركوه فى بلبس . وعلى الرغم من ضعف أسوار البلد فان الحليفين لم يستطيعا اقتحام البلد ، وظل شيركوه صامدا حتى انقضت ثلاثة شهور والموقف على ما هو عليه (ذو الحجة سنة ٥٥٩ / أكتوبر سنة ١١٦٤) .

ثم بلغت أمورى أنباء روعته وحفزته على المبادرة بالعودة الى بلاده ، ذلك أن نور الدين اتجه نحو أنطاكية ليغير على أراضيها ليشغل الصليبيين عن جيشه العامل فى مصر ، وكانت تجربة موقعة حصن الأكراد ما تزال ماثلة فى ذهنه ، فقرر أن يأخذ بالتأثر الذى حلف يومها ليأخذنه ، فطلب الى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل أن ينضم اليه بقوة من عنده ، فأقبل ومعه جند كثيف من

بلاده ومن امارتي ديار بكر وماردين ، ومضى في شعبان ٥٥٩ / يوليو ١١٦٤ فحاصر حصن حارم ، ونهض صاحب الحصن رينو دى سان قالرى فجمع كل ما لديه من الجند لملاقاة نور الدين ، وخف لعونه بوهموند الثالث صاحب أنطاكية ورايموند صاحب طرابلس وتوروس ملك الأرمن وقسطنطين كولومان قائد الحامية البيزنطية في أنطاكية .

وكان نور الدين قد أحكم خطته ، فلما تسامع بمسير هذا الجحفل الجرار نحوه انسحب عن حارم وضرب معسكره عند أرتاح وعبأ جنده تعبئة كاملة ، وفرق الكمائن في شعاب الجبال . وأحس رجال الجيش الصليبي بما أعده لهم ، فأحجموا عن اللقاء ، ولكن رينو دى سان قالرى أصر على الاشتباك طامعا في غنيمة كغنيمة يوم حصن الأكراد ، فكر على جيش نور الدين ، فتراجع الجند أمامه شيئا ريثما توسط مواضع الكمائن ، ثم أحاطوا به فأيقن بالهلاك ، ورأى توروس ملك الأرمن وأخوه بوادر الهزيمة فلابدوا بأذيال الفرار ، وأطبق المسلمون على الجيش الصليبي وأعملوا فيهم السيوف والحرايب والتبال فلم ينبج من الموت الا الأسرى ، وكان فيهم بوهموند الثالث ورايموند صاحب طرابلس وقسطنطين كولومان وهيودى لوزينان ، فربطوا في

حبل واحد ، وسيقوا الى حلب . وهكذا أخذ نور الدين ثأره وزيادة .

وألح رجال نور الدين عليه في التعجيل بالمسير الى أنطاكية والاستيلاء عليها ، فليس فيها من يدفع عنها . ولكنه قدر في نفسه أن هذا ليس أو ان أنطاكية ، فتوقف عن المسير اليها اكتفاء باستيلائه على حارم بعد نصره عندها ، وقد أصاب في تقديره ، فان استيلاءه على أنطاكية سيدفع الدولة البيزنطية الى تجريد جيش كبير وأسطول لاستعادتها ، ثم لا يلبث أمورى أن يعود من مصر ، فيكون على نور الدين أن يقاتل في جبهتين واسعتين ، احدهما في الشمال والأخرى في الجنوب ، وهذا ما كان يتحاشاه .

ثم انه لم يشأ أن يوزع جهوده بين أنطاكية ومصر ، وكان الرجل — كما قلنا — اذا وضع لنفسه هدفا رسم خطته للوصول اليه ، ولم ينحرف عنه حتى يحققه . أضف الى ذلك أن امارة أنطاكية — بما هي عليه من الضعف — لم تكن تهدد بلاده ، فاذا أقبل البيزنطيون وملكوها أصبحت خطرا ماثلا قريبا . وذلك كله يفسر لنا تصرفات نور الدين بعد انتصاره ، فقد عجل باطلاق سراخ قسطنطين كولومان حتى يسكت عنه البيزنطيون ويعودها له منه ، فيعينه ذلك على التفرغ لمشروع مصر .

وكانت أعظم نتائج ضربة نور الدين عند أرتاح أن اضطر
 أمورى الى مبارحة مصر مسرعا . فاتفق مع شيركوه على أن
 يخرجوا معا ، وهذا ما كان يريده نور الدين ، فقد تبين له أن مصر
 لا تملك بهذه القوة التى سيرها مع شيركوه ، واستقر رأيه على
 اعداد حملة أكبر وأقوى يقودها شيركوه مرة أخرى ، فأذن لقائده
 بالانسحاب . وسار الجيشان الواحد منهما بازاء الآخر مخترقين
 شبه جزيرة سينا ، وعلى المراحل كان الجيشان يلتقيان دون حرب ،
 فلما وصلا الى الحدود وتأهب كل من الجانبين للمسير نحو بلاده ،
 قال لشيركوه أحد فرسان الصليبيين ممن وفدوا على الشام حديثا :
 « أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون (يريد الفاطميين)
 والفرنج ، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا تبقى منكم بقية ؟ »
 فقال شيركوه : « ياليتهم فعلوا ، حتى كنت ترى ما أفعله ! كنت
 والله أضع السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال ،
 وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين ، وقد ضعفوا وفنى
 شجعانهم ، فتهلك بلادهم ، ونهلك من بقى ! والله لو أطاعنى هؤلاء
 (يريد قواده) لخرجت اليكم من أول يوم ، ولكنهم امتنعوا »
 فصلب الفارس على وجهه وقال : « كنا نعجب من فرنج هذه
 البلاد ومباغتتهم فى صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم . »

وأسرع أمورى الى أنطاكية ليتدارك أمرها ، ثم بعث الرسل الى نور الدين يطلب اليه الصلح ، فوجد عنده قبولا ، اذ كان يود أن يقفل هذا الباب ليفرغ للعمل العظيم ، فرضى باطلاق سراح بوهيموند الثالث وتوروس الأرمنى لقاء فدية كبيرة ، ورفض أن يخلى سبيل راييموند صاحب طرابلس أو رينو دى شاتيون ، وكان رأيہ فى ذلك أن الأولين تابعان للامبراطور البيزنطى وهو يود أن يكسبه الى جانبه .

وقد أصاب فى تقديره ، لأن الامبراطور تجهم لأمرورى واستنكر حضوره الى أنطاكية ، وهى تابعة للامبراطورية اسما . وقد خاف أمورى مما عسى أن يدبره له مانويل ، فأرسل سفارة الى القسطنطينية لتخطب له احدى أميرات البيت الامبراطورى ولتعقد معه حلفا للتآزر فى الاستيلاء على مصر . ووصلت السفارة فلم يحفل لها الامبراطور ، وتركها تنتظر رده عامين متوالين .

فى هذه الأثناء كان نور الدين يعد العدة لارسال شيركوه الى مصر ، فقرر أن يوجه الى الصليبيين فى الشام ضربة ثانية تلقى الروع فى نفوسهم وتشغلهم عما كان يعد العدة له . فعبا جيشا قويا وزعم أنه متجه نحو طبرية فأسرع الصليبيون وتجمعوا فيها وحولها فتركهم فيها ونزل فجأة عند بانياس ، وكانت مفتاحا هاما من مفاتيح

الطريق الى مصر ، ثم ان صاحبها هوثفروا الثانى دى تورون كان قد رافق أمورى فى حملته على مصر . وكانت بانياس حصنا شامخا فظن الصليبيون أنه يصمد طويلا ، ولكنه ما عثم أن استسلم لنور الدين ، فدخله وحصنه وملاه ذخيرة وعتادا ورجالا (المحرم ٥٦٣ / أكتوبر ١١٦٧) .

وقد اعتبر نور الدين فتحه لمصر جهادا دينيا ، وقال انه باستنقاذها وضمها الى جبهة القتال انما يحارب عدوين من أعداء الاسلام : الفاطميين والصليبيين ، وأرسل أسد الدين شيركوه الى بغداد ليستصدر من الخليفة العباسى فتوى بأن عمله هذا جهاد دينى ، وأجابه الخليفة الى ما طلب وجعل له امرة مصر اذا هو فتحها .

وبينما كان القتال يدور حول بانياس كان شيركوه قد بدأ مسيره الثانى نحو مصر ، وفى رفقته ابن أخيه صلاح الدين . وتسامع الناس بالأمر ووصل خبره الى شاور ، فأرسل الى أمورى يستنجد به وكان أمورى فى نابلس ينظر فى أمر المعركة الدائرة عند بانياس ، فعقد مجلسا من كبار رجال مملكته ، فقرروا ضرورة المسير الى مصر ، وقالوا ان كل صليبي قادر على الخروج لابد أن يخرج ، فاذا شاء أن يتخلف دفع عشر ايراده السنوى معاونة للملك أمورى . فاذا

هم فى أخذ ورد اذا بالأنباء تصل بأن شيركوه يجتاز صحراء سينا ،
 فعجل أمورى بالخروج بمن حضره فى ٧ ربيع الثانى ٥٦٢ /
 ٣٠ يناير ١١٦٧ .

ولم يكن مسير شيركوه بالسهل الذلول ، فقد هبت على جيشه
 عاصفة وملية كادت تطمره ، ولكنه تمكن من الوصول الى اطيح
 على أربعين ميلا جنوب القاهرة ، وهناك عبر النيل ، وسار حتى
 بلغ الجيزة ، فعسكر فيها قبالة القسطنطينية . ووصل أمورى بمن
 معه ، وخف شاور لاستقباله ، وضرب الملك الصليبي معسكره
 تحت أسوار القاهرة .

وأخذ أمورى يساوم شاور على ثمن معاوئته ، فأجابته هذه
 الى ما طلب ، وتعهد بأن يدفع له أربعمئة ألف دينار بيزنطى ،
 نصفها معجل والنصف الآخر مؤجل ، وفى مقابل ذلك ، أقسم
 أمورى ألا ينسحب من مصر الا اذا غادرها شيركوه . ثم طلب
 أن يرسل وفدا من رجاله لمقابلة الخليفة الفاطمى ليتأكدوا من
 الاتفاق ، فما كان يثق بشاور ، وأجيب الى طلبه ، وتأنف الوفد
 من هيو صاحب قيصرية وفارس من الداوية يسمى جوفروا .
 ودخل الفارسان القصر الفاطمى وقادهما الخدم من بهو لبهو .
 ورأيا من مظاهر الثروة والترف ما لم يكن يخطر لهما على بال ، وقد

وصفا ما رأياه لوليام الصورى ، مؤرخ مملكة بيت المقدس ، فرواه فى تاريخه على صورة يخيل لقارئها أنه يتحدث عن قصور ألف ليلة وليلة .

وظل الجيشان يرقب أحدهما الآخر عبر النيل ، ولم يكن شيركوه معجلا فيفكر فى الهجوم ، وكان يعلم أن خصمه لا يحتمل المقام الطويل ، وأنه لا يلبث أن يقلق بسبب معركة بانياس . وقد قلق أمورى ، وتقدم فعبّر النيل عند رأس جزيرة وراق الحضر ، وترك حامية تؤمن عسكره يقودها شجاع بن شاور وهيو دى ايلين ، ولم تنطق هذه الحامية البقاء فى المعسكر ، فأذن لها شجاع فى دخول البلد ، فاندفع فرسان الصليبيين ومقاتلوهم يجوسون خلاله مما روع الأهلى وزادهم نفورا من شاور وابنه الخسيس شجاع . وتراجع شيركوه أمام أمورى ، فلما وصل الى الأشمونين تريت واستعد للموقعة عند « البابين » . وكانت قوات الصليبيين والفاطميين تزيد زيادة ظاهرة على جند شيركوه ، ولكن عدد الفرسان فيها كان قليلا ، أما شيركوه فكان عماده الخيالة السريعة الوافرة . وقد رسم شيركوه ، خطته على أن يقف صلاح الدين فى القلب ويتقهقر به اذا هجم العدو ، فلما تراجع صلاح الدين حسب أمورى أنها هزيمة دارت على خصمه ، واندفع بمن معه فى أثره ،

وهنا أطبق شيركوه جناحي جيشه عليه وعلى من معه ، ووقع فيهم القتل وأتى السيف على معظمهم ، ولم ينج أموري الا بشق النفس ، فأسرع ، وفي أعقابه شاور ، متجهين نحو الشمال ، وعبر النيل في فلول قليلة ، ولم يطمئنا الا عندما وصلا الى الحامية التي خلفها عند القاهرة . ووقع مئات من فرسان الصليبيين في الأسر ، وكان فيهم هيو صاحب قيصرية (٢٥ جمادى الثانية سنة ٥٦٢ / ١٨ مارس سنة ١١٦٧) .

ولم يشأ أسد الدين أن يتتبع أموري وشاور ، فقد كان لا يشك في أن الملك الصليبي مبادر بالعودة الى بيت المقدس ، وخاصة بعد هذه الكارثة التي حلت به وبجيشه ، أما هو ففى فسحة من الوقت ، وهو مقيم في مصر لا يبرحها الا اذا عقد زمامها بلواء نور الدين ، فترك المنهزمين فيما هم فيه ، وسار نحو الفيوم ، ومنها اخترق مديرية البحيرة وظهر أمام الاسكندرية . ورحب به أهلها وفتحوا له أبوابها فدخلها ، وظاهر أن هدفه من ذلك كان التحصن في ذلك البلد الكبير .

وتبين شيركوه أن أعداءه أكثر منه عددا وعدة ، وأن عليه أن يحسن استخدام ما لديه من الجند القليلين أحسن استخدام ، فجمع خباطه ليدرس الموقف معهم ، فوجد أن معظمهم يرى المبادرة

بالعودة الى الشام ، ولكن جماعة قليلة أيدته فيما طلب من الاستمرار فى القتال ، ثم قال شركوه : « ان من يخاف القتل والأسر لا يخدم المملوك ، بل يكون فى بيته مع امرأته » ، وأخذ يحضهم على القتال ويخوفهم من عواقب « تسليمهم مصر للصليبيين » فثارت حميتهم وأجمعوا على القتال .

وحسب شركوه أنه يستطيع أن يؤثر فى شاور ويجذبه الى صفه اذا هو تحدث اليه حديث المسلم الصادق لأخيه ، فبعث اليه يقول : « أنا أحلف لك بالله الذى لا اله الا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أننى لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعاود اليها أبداً ولا أمكن أحدا من التعرض اليها ، ومن عارضك فيها كنت معك الباعية عليه ، وما أريد منك الا نصر الاسلام فقط ، وهوان العدو ، وقد حصل بهذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير . وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه هذه الفرصة التى أمكنت والغنيمة التى قد كتبت ، فنستأصل شأفته ونخمد ثأثرته ، وما أظن أنه يعود ويتفق للاسلام مثل هذه الغنيمة أبداً » ، ولكن أين عند رجل مثل شاور عاطفة تستثار أو ضمير يتحرك ؟ لقد كان رد السفية الجامد القلب الجاحد النفس أن قتل رسول شركوه ، ومضى الى حلفائه أعداء بلاده فأطلعهم على رسالة شركوه ، وأكد لهم اخلاصه لهم وتقانيه فى خدمتهم !

وربع بولدوين لما حدث ، وقرر التعجيل بالمسير الى الاسكندرية
وهذا ما كان يريد شيركوه ، اذ أنه كان يطاول ويروح ويفقد
حتى يخضد شوكة الجيش الصليبي من ناحية ، ويسئم أموري
بويرغمة على الخروج الى بلاده من ناحية أخرى . وكانت قوات
الصليبيين والقاطسين لا زالت ، رغم موقعة البابين ، تفوق جيشه
عددا . فلما وصل شاور وأموري أمام الاسكندرية ضربا حولها
الحصار ، وطال أمده حتى تعب الجانبان . فقرر أسد الدين أن
يعود الى التحرك ، فخرج من البلد بكتلة جيشه ، مخلفا وراءه
صلاح الدين في نحو ألف فارس ، ومضى نحو الصعيد ، فقرر
أموري أن يتبعه ، ولكن شاور أفسد الخطة ، فرد أموري عن
غرضه واستحثه على الاسترسال في الحصار . وثقل الأمر على
صلاح الدين ، وبعث يستنجد عمه . وفي هذه الأثناء رأى
الصليبيون من مهارة صلاح الدين وكياسته ما ملأ نفوسهم اعجابا
به ، حتى زعم مؤرخوهم أن هونفروا الثاني دى تورون (ابن
الهنفري) رسمه فارسا .

وعند شيركوه الى الاسكندرية منجدا لابن أخيه صلاح الدين
قلما قاربها أخلى سراح أحد أسراه من فرسان الصليبيين ، وكلفه
بأن يبلغ أموري أنه مستعد للانسحاب من مصر اذا وافق الصليبيون

على الخروج . وكان أمورى . ينتظر هذا العرض بفارغ الصبر ، فقبله ، وترك حامية صلاح الدين تخرج معززة مكرمة فى شوال سنة ٥٦٢ / أغسطس سنة ١١٦٧ . وقد تعلم أمورى خلال هذه المناورة الطويلة كيف يحترم رجال نور الدين ، ووافق على أن ينقل الجرحى من جيش شيركوه على سفنه الى عكا ، ومنها الى دمشق . وغادر الجانبان مصر فى سبتمبر ، وتبين بعد ذلك أن شاور اتفق مع أمورى سرا على أن يؤدى اليه جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار .

وقد استاء نور الدين لانسحاب شيركوه من مصر ، ولكنه لم يكلمه فى الأمر ثقة منه بأنه بذل جهده ، وكانت ثقته فيه عظيمة . ولا شك فى أن حملة أسد الدين الثانية كانت بعيدة الأثر ، نعم ان شيركوه لم يستول على مصر نهائيا ، ولكنه أفلح فى الإيقاع بالصليبيين وكسر شوكتهم واجهادهم اجهادا بالغاً سيكون له أثر بعيد فيما يلى من الأحداث . ثم انه لم يكن يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، فقد كانت أعداد جند الصليبيين والفاطميين أكثر من أعداد جيشه ، وشاور ومن معه يقاتلون عن حياتهم قتال المستيس ، وكان خير ما يستطيع شيركوه عمله هو الانسحاب ثم العودة بالقوة الكافية لتوجيه الضربة الحاسمة بعد قليل .

ولم يكن هناك شك في أن الجولة الثالثة سيكتب الفوز فيها للقوات النورية ، فان نشاط نور الدين ورجاله المتصل قد استأصل زهرة فرسان الامارات الصليبية ، فلم يعد لديها الا ما تمسك به ما يدها من الحصون . ولم تعد هناك من قوة يعتمد عليها غير هيئتي الداوية والاستبارية ، وكانت أعداد أفرادهما في زيادة متصلة ، اذ أن جماعات من الفرسان كانت تفد في تيار متصل من الغرب الأوروبي للانضمام اليهما ، حتى كثرت أعداد الفرسان فيهما وأصبحت كل منهما تضم بضعة آلاف من خيرة المقاتلين الذين لا تخلو قلوبهم من الحمية لدينهم . فأخذ أموري يسلم اليهم الحصون شيئاً فشيئاً ، حتى صار لهم معظم نواحي امارة طرابلس ، فملك الداوية أكبر الحصون الواقعة في شمالها ، وأخذ الاستبارية حصون البقاع ، وأعظمها حصن الأكراد الذي سمي كرك الفرسان (كراك دى شيقالييه) نسبة اليهم .

أما في مملكة بيت المقدس نفسها فقد اختص الداوية بغزة ، ثم أعطيت لهم صفد ، وأخذ الاستبارية حصناً يسمى بلقوار كان الصليبيون قد شيدوه في موقع حصين يشرف على وادي الأردن وبحيرة طبرية . وأصاب الهيتان حصونا وبلاداً مماثلة في أنطاكية بحيث يمكن القول بأن أمر الدفاع عن ممتلكات الصليبيين في الشام

كان من جوالى سنة ٥٥٥/١١٦٠ بيد فرسان هاتين الجماعتين ، ولولا ما كان بين رجالهما من تحاسد وتنافس على السلطان لأصاب المسلمين منهم أذى شديد .

وبينما كان هذا السباق يجرى على أرض مصر ، كان نور الدين حركة دائبة في الشام : استولى على حصن صافيتا والعريمة وفتح الطريق الى بيروت ، فمضى نحوها مسرعا ، ولكن خلافا لشب بين جند عسكره ، فاضطر الى الرجوع عنها ، وكان معه في هذه الغزوة أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل ، فكافأه بالنزول له عن مدينة الرقة على الفرات (٥٦٣/١١٦٧) .

وفي العام التالى آتحت لنور الدين فرصة الخلاص من آخر امارة بقيت مستقلة داخل بلاده ، وهى قلعة جعبر ، وكان يتولاها قبيل من العرب يعرفون بالعقيليين منذ أيام السلطان السلجوقي ملكشاه ، وكان العقيليون — كمعاصريهم المنتقذين أصحاب شيزر وبنى عمار أصحاب طرابلس — يجرون على سياسة المصانعة والمداورة ، ولا ينطوون على اخلاص لقضية الوحدة التى تصدى لها نور الدين ، وكان هذا يمهلهم الى يومهم ولم ينس أن أباه زنكى مات على حصارها .

فلما كانت سنة ٥٦٤/١١٦٧ - ١١٦٨ وقع صاحبها

شهاب الدين مالك بن على بن مالك العقيلي في أسر قهر من أعدائه من بنى كلاب ، فحملوه الى نور الدين ، فاعتقله على تكربة واحسان ، وعرض عليه النزول عن بلده في مقابل اقطاع يمنحه اياه ، فرفض الرجل ، ولو كان يعلم أن نور الدين فظ غليظ القلب لطلب السلامة وقبل ، ولكنه كان يعرف أن قهر نور الدين لن تسمح بأذاه ، فجعل يتعلل ويتشدد كأنه مالك أمره ، فما زال به نور الدين حتى أَرْضاه بمال كثير واقطاع عظيم تزيد غلته على غلة قلعة جعبر ونواحيها ، ولكن نور الدين نظر الى الأهمية العسكرية للقلعة ، فقد كانت تطل على الضفة الشرقية للفرات وتتحكم في معبر له أهميته ، أما الاقطاع الذي أعطاه اياه فقد كان أرضا واسعة غنية لا حصون فيها ، وكان نور الدين حريصا على الحصون والقلاع زاهدا فيما عداها .

ومن أوائل سنة ٥٦٤ / أواخر سنة ١١٦٨ بدأ نور الدين يعد حملته الثالثة على مصر ، وكانت الحملة الثانية قد أكسبت شيركوه وجنده خبرة بأحوال البلاد ومعرفة بأرضها ، وقد تعلق بمصر قلبه فمضى منذ انسحابه منها يستحث مولاه على ضرورة العودة اليها ، ولكن نور الدين آثر انتظار الفرصة المواتية حتى سنحت له . ذلك أن شاور كان قد اتفق مع أموري سرا على أن

يحفظ بحامية صليبية يستعين بها على حكم بلاده ، وأصر أمورى على أن تكون أبواب البلد بيد هذه الحامية ، فتسلموا الأبواب ، وصاروا بهذا أصحاب اليد العليا فى عاصمة الفاطميين ، فركبوا أهلها بالأذى حتى ثقلت وطأتهم على شاور ومن معه ، وبدأ الناس يتحركون للوثوب عليهم ، فعجل قائد الحامية وبعث الى أمورى يطلب اليه الاسراع ليسلمه البلد وما فيه . وزاده الحاحا فى ذلك ما ترامى الى سمعه من أن شجاع بن شاور يرأسل نور الدين ويستدعيه للاسراع الى مصر على أن يكون نائبه فيها ، وكان شجاع عندما رأى أن أمره وأمر أبيه الى زوال طمع فى أن ينجو بنفسه ويفوز بشيء ، فجعل يرأسل نور الدين ، وكان هذا يعرف أمثال هذا الشاب معرفة طيبة ، فلم يلق الى رسائله بالا .

وجمع أمورى مجلس مملكته لبحث الأمر ، واشترك فى المجلس فارس فرنى وصل فلسطين فى تلك الآونة هو جيوم الرابع كونت نيشير ومعه قطعة طيبة من الفرسان ، وقد تحمس هذا الفارس ومن معه لفكرة المسير الى مصر وأيدهم جيلير دى أسيسى رئيس هيئة الاستتارية ، وانبرى الداوية يعارضون ، وكان هذا دأبهم مع الاستتارية أبدا ، أما أمورى فقد تردد ، فقد كانت التجربة الماضية فى مصر درسا لا يسهل نسيانه ، وكان بعد عودته

من مصر قد تقرب من الامبراطور البيزنطى وأصهر اليه وتحالفا
على أن يسيرا الى مصر معا ويتقاسما الغنيمة ، ففضل انتظار المعاونة
من القسطنطينية ، وكرهه رجاله ذلك خوفا من أن يشركهم
البيزنطيون فى غنائمهم ، فحملوا أمورى على الاسراع بالمسير .
وكان نور الدين قد اضطر الى المسير نحو الشمال لتسوية
نزاع أثاره قلعج أرسلان الثانى سلطان سلاجقة آسية الصغرى ،
قيينا هو فى الشمال اذ أتاه نبأ مسير أمورى الى مصر فى ١٦ محرم
سنة ٥٦٤ / ٢٠ من أكتوبر سنة ١١٦٨ . وكان أمورى قد أراد
تضليل نور الدين فأوهم أنه خارج الى حمص ، وبالفعل مضى
نور الدين بجموعه نحو هذا البلد ، ثم انكشف الأمر ، فعجل
بارسال أسد الدين شيركوه وصلاح الدين فى أعقاب الجيش
الصليبي (ربيع الأول سنة ٥٦٤ / ديسمبر ١١٦٨) .
وصل أمورى الى بليس واستولى عليها بمعونة نفر من أعداء
شاوړ ، وريع هذا لذلك الهجوم المباغت ، فما كان يظن أن حلفاءه
الصليبيين يغدرون به ، فكان حاله معهم كحال معين الدين أنر ،
عندما آمن للصليبيين ، فلم يمهلوه الا ريثما تهيأت لهم فرصة القضاء
عليه فساروا نحوه . وأخذ شاوړ يرسل الرسل الى أمورى ليذكروه
بعهده وليردوه عن مصر ، فطلب مليونين من الدنانير ثمنا لانصرافه .

واستولى أمورى على بلبيس فى ١ صفر سنة ٥٦٤/٤ نوفمبر سنة ١١٦٨ بعد مقاومة يسيرة ، فقتل الصليبيون كل من وجدوه فيها على صورة مروعة . وفى نفس الوقت نزلت جماعة من الصليبيين بساحل مصر الشمالى عند بحيرة المنزلة ، واستولت على تنيس ، وذبحت كل من وجدته فيها ، مسلمين وأقباطا ، وقد كان لهاذين المذبحتين دوى بعيد ، فنهض أهل مصر جميعا للدفاع عن ديارهم ، وصار المسلمون والأقباط صفا واحدا أمام الصليبيين .

ثم وصل أمورى أمام القسطنطين فى ١٠ صفر سنة ٥٦٤/١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ ، ولم يجد الخسيس شاور ما يفعله الا أن يحرق القسطنطين ، فاشتعلت النيران فيها أربعة وخمسين يوما حتى صارت أطلالا ، ولا زالت آثار الحريق بادية على ما بقى من خرائبها الى اليوم . وأرسل شاور رسولا الى أمورى يهدد بأحراق القاهرة هى الأخرى اذا لم يرتد أمورى ورجاله ، وكان هذا ينتظر الحملة التى هبطت عند بحيرة المنزلة وأخذت تنيس ، ولكن المصريين تجمعوا عليها وأحرقوا الكثير من سفنها ، ووضعوا الحوائل فى طريق الباقي ، فظل من بقى من رجالها فى الشمال لا يستطيع حراكا . وأدرك أمورى أن أمله فى الاستيلاء على مصر قد تبدد ، لا بسبب شجاعة شاور بل لما رأى من قيام المصريين

عليه وهجوم جماعاتهم على معسكره وتخطفهم رجاله ، ومنعهم قواته التي نزلت بالشمال ، فبدأ يساوم شاور على مال يأخذه لقاء انسحابه من مصر ، فعرض شاور مائة ألف دينار معجلة ، واشتد الأمر على أموري فانسحب بجيشه الى موضع المطرية ، وضرب خيامه .

ووصلته الأخبار وهو في معسكره بأن شيركوه في الطريق الى مصر ، وكان الخليفة العاضد — عندما تحقق من الهلاك ورأى عبث شاور — قد بعث يستصرخ نور الدين ويستحثه لنجدته ، وبعث مع الرسالة شيئا من شعر نسائه ، اسرافا منه في حفز همة غور الدين ، ولم يكن هذا في حاجة الى ذلك التذلل كله ، فقد كان قد عول على ارسال النجدة . ولم ينتظر المصريون حتى ينتهي شاور من مناوراتهم ، بل أسرعوا وكتبوا الى نور الدين يعرضون عليه أن يكون البلد في طاعته ، يقيم عليه نائبا عنه فيه ، وتعهدوا بأن يؤدوا له ثلث خراج البلاد . هذا بينما كان شاور قد دفع لأموري مائة ألف واشتد على الناس في جمع مال آخر ، فلم يتحصل له الا خمسة آلاف دينار .

وقد احتفل نور الدين بتجهيز عسكر شيركوه هذه المرة احتفالا رجا به أن يضمن النصر ، فجعل له ثمانية آلاف فارس ،

وأعطاه مائتى ألف دينار لنفقات الحملة ، وأعطى كل فارس عشرين دينارا معونة غير محسوبة فى راتبه ، وضم الى شيركوه ابن أخيه صلاح الدين ونفرا من خيرة جنده ومماليكه ، مثل عز الدين جرديك وغرس الدين قليج وشرف الدين يرغش وقطب الدين اينال ابن حسان المنبجى ، وخرج نور الدين لوداع العسكر ، فسار معهم من دمشق الى رأس الماء (ربيع الأول سنة ٥٦٤ / ديسمبر سنة ١١٦٨) .

وكان أمورى قد قرر الاسراع بالنجاة بنفسه قبل أن يدركه أسد الدين شيركوه ، فأخذ فى التراجع فى ربيع الثانى سنة ٥٦٤ / يناير سنة ١١٦٩ وأمر أسطوله المعلق فى الشمال بالابحار الى عكا .

*

ووصل أسد الدين شيركوه ليجد أبواب مصر مفتحة أمامه ، فدخل القاهرة من ناحية باب اللوق . ثم توجه الى قصر الخلافة ولقى العاضد فرحب به وقدم له المال ، وتعهد بمئونة جيشه ، وحضر المقابلة شاور ، وتظاهر بالسروور لمجئ شيركوه على قدر ما سمح به نفاقه .

وقد فرح أهل مصر بشيركوه وجنده ، وأظهروا من آيات البشر ما قوى نفسه وقطع آمال شاور وأمثاله ، وبلغت البشرى

نور الدين قطابت نفسه ، وبعث رسله ينشرونها في كل مكان ، واعتبر دخول قائده القاهرة فتحا آكرمه الله به خدمة للاسلام ، وأيقن أن ساعة القضاء على الصليبيين قد أقبلت .

أما شاور فقد كظم الغيظ ، ومضى يتردد على أسد الدين شيركوه محاولا خداعه ، وكان شيركوه رجلا طيب القلب كمولاه نور الدين ، فتركه يروح ويغدو ، حتى طمع هذا الثعلب ، فدبر في نفسه أن يدعو أسد الدين وكبار جنده الى وليمة ثم يغدر بهم ويقتلهم جملة . وأطلع ابنه شجاع على ما دبره فراعه الأمر ، وقرر أن يحول بين أبيه وما أراد ، لأنه كان لا يزال يمني نفسه بأن يعهد اليه نور الدين أو قائده في شيء ، فقال له أبوه : « والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعا » فقال شجاع : « صدقت ، ولأن تقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن تقتل وقد ملكها الفرنج ، فانه ليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالتبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد » . وهذا القول من شجاع يصور لنا موقف العقلاء من أصحاب شاور بعد انتصار شيركوه ، نقول « العقلاء » فحسب ، لأن أحدا منهم لم يكن مخلصا ، وشجاع هذا هو الذي اشترك مع حامية أمورى التي عسكرت الى

جوار القاهرة أثناء الحملة الماضية ، وهو الذى سلمها مفاتيح البلد وترك رجالها يدخلونه ويعيثون فيه على ما روينا .

وأحس الشبان من رجال شيركوه بالخطر الذى يتهددهم من شاور ، فقرر صلاح الدين وعز الدين جرديك ومن معهما التخلص منه ، فهجموا عليه قرب ضريح الامام الشافعى ، وطرحوه ثم أسروه ، وأبلغوا أسد الدين شيركوه . ولم يكدهم العاضد يسمع بذلك حتى طلب رأسه ، وألح فى ذلك ، حتى وافق أسد الدين على قتله ، فقتل فى أوائل ربيع الثانى سنة ٥٦٤ / فبراير سنة ١١٦٩ ثم هجم الناس على دوره فنهبوا ، وتواری شجاع وتقر من أصحابه ، ثم لجأ الى القصر يعتصم به ، ولم يسمع أحد به بعد ذلك ، والأغلب أن رجال القصر قتلوه . وهكذا انتهت قصة هذا البيت الذى لم ير المصريون منه الا شرا .

وأقام العاضد أسد الدين شيركوه وزيرا له مكان شاور ، وصارت مقاليد الأمور اليه . وبهذا أصبحت مصر جزءا من دولة نور الدين ، وامتدت جبهة الاسلام المتحدة حتى شملت وادى النيل . وتمت الوحدة التى دعا اليها شرف الدين مودود ومن جاء بعده ، حتى توجهوا بشيركوه بهذا الفتح العظيم .

ولم يمتد الأجل بشيركوه لينعم بخيرات الفتح الذى طالما

جاهد في سبيله ، فقد توفي بعد شهرين وبضعة أيام من توليه الوزارة (السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤/ ٢٣ مارس سنة ١١٦٩) وبهذا اختفى من الميدان رجل يعد في الطليعة من قادة المسلمين قدرة واقداما واخلاصا . ولسنا نعلم سنه يوم توفي ، لأن أحدا من المؤرخين لم يذكر سنة ميلاده على وجه التحديد . ظهر شيركوه على مسرح الحوادث حوالى سنة ١١٢٦/٥٢٠ ، فقد كان هو وأخوه الأكبر نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) في خدمة مجاهد الدين بهروز رئيس الشرطة في بغداد ، وآنس مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلا وكفاية ، فأقامه حافظا لقلعة تكريت . وكان أبوهما شادى من كبار الأكراد الروادية ، ويقال انهم أشرف الأكراد . وعمل أسد الدين شيركوه مع أخيه في قلعة تكريت . وفي سنة ٥٢٦/١١٣١ - ١١٣٢ أتيحت لهما فرصة الاتصال بعماد الدين زنكى ، فقد أقبل هذا الى تكريت منهزما في احدى مواقعه مع منافسيه في العراق ، فقدم له العون وكسبا ثقته . ثم حدث أن وقعت ملاحة بين أسد الدين ورجل من أهل تكريت أدت الى شجار ، فضرب شيركوه الرجل فقتله ، فأخرجه مجاهد الدين وأخاه من تكريت . فمضيا الى زنكى ودخلا في خدمته ، وتولى نجم الدين قلعة بعلبك . فلما قتل عماد الدين زنكى سار معين الدين .

أثر الى بعلبك واستنزل نجم الدين أيوب وعوضه باقطاع واسع
فانتقل الى دمشق وأصبح من كبار رجال أثر . أما شركوه فقد
دخل فى خدمة نور الدين ، فوجد عنده من الاقدام والمهارة
والاخلاص ما جعله يرقى به الى مراتب الأمراء . وكان نور الدين
يفضل عليه مجد الدين بن الداية ، وكان أخاه فى الرضاع ، ولكن
مواهب أسد الدين ما لبثت أن قدمته ، فصار ساعد نور الدين
الأيمن .

وفى أثناء حصار نور الدين الأخير لدمشق تجلت مواهب
شركوه كقائد يعرف كيف يرسم الخطط ويخوض المعارك غير
هياب ، وبعد استيلاء أسد الدين شركوه على دمشق أصبح رجل
الدولة النورية دون منازع . فقد وجد عنده ذلك المجاهد العظيم
كل ما يرجوه عند قائد من قواده : اخلاصا وبعد نظر وإيمانا
بالوحدة الاسلامية واقداما على ركوب المخاطر ، فادخره للخطوة
الكبرى التى كان يمهدها لها وهى ضم مصر ، فعهد اليه فى القيام
بالحملة الأولى .

ومن ذلك الحين تعلق قلب شركوه بمصر وأصبح يرى ضرورة
ضمها الى الدولة النورية ويلج على نور الدين فى ذلك حتى ليذهب
بعض المؤرخين الى أنه كان يطمع فيها لنفسه . ولكن سيرة شركوه تدل

على أنه لم يكن من أصحاب المطامع ، وإنما هو رجل مجاهد آمن بفكرة ومضى لتحقيقها ، وهو هنا يختلف عن أخيه الأكبر نجم الدين أيوب ، ولهذا لم يصل هذا الأخير الى ما وصل اليه شيركوه من الرياسة وبعد المنزلة . وكان عليه أن ينتظر حتى تجلى نبوغ ابنه صلاح الدين فاجتهد في أن يعوض عن طريق ابنه ما فاتته .

كان أسد الدين شيركوه قصير القامة يميل الى السمن ، نتيجة لاقباله الشديد على الطعام الدسم ، وكان الاجهاد المتواصل والاسراف في الطعام قد أصاباه بضغط الدم من زمن مبكر ، فكان وجهه يبدو أكثر الأوقات محتقنا مما حدا بالمؤرخين الى القول بأنه كان أحمر الوجه . وكان قد فقد إحدى عينيه في المعارك ، ولكنه كان جنديا مفطورا على القيادة يخالط حب الميادين دمه ، فمنذ ظهوره على مسرح الحوادث لا نراه الا في الميدان ، كأنما قد فارق البيوت والمضاجع الى غير رجعة . وكان كريما على جنده لا يكاد يصيب من مغانم المعارك شيئا ، بل يؤثر بها جنده ، ثم انه كان صارما يعرف كيف يقر النظام في معسكره ، فهابه جنده وأحبوه ، وركبوا معه المخاطر في حملات هي أقرب الى المغامرات ، ولقد قطع الرجل الشام بجيوشه من شمال لجنوب ومن شرق لغرب عدة مرات ، واخترق صحراء سينا مقتحما المصاعب

وعواصف الرمال ثلاث مرات ، ووصلت جيوشه الصعيد والقيوم
والاسكندرية ، وحج في نفر من أصحابه ، وذهب الى بغداد أكثر
من مرة ، وكانت حياته كلها جهادا وحربا ، لا يسكن الى الراحة
يوما ، وكان ما عاش رعب الصليبيين في الشام ، وأمتا للإسلام
والمسلمين من الشام الى أطراف مصر .

وكان أسد الدين بطبعه عميق الايمان ، ولكن عمله مع
نور الدين زاد ايمانه عمقا وأضفى عليه شمولا في النظرة
والاحساس ، بحيث أصبح يشاركه فيما آمن به ودعا اليه من
وحدة الاسلام وسلامة المسلمين وضرورة اخراج الصليبيين من
ديارهم ، وقد لمحنا جانبا من فهمه السليم لهذه الناحية خلال
ما رويناه من تاريخه . ولقد عاجله الموت عن أن يوطد أركان
الملك الذي أعان على تشييده بيديه ، وكان من حسن الطالع أن
صاحبه ورفيقه المقرب اليه كان ابن أخيه صلاح الدين ، فقبس
من ايمانه وتدريب على يديه ثم نهض لاكمال الرسالة الكبرى .

وانه لمن المصادفات السعيدة في تاريخ الاسلام أن تمتد سلسلة
المجاهدين نحو القرن ، وكلما غاب من الميدان زعيم نهض من
بعده زعيم ، وكل خلف يزيد على السلف في المواهب والملكات ،
حتى انتهت الراية آخر الأمر الى قمة النبوغ السياسى العسكرى

الاسلامى فى ذلك العصر عند صلاح الدين ، فقد قبس ايمان نور الدين وسياسته وبعد نظره واتجاهاته فى العمل ، وأخذ عن عمه الجراة والاقدام وفن الحرب ، وأضفى على ذلك كله من مواهبه الشخصية وخلاله التى تفرد بها ما جعله أعظم شخصيات العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء .

*

وقد كان لدخول مصر فى دولة نور الدين دوى بعيد لا فى مملكة بيت المقدس وحدها بل فى الغرب الأوروبى كله . فأما أمورى فقد زلزلت الأرض من تحت أقدامه ، فجعل يلوم من قصحه من رجاله بالعودة من مصر ، واشتد عليهم حتى اضطر رئيس الاستبارية الى مغادرة فلسطين والعودة الى بلاده . ثم اتجه أمورى نحو أوروبا يطلب من ممالكها أن تجرد لعونه حملة صليبية جديدة ، فأرسل سفارة ضخمة يقودها بطريق بيت المقدس وأسقف قيصرية ، وزودها بخطابات الى لويس السابع ملك فرنسا وفرديريك امبراطور ألمانيا وهنرى الثانى ملك انجلترا ومرجريت الوصية على عرش صقلية والى نفر من كبار الشخصيات مثل أكانت فلاندر وبلوا وتروا ، ولكن السفينة صادفت عاصفة فى البحر فارتدت الى عكا . فأرسل أمورى سفارة أخرى لقيت البابا اسكندر الثالث فزودها بتوصيات للملوك .

فأما لويس السابع فقد سوف فى الرد حتى انقضت سستان
على السفراء فى باريس مات خلالهما واحد منهم ، ثم ذهبت بقيتهم
الى انجلترا فاعتذر لهم هنرى الثانى بمتاعبه مع خصومه ،
ولم تستطع السفارة زيارة ألمانيا بسبب الخصومة بين البابا
والامبراطور ، وعادت الى بيت المقدس دون نتيجة .

فعاد أمورى واتجه ببصره نحو القسطنطينية ، وكان مانويل
كومنين قد أدرك النتائج التى ترتبت على اتساع نفوذ نور الدين
ودخول مصر فى طاعته ، فوعد بإرسال أسطول يهاجم مصر ،
وشجعه على ذلك اشتغال نور الدين بمتاعب جديدة سببها له
أمير ديار بكر ، ثم مرض أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل
مرض الموت ، فحرص نور الدين على أن يكون قريبا من الموصل
لينظر فى مصير امارته اذا مات ، وسنورد تفصيل ذلك فى الفصل
التالى . ويهنا هنا أن نذكر أن الامبراطور البيزنطى تشجع عندما
علم بوفاة أسد الدين شيركوه ، وحسب أن صلاح الدين شاب
صغير لا يملك شيئا أمامه ، ثم أتته رسائل من الخليفة العاضد
تستحثه على المسير الى مصر ، وتعهده بالمعاونة للخلاص من جند
نور الدين جملة .

وكان صلاح الدين قد أبدى من يوم توفى عمه من المهارة

ما دل على أنه خير خلف لخير سلف ، فعرف كيف يستخلص الوزارة لنفسه ويقوم مقام شيركوه في كل شيء . ويذهب المؤرخون الى أن رأى العاضد استقر على اسناد الوزارة اليه لأنه كان أضعف أمراء شيركوه وأصغرهم سناً ، فظن أنه اذا ولاه تمكن رجال القصر الفاطمي من استعادة سلطانهم . وليس شيء أبعد عن الصواب من مثل ذلك القول ، وانما هو قصص يرسله مؤرخونا القدامى على سبيل الطرافة أو للدلالة على قدرة الله أن يسوق الملك الى من يشاء .

والحقيقة أن صلاح الدين كان الساعد الأيمن لشيركوه ، وكان أقدر رجاله وأبعدهم نظراً رغم صغر سنه ، فهو صاحب فكرة الانسحاب الى بليس ، وهى فكرة أنقذت جيش شيركوه أثناء الحملة الأولى ، وهو الذى حمى الاسكندرية ودافع عنها وأرغم الصليبيين على احترامه . أما بقية من كانوا معه من القواد فلم يندبهم نور الدين الا على سبيل المساعدة ، وكانوا في مجموعهم ضباطا أو مماليك لنور الدين يبعثهم في المهمات ويعهد اليهم في الأمور ، ولكنه لا يعهد اليهم في قيادة ذات خطر .

وقد رأينا صلاح الدين الى الآن أكثر من مرة ، وشهدنا حسن منابه في الأمور ، ولكننا لم نسمع قبل ذلك عن عين الدولة الياروقى

وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحارمى ومن اليهم من رجال جيش شيركوه الذين يزعم المؤرخون أنهم كانوا أظهر من صلاح الدين وأقوى ، وأن العاضد اختاره لأنه أقلهم جميعا . لم يكن فى الواقع فى جيش شيركوه أهم من صلاح الدين يوسف ولا أقوى ، وإذا أراد العاضد أن يعهد بالوزارة لأحد بعد شيركوه فليس هناك الا صلاح الدين .

ثم اننا نشك فى أن العاضد فعل هذا من تلقاء نفسه ، فان رأى فى الموضوع لم يكن له بل لنور الدين ، فهو أمير البلاد والرئيس الأعلى ، ولم يبلغ به الأمر أن يترك العاضد ورجال قصره يختارون له نائبه على مصر . أقول ان هذا كان رأى نور الدين وان لم يؤكد لنا المؤرخون ذلك ، وأبسط الدلائل على ذلك أن نور الدين تلقى نبأ قيام صلاح الدين بالأمر وكأنه أمر مقرر معروف لديه ، وأفاض عليه من الاكرام والرضى ما دل على أنه رجله المختار لا رجل العاضد .

وكان صلاح الدين بعد ولايته قد فرض رقابة شديدة على الخليفة الفاطمى ، فلم تلبث أن وقعت فى يده رسائل رجال القصر الى الامبراطور البيزنطى . ويذهب المؤرخون — استرسالا منهم فيما يستحبونه من القصص — الى أن احدى الرسائل وقعت

فى يده على سبيل المصادفة ، ويحكون أن حاملها دسها فى نعله ،
فلقيه تركمانى فأعجبه النعل فسلب صاحبه اياه ، ثم وجد الرسالة
فيه فمضى بها الى صلاح الدين . وأقرب الى المنطق أن يقال ان
صلاح الدين كان يراقب الداخلين الى القصر والخارجين منه ،
فكان من المعقول أن تقع فى يده هذه الرسالة ، ومصدق ذلك
أنه تظاهر بعد ذلك بأنه لم يعرف شيئاً ، ومضى يراقب ثعالب
القصر وعلى رأسهم خصى أسود يسمى مؤتمن الخلافة ، وما زال
يراقبه حتى تأكدت شبهته فيه ، فانتظر حتى خرج الرجل الى ضيعة
له ، فأمر به فقتل ، ثم قبض على بقية خدم القصر ، وولى رجالاً
من عنده على رأسهم بهاء الدين قرقوش ، وعندما علم السودان
بما جرى على مؤتمن الخلافة وأصحابه ثاروا فأطلقاً جمرتهم ،
وكانوا خمسة آلاف ، وقضى على هذه الشرذمة من جند الخلافة
الفاطمية التى طال عبثها بأمن البلاد .

ولم يدر أحد من الصليبيين والبيزنطيين بما حدث ، فخرج
الأسطول البيزنطى من البوسفور فى ذى القعدة سنة ٥٦٤/يوليو
سنة ١١٦٩ يقوده قبطان فخم الاسم يسمى أندرونيكوس
كوتوستيفانوس ، ووصل الى قبرص ثم ألم بعكا حاملاً معونة من
مال لأمرى ، وانتظر الأسطول البيزنطى أن يقبل جنود مملكة

بيت المقدس وفرسانها ، ولكن أمورى لم يكن لديه فرسان يبعث بهم ، فقد غضب الداوية وخاصموه ، وكانت حملة مصر الأخيرة قد أصابت الاستبارية بخسائر ثقيلة . ولبت الأسطول فى عكا الى صفر سنة ٥٦٥ / أكتوبر سنة ١١٦٩ ريثما يتيسر لبعض فرسان بيت المقدس مرافقته .

وضجر مانويل كومنين من ذلك التلكؤ ، فقد كان أرسل أسطوله فى هذه المهمة حاسبا أنها تتم فى ثلاثة شهور ، وانقضت هذه الشهور وأسطوله بعد راس فى عكا ، واحتاج رجاله للمؤونة وعدموها فى عكا وقبرص . وفى هذه الأثناء كان صلاح الدين قد تخلص من مؤتمن الخلافة ورجال القصر وقضى على جنود السودان ، وأعقب ذلك بالقضاء على الفرقة الأرمنية التى كان القصر الفاطمى يعتز بها ، فوقع رهبته فى النفوس ، فقد كانت هذه الفرقة قد اعتصمت بمعسكراتها ، حاسبة أن صلاح الدين سيسرع الى طلب مرضاتها ، فما راعها الا وهو يشعل النار فى المعسكرات على رجالها ، فهلكوا أجمعين .

وبينما اتجه الأسطول البيزنطى نحو دمياط ، دخلت قوات أمورى أرض مصر وتجمعت عند القرما (ييلوزيوم) وحسب صلاح الدين أنها تسير فى البر فحصى بلبيس ، ولكن الجيش

الصليبي ركب سفن الأسطول البيزنطى مفضلا الانتقال فى البحر . وفوجىء صلاح الدين بهجوم أعدائه على دمياط ، ولم ير من الحكمة أن يترك القاهرة ، فأرسل الجند نحو دمياط ، وبعث يطلب الأمداد من نور الدين ، فأتته فرق الجند أرسالا ، مما يدلنا على تنبه نور الدين وحسن إدارته . وعجل أهل دمياط فمدوا سلسلة ضخمة عبر النيل تحول دون وصول السفن الى البلد ، فانصرف الصليبيون والبيزنطيون الى النهب والغارة فيما حول دمياط .

واختلف الحليفان ، فأما أندرونيكوس فأشار بالهجوم على دمياط برا ، وأما أمورى فرأى الانتظار حتى ينشأ أبراجا خشبية تمكنه من مهاجمة الأسوار العالية ، وطال الأخذ والرد ، وتوالى وصول الجند من صلاح الدين ونور الدين ، وعدم بحارة الأسطول البيزنطى القوات شيئا فشيئا ، ورفض الصليبيون أن يعينوهم ببعض ما لديهم من الأزواد وكانت وافرة فى معسكرهم . ثم وقع سوء الظن بين الجانبين ، وتهامس رجال الجيش الصليبي بأن القبطان البيزنطى لا يريد الا أن يحوز دمياط لسيده الامبراطور . وبدا فشل الحملة واضحا ، وأقبل أهل دمياط يقذفون الأسطول البيزنطى بكرات القطن المشتعلة ، فشبت النار فى سفن الأسطول

وزاد أمره حرجا ، ثم هبط المطر مدرارا ، ووجد الصليبيون أنفسهم في سيل من الماء وقد تحولت الأرض تحت أقدامهم الى أوحال ، فلم يبق من الرحيل مناص .

ثم بلغت أموري أنباء غارات عنيفة قام بها نور الدين في أراضي مملكة بيت المقدس ، فعجل بالرحيل ، وأمر باحراق ما كان قد أنشئ من آلات الحصار ورحل عن مصر فوصل عسقلان في ربيع الثانى سنة ٥٦٥ / ديسمبر سنة ١١٦٩ . أما الأسطول البيزنطى فقد هبت عليه أثناء العودة رياح زعزع حطمت معظم سفنه وأغرقتها ، وحملت الأمواج جثث العرقى الى شواطئ مصر والشام ونجا أندرونيكوس كوتتوستيفانوس فى مركب صغير وصل به الى ساحل قليقية فى آسية الصغرى ، ومن ثم مضى بطريق البر حاملا نبال الخيبة الى الامبراطور .

هكذا فشلت تلك المؤامرة التى دبرها الامبراطور وحليفه أمورى ، وعلم كلاهما أن مصر قد صارت بيد رجل يحسب له ألف حساب ، واذا كانت هذه الحملة قد انجلت عن شىء واضح فهذا الشىء هو أن أقدام صلاح الدين قد استقرت فى مصر ، وأصبح سيد البلاد دون منازع . ومن الخطأ أن نذهب الى ما يذهب اليه المؤرخون من أنه بدأ يمهد الأمر لنفسه من ذلك الحين ، فقد

كان الرجل أقوم خلقا وأوفى أمانة من أن يفكر في أمر كهذا مع نور الدين ، وإنما كان رجله ونائبه ، يحكم البلاد باسمه قولا وعملا ، وسنعرض لهذا الموضوع في الفصل التالي .

ويهمنا الآن أن نقف عند هذه النتيجة : لقد ضم نور الدين مصر الى جبهة الكفاح ، وحقق الحلقة الأخيرة من حلقات التوحيد تمهيدا للضربة القاضية ، حققها كما حقق غيرها بالاخلاص والاقدام وبعد الهمة والكياسة والخلق الكريم .

الراية تنتقل... من بطل الى بطل

رحلوا ، وفق القلب المعنى بعدم وجوده على مر الزمان مخيم
رحلوا ، وقد لاح الصباح ، وإنما تسرى إذا جن الظلام الأنجم
« المهذب بن علي الفسافي الأسواني »

كان نور الدين في الثالثة والخمسين من عمره عندما تحقق حلمه الكبير بفتح مصر ومد جبهة الاسلام المتحدة الى برقة غربا والى النوبة جنوبا ، وكانت قد مضت له أربع وعشرون سنة في ميادين الجهاد في سبيل الوحدة ، وأدرك أن قد آن الأوان ليخطو الخطوة الأخيرة . وتطلع ببصره نحو الغاية المجيدة التي رجا الله أن يكرمه بإدراكها : القضاء على أولئك الدخلاء واسترداد بيت المقدس ، وتغذية آثار هذا العدوان الدموي الظالم الذي شنته بلاد غرب أوروبا على العرب والمسلمين دون ذنب جنوه أو جريرة.

ولو رجل آخر مكانه لأحس في هذه السن أن أوان الراحة قد آن ، فقد أفنى أيامه على صهوة جواده تحت ظلال السيوف ، حتى لقد تعب رجاله وقعد بالكثيرين منهم الاجهاد الطويل عن الخروج بالجيوش ، وأكلت السيوف معظم البقية أو أدركتهم الحتوف . وخلف هذا الجيل من أتراب نور الدين جيل جديد من الشبان نشأوا وكبروا في رعايته واعتمد عليهم في جهاده بعد مرضه الأول الذي ذكرناه ، وحتى هذا الجيل أدرك الكثيرين من أفراد التعب أو تخطفهم الموت ، والرجل باق في مكانه كالطود الشامخ يروح ويغدو ويغزو كأنه قد من حديد ، وما قد من حديد وانما هو الايمان الذي ملأ قلبه كان يقيمه على قدميه ويدفعه . وكان كلما تقدمت به السن واتسع ملكه تزايدت مشاغله وتراكت أمامه المهام ، ولكن ذلك كله لم يصرفه عن الغاية العليا .

وتصور لنا حاله خلال السنوات الخمس الباقية من عمره عبارة رواها جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى عن ابن خلكان بعد أخبار مسير الأسطول البيزنطى للتعاون مع الصليبيين على الاستيلاء على دمياط ، قال : « ولما سمع فرنج الشام ذلك اشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكا من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكا لنور الدين يقال له حظليج العلم — دار (أى حامل

الراية) وذلك في شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين (وخمسمائة)
ولما رأى نور الدين نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم ، فنزل
على الكرك فحاصرها في شعبان من السنة المذكورة ، فقصدته الفرنج
الساحل فرحل عنها ، وقصد لقاءهم فلم يقبوا له . ثم بلغه وفاة
مجد الدين بن الداية ، وكانت وفاته بحلب في شهر رمضان سنة
خمس وستين ، فاشتغل قلبه ، فانه كان صاحب أمره ، وعاد يطلب
الشام ، فبلغه أمر الزلازل بحلب التي أخربت البلاد ، وكانت في
ثاني عشر شوال ، فسار يطلب حلب ، فبلغه موت أخيه قطب الدين
مودود بالموصل ، وبلغه خبر موته وهو بتل باشر ، فسار من ليلته
طالباً لبلاد الموصل . ودام صلاح الدين في قتال الفرنج بدمياط ،
الى أن رحلوا عنها خائبين .

وهذه العبارة تصور لنا ثقل العبء الذي اضطلع به هذا
الرجل ، ومن العجيب حقاً أنه استطاع أن ينهض به كله وأن يعطى
كل مشكلة حقها من العناية كما سنرى .

وقد فات ابن تغرى بردى أن يذكر ما قام به نور الدين في ذلك
الحين لمعاونة صلاح الدين ، ومواصلته ارسال الجند الى دمياط
جماعة بعد جماعة .

والظاهرة التي نلاحظها من الآن فصاعداً هي حاجة نور الدين

الى الرجال الذين يستطيعون معاوته في حمل هذا العبء الباهظ ، فعلاوة على ما ذكرناه من موت الظاهرين من رجاله أو قعودهم عن الحركة ، أرسل نور الدين مع صلاح الدين جماعة من خيرة من بقى له من الرجال ، وبقي هو وحده تقريبا ، يحاول أن ينهض بالمسئولية الكبرى منفردا على قدر ما استطاع .

ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين لم يكد يستقر في مصر حتى فكر في الاستقلال بها وأخذ يمهد للخروج على نور الدين ، وليس ذلك بصحيح ، بل ليس صحيحا على إطلاقه ما يقال من أن النفرة وقعت بين الرجلين ، وما زالت تشتد حتى قرر نور الدين المسير الى مصر لرد تابعه الى الطاعة . ذلك كله مستبعد ، وإن كان من المعقول أن يقع بين الرجلين خلاف في الرأي حول خطة تتبع أو غاية تستهدف ، وهذا الخلاف طبعى خاصة وكل من الرجلين في الذروة عقلا وكفاية وإيمانا ، ولكن الخلاف في رأى شيء ، والخصومة والعداوة شيء آخر . وسنرى فيما يلى أن الاتفاق بين الرجلين كان تاما في الأهداف والغايات ، وقد ظلا الى آخر أيام نور الدين على أصفى ما يكون من الود والاخاء ، وعندما مات نور الدين نهض صلاح الدين وحمل الراية ليتيم ما بدأه أستاذه نور الدين .

ولكن المؤرخين القدامى يغلب عليهم سوء الظن في طبائع

البشر ، ولا يكادون يستبعدون على أحد خيانة ، وربما كانوا معذورين ، فقد عاشوا في أعصر اضطربت فيها الأحوال وقل الأمان وندرت الثقة بين الناس . وأبو شامة نفسه ، مؤرخ نور الدين وصلاح الدين ، كان أبعد ما يكون عن تقدير الرجلين قدرهما الصحيح ، ولم يتفطن الا الى جوانب التقى والعدالة عند نور الدين خاصة . وابن شداد ، مؤرخ صلاح الدين ومصاحبه في غدواته وروحاته سنوات بعد سنوات ، لا يزال يتعجب مما كان يسمع من آراء صلاح الدين وما يرى من أعماله ، وكأن صحبته لهذا الرجل لم تعنه على فهم اتجاهات فاتح بيت المقدس وادراك سياساته .

وقد نظر نور الدين من أول الأمر الى صلاح الدين نظرته الى تابع مخلص وصديق معين ، وأفاض عليه من الحب والثقة ما مكن له الأمر وهياًه للعمل العظيم . فلم تكد أقدام صلاح الدين تستقر بمصر حتى بعث الى نور الدين يطلب اليه أن يبعث اليه بأبيه وأهله ، فبادر نور الدين بالاستجابة لهذا الطلب ، وقد كان نجم الدين أيوب من كبار رجاله ، وكان في حاجة اليه ، ولكنه ضن على نفسه به وضمه الى ابنه ليعينه برأيه وتجربته ، ولم يكتف بذلك بل أشفق على نجم الدين أيوب ومن معه أن يتعرض لهم الصليبيون وهم يجتازون أراضيهم ، فقرر القيام بحملة على ناحية بعيدة حتى

يشتغل الصليبيون عن قافلة نجم الدين ، فسار في عساكره الى حصن الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المنجنقات ، فتجمع الصليبيون للسير نحوه يقودهم هونفروا الثانى (ابن الهنفرى) ، فخفف اليهم ، وتراجعوا أمامه ، فمضى بجيشه يضرب شمالا ويمينا عساهم يتحركون للقائه ، ولكنهم هابوا اللقاء ، ثم بلغه أن نجم الدين ومن معه قد دخلوا أرض مصر سالمين ، فعاد أدراجه . وقد انتهز أصحاب طرابلس فرصة اشتغاله بحصار الكرك واستولوا على حصن عكر وضموه الى عرقة ، ومنحهما أمورى للاستبارة (جمادى الآخرة ٥٦٥ / أبريل ١١٧٠) .

وأعقبت ذلك زلازل عنيفة شبيهة بتلك التى وقعت منذ سنوات ، فتهدم الكثير من بلاد المسلمين والصليبيين وحصونهم على السواء ، وعظم وقع النازلة في شيزر وحماه وحمص وحصن الأكراد (كراك دى شيفالييه) وطرابلس وأنطاكية . ومن الغريب أن الصليبيين طربوا لما أصاب أنطاكية — وهى فى أيديهم — لأن كنيسة الرسول بطرس انهدمت على أثناسيوس بطريق الأرثوذكس وقساوسته وهم يقيمون القداس ، فهلكوا ، وأسرع بوهيموند الثالث فاستدعى الأسقف الكاثوليكي الأسبق ايمرى وجعله بطريقا على البلد ، واعتبر ذلك نعمة من الله فألا حسنا .

ولم يستطع الامبراطور البيزنطى معارضة هذا الاعتداء على ما كان يعتبره حقاً له على أنطاكية ، لأن أمورا وقعت في قليقية شغلت باله . ذلك أن توروس ملك الأرمن مات سنة ٥٦٣/١١٦٨ وأوصى من بعده لابن صغير يسمى روبن الثانى تحت وصاية فارس فرنجى يسمى توماس ، فغضب مليح أخو توروس وعول على أن يحوز العرش لنفسه . وكان مليح رجلاً قلقاً لا يثبت على حال ، فقد انضم قبل ذلك الى الداوية وأقسم على أن يكون منهم ، ثم فر الى نور الدين وأعلن الرغبة في دخول الاسلام ، فقبل نور الدين اسلامه ، وأمدّه بجند تمكن من أن يستولى على المثلث بسواحلهم ، ثم استرسل فغزا أراضى الدولة البيزنطية وأخذ المصيصة ، ثم هاجم حصن بغراس ، وكان بيد الداوية . فاستغاث بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية بأمورى ، فأقبل منجداً له وطرده مليح ، وأعاد سلطة الامبراطور على قليقية ، فكان في ذلك ترضية له عما خسره من السلطان الدينى على أنطاكية ، ولكن مليح لم يسكن ، فعاد يغزو قليقية .

وقد شغل نور الدين عن متابعة هذه السياسة حيال الدولة البيزنطية ، لأن أخاه قطب الدين مودود صاحب الموصل توفى في ذى الحجة سنة ٥٦٥ / سبتمبر سنة ١١٧١ . وبدأت مشكلة من

يخلفه . وهى مشكلة خالدة فى التاريخ الاسلامى : ما توفى ملك أو خليفة أو أمير الاثار النزاع بين الورثة بعضهم وبعض ، وبينهم جملة وبين من يرى أنه أصلح منهم ، اذ لم يكن هناك عرف ولا قانون يتبع فى هذه الحالة ، والأمر لمن غلب أو أحسن الحيلة أو اتفق مع الخدم ونساء القصر ، وما الى ذلك من المآسى التى حفل بها تاريخنا من أوله الى آخره . ولم يلتفت المشرعون والفقهاء الى هذه الناحية ، وتركوها على أهميتها دون رأى ، وكل ما فتح الله عليهم به أن يقولوا : « الأمر للأصلح .. » ، وهى عبارة مبهمه لا تنفع فى شئ ، اذ من من المطالبين بمثلك لا يرى أنه الأصلح ؟ وقد اجتهد الفقهاء فوضعوا القواعد فى وراثة البيت والدكان والحقل والمال ، وأسرفوا فى ذلك اسرافا جاوز المطلوب ، أما وراثة العرش — وهى أهم من ذلك كله — فلم تلق عناية من أحد ، فحفل تاريخنا كله بالفواجع والدماء ، وقد رأيت ما وقع عندما مات عماد الدين زنكى ، ولولا ما أوتيته نور الدين وسيف الدين غازى من الحكمة لضاع الأمر بددا ،

وستتكرر المأساة بعد موت نور الدين ، لولا أن تدارك الله المسلمين بوجود صلاح الدين ، وعندما يموت هذا تقع المأساة حقا ويفترق المسلمون أحزابا يقاتل بعضها بعضا ، فينشئ الصليبيون

ملكة عكا لتحل محل ملكة بيت المقدس ، ويتأخر اخراج الصليبيين من أرض الشام ما يزيد على القرن من الزمان .
 وكان قطب الدين مودود قد عدل عن التوصية لابنه الأكبر عماد الدين زنكى الثانى وأوصى لابنه الأصغر سيف الدين غازى ،
 لا لشيء الا لأن وزير سوء يسمى فخر الدين عبد المسيح كان يكره عماد الدين لما يعلم من ايمانه وقوته بسبب ملازمته لنور الدين وحضور المواقع معه ، وكان عماد الدين الى هذا صهر نور الدين :
 تزوج ابنته . وكان نور الدين لا يجب فخر الدين هذا لفساد ضميره ، وكان طبعيا أن ينفر لنصرة عماد الدين الثانى .

فلما سار الى الموصل فى أوائل سنة ٥٦٦ / سبتمبر سنة ١١٧٠
 لجأ فخر الدين عبد المسيح الى أتابك شمس الدين ايلدكر صاحب همذان وبلاد الجبل وآذربيجان وأصفهان يستنصره على نور الدين فأرسل هذا يحذر نور الدين من التدخل فى شئون الموصل ، فقال نور الدين للرسول : « قل لصاحبك : أنا أصلح لأولاد أخى منك ، فلم تدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان ! فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا — ولى ربع بلادك — بالفرنج ، وهم أشجع العالم ، فأخذت معظم

بلادهم وأسرت ملوكهم . ولا يحل لى السكوت عنك ، فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وازالة الظلم عن المسلمين » .

وقد كانت هذه المقالة من نور الدين كافية لرد هذا الغافل الى رشده ، فدخل نور الدين الموصل ، ورتب أمورها ، فجعل الموصل لسيف الدين غازى الثانى ، وسنجار لعماد الدين زنكى الثانى .

وقد ذهب نور الدين مع التسامح الى مداه عندما أقر سيف الدين غازى على الموصل ، ولم يرض القاضى كمال الدين الشهرزورى عن هذه القسمة ، وتوقع أن تكون سببا فى المتاعب فيما بعد ، وقد صدق ، فبعد موت نور الدين بعام واحد (سنة ٥٧٠ / ١١٧٤) استولى سيف الدين غازى على البلاد كلها بحد السيف ، ثم طمع فى حلب أيام صلاح الدين ولقى منه هذا عناء عظيما .

أما فخر الدين عبد المسيح فقد عفا عنه نور الدين — على عهده مع المغلوبين من أعدائه — واستصحبه معه وأقطعه اقطاعا واسعا ، وغير اسمه الى فخر الدين عبد الله . ولم تثمر العارفة عند هذا الخبيث ، فما كاد نور الدين يتوفى حتى أسرع الى سيف الدين غازى يحرضه على خيانة العهد وغزو بلاد أخيه ، بل أطمعه فى حلب ، ولكن سيف الدين أهمله ، فعاش بقية أيامه تابعا ذليلا وخسر اقطاعه الواسع فى الشام .

ولم يشأ نور الدين أن يترك الموصل دون مكرمة ، فأمر
بعمارة مسجدها الذى سمي بعد ذلك بالجامع النورى ، واختار
شيخا صالحا يسمى عمر الملا فدفع اليه ستين ألف دينار ليشتري
الحوائيت والمساكن المجاورة ويضم أرضها الى الجامع ، ويقوم
بعمارته وبنائه ، فتم بناؤه فى ثلاث سنين ، ودخل نور الدين
المسجد بعد تمام بنائه وصلى فيه ، ثم خرج فوقف على شاطئ
دجلة ، وأقبل الشيخ الملا اليه ويده الأوراق ليطلعه على حساب
ما أنفق فقال نور الدين : « ياشيخ ، نحن عملنا هذا لله تعالى .
دع الحساب ليوم الحساب » ثم رمى بالأوراق فى ماء دجلة ..
وكان أمورى قد أراد أن يزداد تقربا من مانويل كومنين ليتقوى
به على نور الدين ، فزار القسطنطينية فى رمضان سنة ٥٦٦ / ربيع
سنة ١١٧١ ، وعقد معه اتفاقا لا تعرف نصوصه على وجه التحقيق ،
ولكن مؤرخى مملكة بيت المقدس يقولون انها اتفقا على أن
يعترف بمانويل كومنين رئيسا أعلى للمسيحيين الأصلاء من أهل
البلاد التى بيد الصليبيين ، وأن يقوم الاثنان بحملة على مصر ،
وأن يعملوا معا فى القضاء على مليح الأرمنى ؛ وحصل مانويل على
بعض الحقوق على قبر السيد المسيح فى بيت لحم .
وعاد أمورى الى بلاده راضى النفس عما لقي من التوفيق فى

القسطنطينية ، ولكنه تبين أن ابنه ووريثه بولدوين — وكانت سنه تسع سنين — مصاب بشلل في ذراعه ، وأن هذا الشلل مظهر لمرض آخر عضال يحول دونه والعرش ، فقال الناس ان ذلك عقاب من الله ، لأن أم الغلام آجنس كانت لا تحل لأُمورى وقد تزوجها على غير ارادة الكنيسة ، وطلقها ليرقى العرش كما قلناه . فمضى أُمورى يبحث عن زوج لابنته سيبيل يصلح للوصاية على العرش بعد موته والقيام بشئون المملكة اذا حاج الأمر الى ذلك ، وقد طال بحثه دون جدوى .

وكانت هذه السنوات الأربع التى انقضت بين فتح نور الدين لمصر ونهاية حكمه هى الفرصة التى كان ينبغى أن يضرب المسلمون ضربتهم فيها للقضاء على مملكة بيت المقدس قضاء مبرما . فقد كان أمرها قد وهن وقل رجالها حتى لم يعد يحميها الا الاستتارية ، وكان ملوك أوروبا فى شغل عن الشام وأهله ، ولم تكن الدولة البيزنطية على حال تمكنها من التدخل ، فقد كان مانويل كومنين قد علت سنه وتوالت عليه الهزائم ، وانتقض عليه الأرمن وكاد يفقد السلطان على طرابلس ، ولكن الفرصة أفلتت بسبب اختلاف السياسة ووجهة النظر بين نور الدين وصلاح الدين .

ذلك أن نور الدين كان يرى أن فتح مصر ما هو الا تمهيد

اختلاف وجهة النظر بين نور الدين وصلاح الدين

لتوجيه الضربة القاضية ، وهو لم يجتهد في ضمها الى جبهة الكفاح الا لهذه الغاية ، فلم يكن اتساع المثلث في ذاته ليعنيه في شيء ، وله ملاحظة تدل على ذلك بأجلى بيان ، فقد أرسل اليه صلاح الدين شيئا من الذخائر التي حازها بعد استيلائه على قصور الفاطميين ، فلما حضرت بين يديه قال : « والله ما كان لي حاجة الى هذا . ما وصل الينا عشر معشار ما أنفقناه على العساكر التي جهزناها الى مصر ، وما قصدنا بفتحها الا فتح الساحل وقلع الكفار منه » ، وقد بدأ يستعد للخطوة الحاسمة فعلا .

أما صلاح الدين فقد أهتم أمر ترتيب مصر أولا ، وصرف في هذا همه خلال السنوات الباقية من حكم نور الدين ، فلم يتعاون معه في هذه الغاية التعاون الكامل ، مما ساء نور الدين وأغضبه . ثم مضت أيام وانتهى هو من ترتيب شئون مصر ، ونهض ليوصل الحرب المقدسة ، فلاقى في ذلك عناء عظيما ، اذ كان عليه أولا أن يقضى على منافسيه والراغبين في الانفصال عن الكتلة الموحدة ، وخاض في ذلك السبيل حروبا طويلة ضاعت فيها سنون كثيرة . وتغيرت الأحوال في أوروبا في أثناء ذلك ، اذ تولى أمورها في فرنسا وانبجثرا رجال ذوو نشاط وحمية ورغبة في الخروج الى الشرق ، فلم يكد صلاح الدين يستولى على بيت المقدس حتى

اختلاف وجهة النظر بين صلاح الدين ونور الدين

نهضت أوروبا لعون الصليبيين ، وأقبلت الحملة الصليبية الثالثة ، واضطر صلاح الدين الى التنازل عن بلاد الساحل التي كان استولى عليها ، وضاعت منه عكا بعد مأساة طويلة ، بل قام بنفسه بهدم أسوار غزة وعسقلان قبل اسلامهما لرجال الحملة الصليبية الثالثة تنفيذا لصلح الرملة ، ولم يتسع به الأجل لتدارك ما فات ، ومات والصليبيون يملكون بلاد ساحل الشام كله ، فأنشأوا مملكة عكا لتحل محل مملكة بيت المقدس ، وتأخر اخراج الصليبيين من أرض الشام نهائيا الى أيام الأشرف خليل .

وقد كان كلا الرجلين مخلصا فيما رأى ، ولكن رأى نور الدين كان أصوب ، ولو أعانه صلاح الدين لأنهى يده مأساة العدوان الصليبي على بلادنا ، ولوجد صلاح الدين فسحة من الوقت لترتيب شئون الشام والعراق ومصر جميعا ، لا مصر وحدها .

وليس هناك ما يدل على أن صلاح الدين كان يتحاشى لقاء نور الدين ، وان كان معظم المؤرخين يقررون ذلك ، فان صلاح الدين كان يعرف أن نور الدين ليس بالرجل الذي يغدر به أو يسىء اليه ، وكان يعرف كريم صنعه حتى مع مخالفيه وخصومه ، وقد رأينا اكرامه لمجبر الدين آبق وصبره الطويل عليه ، ووفاءه لمعين الدين أثمر مع ما كان عليه هذا من سوء النية وفساد الضمير ،

ورأينا احسانه الى سيف الدين غازى الثانى واقاراره على بلاده
رغم مصارحته اياه بالعداء ، ورققه بفخر الدين عبد المسيح رغم
اجرامه فى حقه ، فهل يعقل أن صلاح الدين - وهو من الذكاء
والفهم بأعلى مكان - يخشى أن يؤذيه نور الدين أو يعزله
عن مصر ؟

الحق أن صلاح الدين لم يستطع لقاء نور الدين فى المرتين
اللتين خرج نور الدين فيهما بجيوشه للالتقاء به والتعاون معه ،
لأنه - أى صلاح الدين - كان فى هذه الحقة من تاريخه أكثر
إهتماما بشئون مصر منه بأمر الحرب فى الشام ، فكان يكتفى
بالغارات السريعة والضربات العابرة ثم يعود الى مصر ، وقد ساء
ذلك نور الدين وأغضبه ، حتى فكر فى المسير الى مصر بنفسه
لصرف صلاح الدين عن هذا الاهتمام الشديد بأمره الداخلية ،
لا لكى يعاقبه . ولو كان فى نيته عقابه لكتب الى صلاح الدين
ولو معاتبا ثم منذرا ، ولكن النصوص التى بين أيدينا تخلو من أى
إشارة الى ذلك ، بل كان نور الدين شديد الحرص على توقيف
صلاح الدين ، فكان لا يخاطبه الا بالأمر الاسفهسلار (أى الأمير
القائد) وكان يستحى أن يكتب اسمه فى رأس الخطاب كما جرت
عادة الملوك أمثاله ، فكان يكتفى بوضع علامته فى أعلى الخطاب .

وليس صحيحاً ما يقال من أن صلاح الدين فكر في الخروج على نور الدين ، فقد قال لأمين سره ومؤرخه بهاء الدين بن شداد بعد موت نور الدين بزمان : « كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف ترده اذا تحقق قصده ، وكنت وحدي أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا (أى بين صلاح الدين ورجاله) الى أن وصل الخبر بوفاته » .

وقد بدا الخلاف بين السياستين بصورة واضحة في مسألة انتهاء الخلافة الفاطمية والخطبة للعباسيين بمصر ، فقد رأى نور الدين أن ذلك نتيجة طبيعية لفتح مصر ، وأنه ينبغي أن يتم في أقرب وقت ، ولكن صلاح الدين كان يراعى الظروف ويتنظر الوقت المناسب ، فقد كان رجال الفاطميين في مصر كثيرين ، وكان يرى القضاء عليهم رويدا رويدا قبل أن يقوم بذلك الانقلاب ، فتوالت رسائل نور الدين اليه تستحثه وهو يتمهل ، حتى اذا لم يجد محيصا عن ذلك التغير أقدم عليه وهو متهيّب ، فما راعه الا والأمر يتم في سهولة دون أن يعترض معترض . فكان نور الدين — على البعد — كان أدري بالموقف من صلاح الدين ، وكان

يعرف أن أهل مصر جميعا مؤيدون له في انهاء هذه البدعة الطويلة التى تسمى الدعوة الفاطمية .

ومن غريب الأمر أن كبار الفقهاء تهيئوا الخطبة للخليفة العباسى ، فلم يقدم واحد منهم على صعود المنبر وعلان الدعوة العباسية ، حتى قام بها شيخ جريء غريب عن مصر ، قال ابن الأثير : « وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمى يعرف بالأمير العالم ، رأيته أنا بالموصل ، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام ، وأن أحدا لا يتجاسر على أن يخطب للعباسى قال : أنا أبتدىء بالخطبة له ، فلما كان أول جمعة من المحرم (سنة ٥٦٧) صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للمستضى ففعلوا ذلك ، فلم ينتطح فيها عزازان » وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ، وهكذا انتهت خلافة الفاطميين على مصر دون أن يتحرك أحد من المصريين للدفاع عنها .

نعم ان نفرا من المستفيدين من فوضى الحكم الفاطمى حاول تجديد الدعوة بعد ذلك ، ولكنهم كانوا أجانبا كهذا المغامر الأفاقى عمارة اليمنى ، ولكن صلاح الدين قضى على دعوتهم بأهون سبيل ، وقتلهم جميعا . وكان خبر نهاية الدولة الفاطمية بشرى طرب لها العالم الاسلامى كله ، « وظهر من القرح والجذل ما لا حد عليه » كما يقول ابن الأثير ، وقد اعتبر نور الدين ذلك من نعم الله عليه ،

وأى نعمة تكتب لرجل أحسن من أن يتم على يديه توحيد قلوب
الناس ، وضمهم الى لواء واحد ؟

وفي صيف سنة ١١٧١/٥٦٧ أراد نور الدين أن يغزو أرض
الجليل ، ولكنه لم يجد عنده من المال والجند ما يكفى ، فسكن
حتى الخريف ، ثم بلغه أن الصليبيين استولوا على سفيتين
مصريتين كانتا تمران قريبا من اللاذقية ، فقام بغارتين واسعتي
المدى على أرض أنطاكية وطرابلس معا ، وخرّب حصن العرمة
وصافيتا ، حتى اضطر الصليبيون الى أن يؤدوا اليه مالا جسيما
لكى يرتد عنهما .

وفي العام التالى (١١٧٢/٥٦٨) قرر أن يهاجم أنطاكية ،
وكتب الى عز الدين قلعج أرسلان سلطان سلاجقة آسية الصغرى
يطلب اليه التعاون معه ، فوجد منه تراخيا ، فأوغل في بلاده وملك
من بلاده مرعش ويهسن وبرزبان وسيواس ، فخاف قلعج أرسلان
وأرسل اليه يستعطفه ويسأله الصلح ، فتوقف نور الدين آملا
في صلاح حاله ، ثم بلغه أن الصليبيين يستعدون لانتهاز الفرصة
والاغارة على بلاده ، فرضى بمصالحته وقبل أن يرد اليه ما فتح
من بلاده الا سيواس ، فقد رأى أن ترد الى ذى النون بن دانشمند
حليف نور الدين على أن يقيم فيها نائبا عنه ، واشترط على قلعج

أرسلان أن ينجده بعساكر للغزاة ، وقال له : « أنت مجاور للروم ولا تغزوهم ؟ وببيدك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام ، ولا بد من الغزاة معي » ، فأجابه الى ذلك . ولكن الظروف لم تسمح بالوفاء بالوعد ، فقد توفي نور الدين بعد ذلك بقليل ، وما دام نور الدين قد مضى فلا جهاد ولا قتال .

وقد كان لموقف نور الدين من عز الدين قلعج أرسلان صدى مباشر عند صلاح الدين ، فقد أدرك أن نور الدين لا يقدم على الجهاد شيئاً ، وأنه ينبغي أن يدع كل شيء ويتجرد للتعاون معه في القضاء على تلك الدولة التي تقوم كالشجي في حلق المسلمين وتحول دون اتصال مصر المباشر ببقية الجبهة الاسلامية المتحدة . وكانت الأخبار قد بلغت صلاح الدين بأن نور الدين غاضب فعلا بسبب تراجعهم المرة الماضية قبل أن يأذن له نور الدين في ذلك ، فكتب يعتذر اليه ويعد بالاشتراك في خطة واحدة للهجوم على مملكة بيت المقدس ، واتفقا على أن يكون تلاقيهما عند حصن الكرك جنوب شرقي البحر الميت .

وقد رضيت نفس نور الدين بهذا ، وانتهاز فرصة خروج أموري الى قليقية لحرب مليح الأرمني واستعد للخروج من دمشق ، وأرسل الى صلاح الدين الإشارة للخروج ، فخرج في شوال

سنة ٥٦٩/مايو ١١٧٣ ووصل الكرك ، وأسرع نور الدين للقاءه حتى وصل الرقيم ، ولم يبق على لقاؤهما غير يوم . وهنا يتغير الموقف على نحو أضاع على المسلمين هذه الفرصة النادرة ، ذلك أن نفرا من قواد صلاح الدين خافوا لقاء نور الدين ، وكانت قد بدرت منهم عبارات في حقه تدل على خسة ونكران للجميل وتستوجب العقاب فخافوا لقاءه ، بل ذهب بعضهم الى حد تحريض صلاح الدين على الخروج على نور الدين .

ثم ان أقارب صلاح الدين كانوا كثيرين حوله ، وكانوا جماعة من الطامعين لا ينظرون الا الى الافادة من هذه الفرصة التي أتيحت لهم من غير جهد بذلوه أو جدارة يستحقون عليها شيئا ، وقد شقى بهم صلاح الدين في حياته وشقى المسلمون بهم بعد مماته ، أقول ان هؤلاء الأذئاب حفزهم الخوف على أنفسهم وعلى ما في أيديهم على الاسراع بالعودة الى مصر تجنباً للقاء نور الدين .

ووجد صلاح الدين نفسه في حرج شديد ، فاذا هو في ذلك اذ بلغه نبأ مرض أبيه مرض الموت ، فتعلل به وبعث يقول ان أباه نائبه في القاهرة وأنه يخاف « أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم » ، وأرسل الى نور الدين « من التحف والهدايا ما يجلب عن الوصف » ، وما كان نور الدين صاحب تحف أو ألطاف ، فتأثر

لما حدث ، ولكنه طوى نفسه على ما فيها ، ولم يظهر تأثرا ، والأغلب أنه قدر ظرف صلاح الدين وعذره وقال لرسوله : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها » وعاد الى دمشق وقد أفلتت من يده فرصة كان يرجو من ورائها خيرا كثيرا للإسلام والمسلمين . وعاد صلاح الدين الى مصر ليجد أباه قد توفي على اثر سقطة من على حصانه (ذو الحجة سنة ٥٦٨ / يوليو سنة ١١٦٨) .

*

وتنفس أموري ومن معه الصعداء ، بافلاتهم من ذلك الخطر الذى تهددهم ، وتجدد فى نفوسهم الأمل على اثر ما تسامعوا به من وقوع الخلاف بين القائدين المسلمين العظميين ، وأتيحت لهم فرصة الاتصال بالباطنية فى الشام ، وكانوا مثلهم يرون فى نور الدين غدوهم الأكبر ، فهو الذى قضى على الفوضى ، الماء العكر الذى يصيدون فيه ، وهو الذى أنهى الخلافة الفاطمية ، وكان رجالها أبعوانا لهم على ما يطلبون من أذى المسلمين والقضاء على وحدتهم ، فمضوا يحومون حوله يحاولون اغتياله ، وقد كان نور الدين قد تجرد لقطع دابرهم فيما دخل تحت سلطانه من البلاد . ذلك أنهم كانوا قد انتهزوا فرصة التفرق والفوضى فى الشام قبل ظهور عماد الدين زنكى ، واعتمدوا على وزير مفسد يسمى

المزدقاني فتمكنوا من قلعة بانياس واتخذوها مركزا لنشاطهم ،
وكثر أتباعهم في دمشق حتى تركوا التخفي وخرجوا علانية
وأصبحوا قوة مرهوبة في ذلك البلد ، ونشروا الرعب فيه بما كانوا
يدبرونه من اغتيالات .

وقد زعم نفر من المستشرقين أن أولئك الباطنية كانوا جماعة
تدعو الى الإصلاح الاجتماعي وتأخذ بيد الفلاحين وتنصفهم من
الحكام وأوساط الناس من التجار والصناع من أهل المدن ، وليس
في مبادئهم أو أعمالهم ما يدل على ذلك ، وإنما هي عادة المستشرقين :
لا يجدون حركة مخربة أو بدعة هدامة أو رأيا مناهضا للإسلام
الحنيف إلا أكبوا عليها يدرسون ويبحثون ثم يقولون ان الحركة
المخربة هي ثورة جماعة مظلومة طُف بها كيل الشقاء ، وأن البدعة
الهدامة فلسفة وتفكير سليم ، والرأي المناهض حرية فكر ، وهذه
كتاباتهم بين أيدينا عن المذاهب الضالة التي أنزلت بالإسلام وأهله
أبلغ الضرر في عصره الأول وعن ثورة الزنج وحركة الباطنية وما
أليها ، كلها مدح واستحسان .

وكاننا سرهم أن الباطنية اغتالوا شرف الدولة مودود وآق
ستقر البرسقي ونفرا من أعلام الوحدة الإسلامية فمضوا يمدحونهم
ويقولون انهم أصحاب حركة زراع ضد أهل المدن ، وأنهم كانوا

ينادون بالاصلاح ، وأبسط الدلائل على فساد هذا الرأى هو أن الباطنية ملكوا فى فارس والشام بلادا شتى أزمانا متطاولة ، فأين الاصلاح الذى أدخلوه ؟

أما موضع الاعجاب بهم فهو الأذى الذى ألحقوه بالجماعة الاسلامية وتصديهم للقضاء على الوحدة ، وأهم من ذلك عند أولئك المستشرقين ميل أولئك المفسدين الى الصليبيين وتعاونهم معهم على المسلمين ، وتلك فى نظر المستشرقين فضيلة تستأهل الحمد ، وما وجدت مستشرقاً منصرفاً الى دراسة هذه المبادئ — من فان فلوتن الى برنارد لويس وايقانوف — الا تبين لى أنه من ألد أعداء الاسلام والمسلمين ، وأن انصرافه الى هذه الناحية ان هو الا مظهر لما يحرق قلبه من كراهة العرب والمسلمين .

ولقد تجرد المسلمون لحرب الباطنية ما استطاعوا ، ولكن رجالهم وجدوا عوناً من مفسدى الحكام مثل تاج الملك بورى وسيف الدين طغتكين حتى استشرى شرهم ، فلما توفى شيخهم المزدقانى فى ذى القعدة سنة ٥٢٣ / سبتمبر ١١٢٩ قام عليهم أهل دمشق وأوقعوا بهم مذبحة كبرى ، ودخل نور الدين دمشق بعد ذلك بسنوات وقد عول على القضاء عليهم ، فكان أول ما فعله هو الاجتماع بالتجار والمياسير والصناع والتحدث اليهم لاشعارهم

بأنه من ورائهم ، فقويت نفوسهم وزال عنهم الروح ، ونهضوا للقضاء على بقايا الباطنية في بلدهم . ثم استولى نور الدين على بانياس وعفى على آثارهم فيها ، فطلب الباقون منهم بطن الأرض وباتوا يتلمسون قرصة النيل من المسلمين .

فلما قضى نور الدين على الخلافة الفاطمية في مصر أسرع رئيسهم المعتصم في قلعة أَلَمْثُوت في فارس فأرسل شيخا خبيثا من شيوخهم ليوحد صفوفهم المتفرقة في جبال النصيرية ، وأقبل الشيخ - واسمه رشيد الدين سنان البصرى - الى الشام سنة ٥٦٤ / ١١٦٩ وقلبه حافل بالحق ونية الخيانة ، فاتصل بأموري وطلب اليه التعاون معه للقضاء على نور الدين ، بل قال انه وقومه لا يرون بأسا في الارتداد عن الاسلام ودخول النصرانية ، وطلب الى أموري أن يرفع عن بعض قرى الباطنية في الجبال اتاوة قررها عليهم الداويون .

وعاد وفد الباطنية من بيت المقدس راضيا عما فعل ، فلما كانوا بمقربة من طرابلس أرسل رئيس الداوية فارسا من فرسانه يسمى والتر دى مسنيل فاقبض عليهم وقتلهم جميعا ، حتى لا يتحقق ما اتفقوا عليه مع أموري من الاعفاء من الجزية ، وهكذا أفسد رئيس الداوية تدبير الشيخ سنان وأموري . وقد غضب هذا

غضباً بالغاً ، فقبض على دى مسنيل وألقى به فى السجن ، ثم بعث الى البابا يستأذنه فى حل جماعة الداوية جملة ، وأرسل يسترضى صاحبه سناناً ، وتأهب لتحقيق حلمه البعيد فى مهاجمة أرض المسلمين .

وكانت الظروف مواتية له ، فان نور الدين كان قد استقر رأيه على تسوية المسائل مع صلاح الدين ، وعقد العزم على المسير الى مصر فى الربيع .

والتأمل للعلاقات بين الرجلين فى هذه السنوات يلاحظ أنها تشبه ما كان بين عمر بن الخطاب وعمر بن العاص بعد فتح مصر : فقد طالت المكاتبات بينهما ، فعنف الخليفة فى كلامه الى ابن العاص واجتهد هذا فى أن يطلعه على الأسباب التى تحول بينه وبين الاسراع بارسال الأموال والأمداد ، ومات عمر والأخذ والرد جار بين الاثنين . وكذلك نور الدين : ساءه احجام صلاح الدين عن الخروج الى الشام فى قوته كلها للتعاون معه على القضاء على مملكة بيت المقدس ، بل بلغ الأمر أن أرسل نور الدين رجلاً من عنده ليحاسب صلاح الدين على ما بيده من أموال مصر ، وقد ساء ذلك صلاح الدين ، وقال : أالى هذا الحد وصلنا ؟ . ولكنه يادر فبسط كل شئ أمام رسول نور الدين . وقد كان صلاح الدين

أبعد ما يكون عن التفكير في المخاصمة أو الخروج ، اذ كان نور الدين في نفسه من المكانة والهيبة ما ظل ملازماً له حياته كلها ، وما ذكره مرة الا فاضت بالدمع عيناه .

ولكن آل صلاح الدين ورجاله خافوا على أنفسهم ، وألحوا عليه في أن يعينهم على البحث عن بلد يطمثون فيه . فبعث أخاه الأكبر شمس الدولة توران شاه في جيش الى النوبة ، فحارب أهلها واستقر فيها ، ولكنه رأى أنها لا تصلح لهم وطناً ومعاشاً . فعاد الى القاهرة ، وهناك زين له المغامر عمارة بن أبي الحسن اليمنى غزو اليمن ، فخرج من مصر نحو الحجاز ، فأقام الخطبة لنور الدين في مكة والمدينة ثم اتجه الى اليمن في سنة ١١٧٣/٥٦٩ واستولى على زبيد وأسر صاحبها واستولى على أمواله ، وقبض كذلك على امرأة محسنة تسمى السيدة الحرة كانت وثيقة الايمان بالدعوة الفاطمية ، تبذل في سبيلها الأموال الكثيرة ، واستخرج منها مالا جليلاً ، ثم استولى على عدن وأقام فيها وفي اليمن دولة أيوبية طال عمرها (أواخر سنة ١١٧٤/٥٦٩) .

والمهم عندنا أن اشتغال صلاح الدين بذلك كان فرصة طيبة انتفع بها أموري ، فبعث الى القسطنطينية يقترح الاشتراك في حملة على الاسكندرية تشغل صلاح الدين ليفرغ هو للهجوم على نور الدين .

وكان نور الدين قد أخذ في التأهب للسير الى مصر ، فبعث
 يطلب العساكر من الموصل والجزيرة الفراتية وديار بكر . ولكن
 الأجل كان له بالمرصاد ، وقد وافاه في وقت كان أبعد ما يكون فيه
 عن مظنة الموت ، وكان على رأس السنة التاسعة والخمسين من
 عمره يبدو أنشط ما يكون وأكثر انصرافا الى الجهاد مما كان عليه
 أيام شبابه ، وقد حنكته السنون وصهرته التجارب وعلت هيئته
 وامتد سلطانه حتى خُطب له في الموصل والجزيرة واربل وخلاط
 (شرقي آسية الصغرى) وبلاد سلاجقة آسية الصغرى وديار مصر
 والحرمين الشريفين واليمن وعدن ، وأصبح بذلك أوسع رجال
 زمانه سلطانا في الشرق والغرب ، وكان قاب قوسين أو أدنى من
 القضاء على ما بقى للصليبيين في الشام .

وقد أهل عليه عيد الفطر من عام ٥٦٩ / ٤ مايو سنة ١١٧٤ وهو
 في تمام العافية ، فاحتفل بختان ولده وولى عهده اسماعيل الملقب
 بالملك الصالح ، وعاد من صلاة العيد وقد شعر بضيق في صدره
 وألم في حلقه وحجرتة ، فاعتكف قليلا .

ولكنه كان يكره الاعتكاف ولا يطمئن له جنب على فراش ،
 فخرج في اليوم التالي (٢ شوال سنة ٥٦٩ / ٥ مايو سنة ١١٧٤)
 يتريض مع نفر من أصحابه ، فبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث

قال أحد الأمراء : « سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل أم لا » فقال نور الدين : « لا تقل هكذا ، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا .. » فكأنهم كانوا يتنبأ بما سيجري عليه . وعاد الى قلعة دمشق فأحص أن الأهل يشتد به فرقد على رغمه ، وتزايدت به العلة . فأشاروا عليه بالفصد ، فرفض اذ كان لا يؤمن بكلام المتطببين ، ولم يستطع أحد مراجعته .

وما زال التهاب لوزتيه يتزايد حتى علت به الحمى وأخذ يتصبب عرقا ، ثم اختنق نفسه شيئا فشيئا حتى أسلم الروح لباريها يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٩ / ١٥ مايو سنة ١١٧٤ . روى ابن الأثير أن طيبيا ماهرا ممن كانوا يخدمون نور الدين قال : استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا وهو في بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت منه الخوانيق وقارب الهلاك ، فلا يكاد يسمع صوته . وكان يخلو فيه للتعب ، فابتدأ به المرض ، فلم ينتقل عنه (أى عن البيت) ، فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له : كان ينبغي ألا تؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض ، الآن ينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضىء ، فله أثره على هذا المرض . وشرعنا في علاجه ، وأبشرنا بالفصد ، فقال ابن ستين : لا يفصد ،

وامتنع منه ، فعالجناه بغيره ، فلم ينجع فيه الدواء ومات رحمه الله
ورضى عنه .

*

وقد كان لموت نور الدين رجة عنيفة في عالم الاسلام كله ،
فوجم أهل الشام والجزيرة ومصر جميعا وجوم الذاهلين ، وخرج
النساء والرجال في دمشق يشيعون جثمان البطل العظيم والبلد
يضج بالنعيب ، فقد كانت أمة العرب والاسلام تعرف أى رزء
أصيبت به بموت ذلك العظيم الذى جمع رفق الأب الحانى ومهارة
الادارى القادر واقدام البطل الذى لا يهاب الموت وايمان الأتقياء
الصالحين .

أما الرؤساء والولاة ، وكلهم صنائعه وولائد كرمه وأفضاله ،
فقد تسارعوا الى انتهاب الغنيمة ، وبدلا من أن يجتمعوا يدا
واحدة ليدرسوا الموقف وينظروا في أمر هذه الدولة التى شادها
هذا الرجل ومن سبقوه بالجهد الطويل والتضحيات المتوالية ،
ويحفظوا حق الصبى اسماعيل بن نور الدين ، تهافتوا كالدئاب
ولا أرب لكل منهم الا الفوز بأكبر جانب من الغنيمة .

وكان كبير رجال نور الدين — وهو صلاح الدين — بمصر ،
وكلهم يعلمون كفايته وحسن منابه ، فكان ينبغى أن يرجعوا اليه ،

فيقرر كل واحد منهم على ما بيده وتظل الوحدة تحت لوائه وينهضوا جميعا للعمل العظيم ، ولكنهم تناسوا وتسارعوا يتخطفون الغنيمة قبل أن يتحرك ، فكافت النتيجة أن نهض اليهم وقضى عليهم أجمعين بعد حروب طويلة ما كان أغنانا عنها ، ولكن هكذا قدر فكان .. نهض شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، وكان نائبا لنور الدين في دمشق ، فنصب نفسه وصيا على الملك الصالح اسماعيل . كآئه يحسب أن نور الدين بنى هذا الملك ليستمتع به وحده ، وما كان الا رجلا قليل العقل والكفاية ، جمع طائفة من الأمراء والقواد فحلفوا له ، وضرب السكة وأقام الخطبة لنفسه ، وزعم أنه يتولى تربية الملك الصالح اسماعيل .

ونهض سيف الدين على بن الداية نائب حلب يطلب الأمر لنفسه ، وزعم أنه أكبر أمراء نور الدين وأولى بالوصاية على ابنه ، وبعث يطلب الغلام من دمشق .

أما سيف الدين غازي الثاني ابن أخى نور الدين ، وكان صاحب الموصل ، فلم ينظر الى وصاية ولم يحرص حتى على تشكيلات المطامع ، فمضى بجيوشه يغزو الشام ، وتراجع أمامه الوصيان الدعيان ، وكاد أمر الغلام اليتيم يضيع ، ولو كان في واحد من هذين الطامعين كفاية لأوقف سيف الدين ، ولكن الناس

تحركهم المطامع وتعميهم عن أنفسهم ، فلا ينظر واحد منهم الى ما يستحق أو الى ما يستطيع ، وانما تحركه الأناية وحدها ، فلا يرى غير نفسه في الميدان .

وكان صلاح الدين يرقب ذلك كله بعين القلق ، ولم يوجد في دمشق أو حلب من يرد أولئك الطامعين الى الرشاد الا رجال قلائل كالتقاضي كمال الدين الشهرزورى ، فقد نبههم الى ضرورة انتظار رأى صلاح الدين ، فضربوا برأيه عرض الحائط ، ومضى سيفه الدين غازي يغزو حتى ملك الموصل والجزيرة الفراتية ، وأسرع اليه صاحبه القديم فخر الدين عبد المسيح ، وقد نسي اكرام نور الدين اياه ، وجعل يحرضه على غزو الشام ، ولكنه تريت .

وكتب صلاح الدين الى أولئك المتناحرين يذكرهم بواجبهم نحو نور الدين وما ينبغي عليهم من الحفاظ على وحدة دولته وحرمة ولده ، فلم يستمع اليه أحد منهم واسترسلوا فيما كانوا فيه . وكان من الطبيعي أن ينتهز أمورى هذه الفرصة الذهبية التى أتاحتها له أولئك الغافلون ، فتقدم فى أوائل صيف سنة ١١٧٤/٥٦٩ وهاجم بانياس وحاصرها ، فاضطرب المتنازعون على تراث نور الدين ، وعلى رأسهم شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم صاحب السلطان على دمشق ، فسار نحو بانياس وأخذ

يهدد أمورى بأنه سيستجد سيف الدين غازى صاحب الموصل وصلاح الدين صاحب مصر . وكان أمورى يعلم أنه غير صادق فيما قال ، فان حرصه على جاهه فى دمشق يسكه عن الاستجد بآيهما ، وكان أمورى قد رغب فى العودة الى بلاده اذ ألم به المرض الذى مات منه ، فطلب مالا جسيما فى مقابل ارتداده ، وأصر على أن يطلق سراح جميع أسرى الصليبيين فى دمشق ، فأجابه شمس الدين بن المقدم الى ذلك ، ثم عقد معه هدنة طويلة ، ويضيف وليام الصورى أن شمس الدين اتفق معه على حرب صلاح الدين .

وهكذا ، وبعد موت نور الدين بأسابيع قليلة ، بدأت كفة خلفائه تشيل ، وبدأ منهم الفشل والهزيمة ، فريح صلاح الدين للأنباء ، وكتب يلوم أمراء الشام على سوء ما فعلوا . ثم قرر المسير الى الشام لتدارك الحال ، وبالفعل سار ودخل دمشق فى أوائل سنة ٥٧٠ / أغسطس ١١٧٤ بعد مناوشة يسيرة واستقر فى قلعتها ، وانسحب ابن المقدم ومعه الملك الصالح اسماعيل الى حلب . وبدأ صلاح الدين يرسم الخطة لاعادة الوحدة التى زلزلت للمسير بركب الاسلام المظفر فى الطريق الذى رسمه نور الدين ، وبدأت صفحة أخرى زاهرة من صفحات تاريخنا ، صفحة الناصر صلاح الدين ..

ولم تمهل الأيام ليوصل عدوانه ، فقد أصابته الهیضة

(الدوسنطاريا) وهو بعد عند بانياس ، فعاد الى بيت المقدس ، واستقدم نقرا من الأطباء السريانيين فطلب اليهم أن يفعلوا ما أشار به بعض أطباء نور الدين : القصد ! وطلب أن يعطى مسهلا ، فرفضوا ، اذ وجدوه أضعف من أن يحتمل . فأتى بطبيب فرنجي ، فقصده وأعطاه المسهل ، فاتعش قليلا ، ثم هبطت قواه دفعة واحدة بعد يومين ، وتوفي في أواخر عام ٥٦٩ / يوليو سنة ١١٧٤ بعد نور الدين بشهرين وأربعة أيام !

كان أموري آخر الكبار من ملوك بيت المقدس الصليبيين ، فقد ترك من بعده صبيا صغيرا سموه بولدوين الرابع ، وتولى الأمر من دونه ميل دي بلانسي صاحب شرق الأردن دون أن يعين وصيا . وطالب بالوصاية رايموند صاحب طرابلس ، ونظر الى العرش اذ كان ابنا لهو ديرنا عمه أموري ، وكان قد تزوج أميرة موسرة تملك ناحية الجليل هي استشيقا دي بور وأيده هونفروا (ابن الهنري) ونفر من كبار النبلاء ، فأقاموه وصيا ، ولم يلبث ميل دي بلانسي أن اغتيل بليل في شوارع عكا .

وكان رايموند قد طالت به السنون في أسر نور الدين ، ولم يطلقه الا قبل موته بقليل ، وقد تعلم العربية في محبسه ، وأكسبته تجاربه خبرة طويلة ، ولكن رجال الدولة انقسموا معه الى

قسمين : قسم يضم فرسان الصليبيين المحليين يؤيدهم الاستاريون ،
وكانوا يميلون الى المهادنة ، وقسم معظمه من القادمين الجدد ،
يؤيدهم الداوية .

وهؤلاء هم الخصوم الذين سيلقاهم صلاح الدين فى الميدان .

صورة مجاهد

تدارك ملّة العربي نصراً إلى أن عده منه معدّ
ثقى يده عن الدنيا عفافاً ومال بها عن الأموال زهد
« القيسرائى »

أعجلنا الإيجاز فى الفصول الماضية عن تفصيل الكلام عن
شخص نور الدين ودراسة خلاله وخصاله ، والوقوف عند آرائه
فى السياسة واتجاهاته فى الإصلاح الاجتماعى ، ونحب الآن أن
نمر بذلك كله سراعاً فيما يلى من الصفحات . ولن نستطيع أن نفى
كلّا من نواحيه حقها من العناية والتفصيل ، لأن الشخصية النورية
متعددة النواحي بعيدة المطارح ، كتب عنها المعاصرون له ومن أتى
بعدهم فأطالوا ، وروى كتب التراجم من أخباره تفاريق لو جمعت
وحدها لصارت كتاباً ، وليس أماننا والحالة هذه الا أن نكتفى
بدراسة المعالم الواضحة والاتجاهات الرئيسية ، وأن نفتتح الباب
لمن يطلب المزيد .

أظهر ما في خصائص نور الدين هو إيمانه الاسلامي العميق ،
فقد تمثل الرجل العقيدة الاسلامية تمثلا يدعو الى العجب
والاعجاب ، وأدرك من طبيعة الدين الحنيف وخصائصه ومزاياه
ما لم يدركه الفقهاء والأصوليون ، ومرد ذلك الى أن فطرة الرجل
كانت سليمة صافية ، فاستقرت فيها قواعد دين الفطرة على نحو
لم يتيسر للكثيرين غيره . وقد كان عصره خافلا بالعلماء والفقهاء
والقضاة ذوي العلم الغزير ، ولكنهم كانوا جميعا يدهشون مما
يبدية من الفهم لمسائل طال اختلافهم فيها ومناقشتهم حولها . ولم
يكن ذلك ليصدر عنه عن درس طويل أو اسراف في بحث وتحصيل ،
وانما هي طبيعة سليمة واعية ، وهو احساس صادق وذكاء لماح
ونية حسنة ، وهذه كلها هي التي أعانتته على الوصول الى هذه
المرتبة ومكنت له من أن يحل من مشاكل العصر ما عجز عنه قبله
فحول وأساطين .

وقد سبق أن أشرنا الى أن حماية الدين وتوحيد البلاد
الاسلامية هما المحوران اللذان دار عليهما تاريخ السلاجقة كله
وما تفرع عنهم من الدول ، وقد ظهر ذلك بصورة واضحة عند
إبطال البعث الاسلامي منذ أيام شرف الدولة مودود ، ولكنه أخذ
صورة محددة عند عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود .

وقد ورث نور الدين عن أبيه النصف الأصغر من ممتلكاته :
أخذ إمارة حلب وتوابعها ، وكانت عندما تولى أمرها نور الدين
في ربيع الثاني سنة ٥٤١ / سبتمبر سنة ١١٤٦ أصغر الوحدات
السياسية في الشرقي الأوسط والأدنى جميعا ، بل هي لا تقاس من
حيث امتداد الرقعة وسعة الموارد بإمارة دمشق أو مملكة بيت
المقدس . حتى إمارة أنطاكية كانت أقوى منها ، اذ كانت تسند
ظهرها الى الدولة البيزنطية وتعزز بجاهها وتعتمد على عونها في
كل حين . ولكن ذلك لم يقعد بنور الدين عن أن يتصدى وحده
لمواجهة المشكلة الصليبية كاملة ، والتمهيد لمنازلة قوى الصليبيين
بتوحيد الجبهة الاسلامية في الشام أولا ثم خارجه ثانيا . وقد نهض
للعملين معا في أول يوم تولى فيه أمور حلب ، مما يدل على أن
الفكرة كانت تملأ نفسه من قبل أن يصل الى الامارة .

ومرد ذلك الى أن الرجل كان مؤمنا بالاسلام وجلاله ايمانا
ممكن له من أن يحقق ما عجز عنه غيره ممن كانت بلادهم وثرواتهم
تزيد أضعافا على ما كان له ، واذا كان لعظمة كل عظيم سر فان
سر نور الدين كله في ايمانه ، فقد امتلأت نفسه بالاسلام
وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيها الا عند الأوائل من
أعلام صدر الاسلام . وهذا الايمان هو الذي حوله من أمير الى

مجاهد ، ومن رجل من رجال الحكم والسياسة الى زاهد ، وهو الذى أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية أيضا ، والتغلب عليها رغم قلة الموارد .

ومهما أطلنا فى دراسة نور الدين فاننا ننتهى الى حقيقة رئيسية ، هى أن الاسلام — بطبيعته السمحة البسيطة — صادف عند نور الدين نفسا سمحة مثله ، فكان ذلك الاتحاد الوثيق بين الدين والدنيا عند نور الدين ، وكانت تلك القوة الدافعة التى تخيل للانسان أنها تصدر عن بلد واسع عريض ذى ثروات وموارد ، وما هى فى الواقع بصادرة الا عن عزم وايمان .

وقد كان من المتوقع أن يكون ايمان نور الدين ايمان تعصب وتشدد ، كما نرى عند من تغلب النوازع الدينية على مزاجهم من منشئى الدول الاسلامية التى قامت فى ظروف تشبه ظروفه نور الدين . كان من المنتظر أن يكون نور الدين على مثال يوسف ابن تاشفين أو محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على ومن اليهم ، ولكن ايمان نور الدين اتخذ سيلا سمحا بسيطا لا تعصب فيه ولا عنف ، فقد كانت المذاهب السنية جميعا فى نظره سواء ، وكان أصحابه من الفقهاء والقضاة يمثلون كل مذهب ، حتى أصحاب الاتجاهات الفلسفية التى لا تتعارض مع أصول الاسلام كان يودهم ويكرمهم ويعهد اليهم فى المناصب .

.. ووى صقر بن يحيى بن صقر المعدل أن فقهاء حلب اختلفوا مرة فى اختيار شيخ لمدرسة ، فمال نفر الى اختيار شيخ محافظ هو شرف الدين بن أبى عصرون ، وكان بالموصل ، ومال نفر الى شيخ من أهل النظر والخلاف وهو قطب الدين النيسابورى ؛ وطال النزاع بين الفريقين ، وبلغ نور الدين ، فكتب الى نائبه يحلب مجد الدين بن الداية بأن يستدعى الفريقين ويقول لهم : « نحن ما أردنا بيناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة واطهار الدين ، وهذا الذى جرى بينكم لا يحسن ولا يليق » ، ثم أبلغهم أن رأى نور الدين قد استقر على أن يتولى شرف الدين بن أبى عصرون المدرسة المنسوبة اليه ويتولى قطب الدين النيسابورى « مدرسة النقرى » .

ولم يكن نور الدين يحارب الصليبيين على أنهم نصارى ، بل على أنهم أجنب عن بلاد العرب والمسلمين اعتدوا على الوطن العربى ومقدساته ، ومن هنا فانه لم يمس النصارى من أهل البلاد بسوء ، بل كانوا عنده مواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ، فلم يهدم فى حياته كنيسة ولا آذى قسا أو راهبا ، وقد كان الصليبيون اذا دخلوا بلدا قتلوا أهله المسلمين جميعا ، ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له فى ذلك عذر ، ولكنه كان

انسانا عظيما لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساءوا حتى الى نصارى البلاد ، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها ، بل ان الصليبيين كانوا اذا دخلوا بلدا ضيقوا على النصارى الأرثوذكسين من أهله ، فحرموا على كنائسهم ضرب النواقيس ، وآذوا القسس وخطوا منزلتهم ، فاذا عاد البلد الى نور الدين تنفس نصاراه الصعداء وأمنوا الى عدله وانصافه .

ولقد كسب له ايمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين ، فكانوا — على عداوتهم له — يوقرونه ويعترفون له بالامتياز عليهم ، فكان الصليبيون في بيت المقدس يقولون : « ابن التسميم (أى نور الدين) له مع الله سر .. فانه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وانما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فانه يصلى بالليل ويرفع يده الى الله ويدعو ، والله (سبحانه وتعالى) يستجيب دعاءه ويعطيه سؤله ، وما يرد يده خائبة ، فيظهر علينا » . حتى ولىام الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس ، وكتابه فياض بالحقد على الاسلام وأهله ، لم يستطع الا أن يعترف بفضل نور الدين وعدله وصدق ايمانه .

وقد ذهب نور الدين مع الايمان الى مدى لا يصل اليه الزهاد المنقطعون للعبادة ، فكان حريصا على الصلوات في أوقاتها « بتمام

شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها » كما يقول المؤرخون ، وكانت له الى ذلك أوراد وتساييح بالليل والنهار ، حتى كان لا ينام الا منتصف الليل ، ثم ينهض فيتوضأ ويقبل على الصلاة والدعاء والأوراد حتى يقبل الصباح فيصليه ، ثم يأخذ في شئون دولته . فاذا أهل شهر رمضان استقدم رجلا صالحا كان يتبرك به هو الشيخ عمر الملا شيخ جامع الموصل ، فيقوم هذا الشيخ باعداد افطار نور الدين — وهو لا يخرج عن الثريد والرقاق — ويفطر معه كل يوم ، بل كان اذا نزل الموصل لم يأكل الا من طعام هذا الشيخ

وكان يكثر من الاجتماع بالزهاد والمتصوفة ويبادلهم الحديث والرأى ، حتى كاد هو نفسه أن يصبح زاهدا متصوفا ، فحكى أنه كان يلبس مسوحا ويقوم يصلى قطعة من الليل ، ويرفع يديه الى السماء ويبكى ويتضرع ويقول : « ارحم العشار المسكاس » : وأخباره في الزهد كثيرة ، فلم يكن له بيت يسكنه ، وانما كان مقامه في غرفة في قلعة البلد الذى يحل فيه ، ولم يتزوج — فيما علمت — الا امرأة واحدة ، هى بنت معين الدين أنر ، وقد تزوجها بعده صلاح الدين ، ولم تكن له جارية ولا سرية . ولم يكن له راتب يتقاضاه ، وانما كان يأكل ويلبس وينفق على نفسه من

ملك له كان قد اشتراه من سهمه من الغنينة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين : أحضر نفرا من الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ، ولم يتعدّه الى غيره قط .

وتتوارد في تواريخ عصره حكاية تصور وجهة نظره في هذه الناحية أصدق تصوير : حكى رجل من المشتغلين بخدمته أن زوجه لم يكفها ما كان قرره لها من النفقة ، قال : « فأرسلتنى اليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ! ان كانت تظن أن الذى بيدي من الأموال هو لى فبئس الظن ، انما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لعق — ان كان — من عدو الاسلام ، وأنا خازنهم عليها ، فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا ، وقد وهبتها اياها ، فلتأخذها . قال : وكان يحصل منها قدر قليل »

✽

ومن هذا الايمان الدينى والشعور بالمسئولية أمام الله والناس نبت سياسته الانشائية التى جاوزت كل حد مألوف ، ذلك أنه كان يعتقد أن المدارس والمساجد هى « قاعدة الدين » فمضى ينشئها فى كل بلد دخل تحت سلطانه ، حتى بلغت مدارسه ومساجده

المئات ؛ وكان اذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة فى بنائها واجتهد فى اختيار شيوخها وأوقف عليها الأوقاف الواسعة . ومن الواضح أن نور الدين سار فى هذا الأمر فى الاتجاه الذى سار فيه ملكشاه عندما شجع نظام الملك على انشاء المدرسة النظامية ، فقد أصبح انشاء المدارس تقليدا مرعيا عند السلاجقة ، ولكن نور الدين لم يكن ينشئ المدارس على اعتبار أن ذلك عمل من أعمال الثواب فحسب ، أو طلبا لحسن الأحدوثة كما كان الحال قبلا ، بل على أنه ضرورة للناس وواجب على أولى الأمر ، لأن انشاءها « أظهار لشعائر الاسلام وتأسيس لقاعدة الدين » والدين هو مسئولية الحاكم الكبرى فى نظر نور الدين .

وبينما كانت العناية الحقيقية فى المدارس التى أنشأها نظام الملك موجهة نحو المذهب الشافعى ، نجد مدارس نور الدين تهتم أولا بأصول الدين ، وخاصة القرآن والحديث . وكان نور الدين يحفظ القرآن ويرتله ولا يزال يتمثل بآيه الكريم فى المناسبات تمثلا يشهد بفهم صادق ، وكان شغفه بالحديث النبوى عظيما ، سمعه من نفر من جلة المجتهدين وأجازوا له التحديث ، وأسمعه طلبا للأجر ، فرواه عنه نفر من العلماء مثل أبى الفضل أحمد وأبى البركات الحسن ، وأبى منصور عبد الرحمن وأبى عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعى .

وقد أصبح التوسع فى انشاء المدارس على الأسلوب الذى سار عليه نور الدين تقليداً اتبعه من أتى بعده ، وأولهم صلاح الدين يوسف . بل انصرف الأمراء ورجال الدولة الى انشائها من أيام نور الدين ، فكان الكثيرون منهم حريصين على انشاء مدارس تنسب اليهم يوقفون عليها الأوقاف الواسعة . فأما النتيجة الطبيعية لهذه الحركة التعليمية ، وهى انتشار العلم ، فلا تحتاج الى بيان ، ولكننا نشير هنا الى النتائج الاجتماعية التى نشأت عن ذلك ، فان المدارس هى المهاد التى تتربى فيها الطبقة الوسطى وتنمو ، وهى الطريق الذى يلجأ اليه الفقراء لكى يفيدوا من مواهبهم ويحسنوا مستواهم وينتقلوا الى الطبقة الوسطى ، وربما أصبح الأذكياء منهم من المياسير أو الأغنياء أو أصحاب الوظائف والجاه ، وبالفعل كانت لهذه المدارس وظيفة اجتماعية كبرى وأثر مباشر فى تكوين مجتمع المدن فى الشام أولاً ثم فى مصر على أيام الأيوبيين .

وقد كان سبيل الناس الى العلم قبل ذلك هو التفرغ له وملازمة الشيوخ ، فكان لا يستطيع ذلك الا من كانت له مواهب حقيقية ظاهرة يشعر معها أن هذه الدراسة ستجعل منه شيئاً ، أو من كانت لديه موارد مالية وافية تغنيه عن طلب العيش وتمكنه من التفرغ للدرس ، فكان طلب العلم — على هذا — لوفاً من

الأرستقراطية الذهنية أو المالية . ولهذا فقد كان الناس اما أن يكونوا علماء أو جهلاء ، أما من نسميهم نحن بالمتعلمين فلم يكن لهم وجود تقريبا ، فلما انتشرت المدارس كثروا . حتى أصبحوا يكونون جزءا هاما من الطبقة الوسطى ، بل الجزء الأقوى منها ، وكان لهذا كله أثره في رفع المستوى الاجتماعي العام .

وربما كان هذا بعض ما قصد اليه نور الدين ، فقد كان شديد الاهتمام بالأوساط والمياسير ، يعتقد أنهم عماد الدولة والمجتمع ؛ وقد روى المؤرخ الدمشقي أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي أن نور الدين عندما دخل دمشق في المحرم سنة ٥٤٩هـ / مارس سنة ١١٤٥ « أحضر غد ذلك اليوم (أى غد اليوم الذى دخل فيه) أمائل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار ، وخطبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم ، وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم ، فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم اليه . ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار ، وأنشئ بذلك المنشور ، وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة » ، أى أن نور الدين لم يقدم شيئا على الاجتماع بأهل البلد « من القضاة والفقهاء والتجار » أى ممثلى الأوساط والمياسير ، وتحدث اليهم بما بعث الطمأنينة في نفوسهم ، ثم ألقى

الضرائب التي كانت مقررة على تجار الفاكهة والخضر ، وألغى كذلك احتكار توزيع الماء للرى والشرب ، وهذه كلها اجراءات تدل على اهتمام واع بشئون التجار والزراع وأوساط الناس . ونظر لما فيه خيرهم .

وقد كانت دمشق — عندما دخلها نور الدين — تروّح تحت وطأة جماعة الباطنية الذين كانوا يعادون التجار والمياسير طمعا في أموالهم حتى أفقروهم ، وأكملوا ما نشطت فيه حكومة طغتكين ومعين الدين أنر ومجير الدين آبق من الالاحاح عليهم بالضرائب والمغارم والمصادرات . فجاء تصرف نور الدين انقاذا لهم ، فانتعشت أحوالهم ، وعاد تجار دمشق وصناعها الى مزاولة نشاطهم الذي اشتبهوا به على مر العصور ، وفي ظل الأمان الذي نشره نور الدين ثم صلاح الدين ثم الملك الكامل أخوه أزهرت مدائن الشام والجزيرة الفراتية ومصر جميعا ، وتيسرت أحوال الناس وثبتت أسس المجتمع في هذه البلاد بعد طول تقلقل واضطراب . وقد اجتهد نور الدين في كل ما يمكن أن يشعر الناس بالأمان ، ويخفف عنهم متاعب الحياة . وينبغي ألا ننسى أننا نؤرخ لعصر كان الناس لا يطالبون الحاكم فيه الا بأن يعتدل فيما يقرر عليهم من ضرائب ، ثم يقوم بحمايتهم من الأعداء الخارجيين ، فتفكير

نور الدين في تقديم خدمات اجتماعية للناس يعد سبقا للعصر
وبعدا في النظر وعمقا في الفهم ، وهذه كلها تضع الرجل في الصف
الأول من عظماء الاسلام .

وقد رأينا اجتهاده في انشاء المدارس والمساجد ، ونضيف هنا
البيمارستانات ، وهي المستشفيات . ولقد سبقه الناس الى انشائها
في بلاد الاسلام ، ولكن نور الدين توسع فيها حتى لم يخل بلد
من بلاده من مستشفى ، ثم أدخل على مستشفياته نظاما يدل على
أنه لم يكن في هذه الناحية مجرد سائر على الدرب ، بل مصلحا
اجتماعيا له هدف واضح من وراء ما يفعله ، فقد قرر أن المستشفى
العام للفقراء ومن لا تمكنهم أسبابهم من الاستعانة بالطباء أو
الحصول على الدواء ، واستثنى من ذلك الدواء النادر أو الذي
يحتاج تحضيره الى عناية وضمير ، فقد أباح للأغنياء الحصول عليه
من المستشفى ، وتلك لمحة انسانية لا تصدر الا عن قلب كبير .

ويتصل بهذه الناحية كذلك عنايته بحفظ الطرق ، فقد بنى
الخانات على مراحلها ، لينزل المسافرين بها للراحة أو للمبيت ،
وأقام فيها من يحرسها ويحرس أموال الناس ، فأمنوا وحفظت
أموالهم ولجأوا اليها من المطر والبرد أو الحر الشديد ، فإذا كان
الطريق مخوفا أو بمقربة من أرض الأعداء أقام على مراحل الأبراج

العالية المنبعة ، وجعل فيها من يحفظها ومغهم الحمام الهواذى أى الحمام الزاجل ، فاذا تهدد البرج خطر أو اقترب العدو من الطريق أطلقت الطيور بالخبر فأخذ الناس حذرهم وأسرع أولو الأمر بإرسال النجدة . وأقام على الحدود الربط للمجاهدين والمتطوعين والصوفية ، وتلك كلها منشآت ذات قيمة عسكرية ولكن وظيفتها الاجتماعية أظهر من أن نطيل الكلام فيها ، فان الأمان أساس استقرار المجتمع ، وهو أقصى ما يطلبه الناس .

*

ونتقل الى الناحية العسكرية عند نور الدين ، فنقرر أولا أنه كان جنديا حسن التكوين والتدريب ، طالت به الأيام منذ شبابه الباكر فى الميادين ، وقد جمعت له خبرة جعلته خير مثال للعسكرى الثابت الخير ، وقد أوتى فى القيادة ورسم الخطط ونظام المعارك وأساليب الحصار مواهب جعلته أعظم قواد زمانه ، ومكنت له — وهو أمير حلب فقط — من أن يجعل جيشه الصغير أعظم القوى العسكرية فى الشرقين الأدنى والأوسط .

فأما تكوينه العسكرى ، فقد كان يجيد ركوب الخيل ويحسن الحرب على صهواتها كأحسن ما يستطيعه فرسان ذلك العصر (وهو عصر الفروسية) . كان اذا ركب جواده خيل الى الناس

أنه « خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل » ، وكان يحسن الرمي بالقوس حتى كان يحضر المواقع ومعه قوسان وجعبتان للسهم ، وكانت له مهارة تستوقف النظر في الكر في الميدان والسيف بيده ، إذ أنه كان يخوض المعركة مع جنوده ويتعرض للخطر طلبا للشهادة . وكان بطبعه رياضيا شديد الولع بلعبة الكرة التي تعرف اليوم بالبولو ، وكانت تلك هى تسلية الوحيدة ، وكان يلعبها مع أصحابه ، ومن بينهم صلاح الدين ، وكانت له فيها مهارة قل أن جاره فيها أحد ، وكان الناس يلعبونها بكرة من خشب يضربونها وهم على الخيل بمضرب معقوف الآخر يسمى الجوكان . قال ابن الأثير فى تاريخ الأتابكة : « وكان من أحسن الناس لعبا بالكرة وأقدرهم عليها ، لم يثر جوكانه يعلو رأسه ، وكان ربما ضرب الكرة ويثجرى الفرس ويتناولها بيده من الهواء ، ويرميها الى آخر الميدان . وكانت يده لا ترى والجوكان فيها ، بل يكون فى كم قبائه استهانة باللعب » .

ومن الطريف أنه رأى فى ذلك أيضا شيئا معينا على الجهاد ، فقد لامه رجل من الزهاد على اقباله على لعب الكرة ، فكتب اليه نور الدين يقول : « والله ما يحملنى على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، انما نحن فى ثغر ، العدو قريب منا ، وبينما نحن جلوس

اذ يقع صوت فتركب فى الطلب ، ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهارا شتاء وصيفا ، اذ لا بد من الراحة للجند . ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جِماما لاقدرة لها على ادمان السير فى الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف فى الكر والفر فى المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب ، فهذا والله ما بعنى على اللعب بالكرة » .

وربما كان ذلك صحيحا ، ولكن المؤكد أنه كان مشغوقا بهذه الرياضة لذاتها ، دائم الممارسة لها ، وقد أعانه ذلك على الجهاد دون أن يقصد الى ذلك ، فقد جدد قواه وبعث فى كيانه هذا النشاط الذى اتصل حتى أواخر أيامه . وقد كان له أثر فى خلقه ، فقد خاض معاركه الكثيرة بخلق الرياضى الذى يقبل الهزيمة بنفس الابتسامة التى يتلقى بها الظفر ، وعامل أعداءه بتسامح ونبل جعل ألد هم خصومة له يستأمنون له ويطمنون الى عدله اذا غلبهم فى الميدان ، وقد قبس عنه هذا الخلق الرفيع صلاح الدين واشتهر به وطار صيته بكرم أفعاله مع أعدائه .

ولقد وقع قواد الضلييين فى يد نور الدين واحدا بعد واحد ، فلم يجدوا فى أسره غير الرفق والاكرام ، مما حير أذهانهم وعقد

ألسنة مؤرخيهم عند الكلام عنه ، فقد كان خلق الفروسية في الغرب
الأوروبي خلال ذلك العصر مجرد كلام يقسمون على العمل به
قبل أن يرفعوا الى مراتب الفرسان ، أما خلقهم الحقيقي ، فلم
يكن يختلف في شيء عن خلق المتلصصة والقتلة السفاحين ، وقد
رأينا خسيس فعلهم فيما دخلوه من بلادنا ، وأشرنا الى أن ذلك
كان دأبهم في حروبهم بين بعضهم وبعض ، دون نظر الى دين أو
عقيدة أو حرمة ، ومر بنا في هذه الصفحات من أفاعيلهم في بلاد
الدولة البيزنطية — وهى نصرانية — ما يغنى عن كل مقال .

ولقد أنكر مؤرخو الغرب دعوانا عندما قلنا ان الفروسية
عربية ، ومضوا يثبتون في محاوراتهم معنا أنهم ركبوا الخيل قبل
أن يعرفونا ، وأتقنوا المبارزة وصناعة دروع الحديد قبل أن يلقونا ،
ولم يكن هذا ما قصدنا اليه ، فان الفروسية ليست ركوب خيل
ولا طعن بالسيف ولا درعا من حديد يكسو الفارس ، وانما هى
خلق ، خلق شهامة ومروءة وفضيلة انسانية ، وفي هذا المجال نحن
سابقون عليهم ولا ريب ، وقد اعترفوا لنور الدين وصلاح الدين
بأنهما كانا رمزا على خلق الفروسية في أجمل صورته ، وهذا
حسبنا ، لأن تاريخهم ليس فيه — قبل أن يلتقوا معنا في الميادين —
من يسمو الى شيء يشبه ما كان عند أيهما ، فكيف وهذا الخلق

فينا من أيام الجاهليين ؟ وأمامك لامية العرب للشنفرى تجد فيها وصف الفارس على صورة لم تسم اليها حتى أخيلة قصاص الغرب فيما ابتكروا من قصص فروسية تألقوا فى صياغته ما شاء لهم التصور والادعاء ..

وكان نور الدين يتبع فى خططه العسكرية أساليب العرب التقليدية فى ترتيب الجيش ميمنة وميسرة وقلبا ، ووضع الكمائن فى مواضع يختارها لتكر على جانبى جيش العدو وقت الحاجة ، وأضاف الى ذلك ما استحسنته من أساليب الأتراك مثل وضع الجناحين متقدمين عن القلب قليلا ، بحيث تبدو هيئة الجيش كالهلال ، فاذا دفع العدو على القلب تراجع قليلا ، ثم يسرع الجناحان بالانضمام على قلب جيش العدو فيحصر حصرا شديدا ، وقد ظل هذا هو « التكتيك » التقليدى للأتراك حتى أيام سليم الأول وسليمان القانونى . وكان الجناحان دائما من خيرة الفرسان رماة أو مقاتلين بالسيف ، وأضاف نور الدين الى الجيش فرقا من مهرة رماة الفرسان ، يقفون خلف الجناحين وخلف الصفوف الأولى من القلب ، فيمطرون العدو بالسهم غطاء للفرسان أو المشاة المتقدمين .

وكان فرسان الجناحين والرماة يختارون عادة من التركمان ،

وكانت لهم مهارة لا تدانى فى ركوب الخيل والكر بها فى سرعة ومرونة حيرت الصليبيين ولم يصلوا الى اتقانها الى آخر أيام وجودهم بالشام ، لأن فرسانهم كانوا لا يدخلون المعركة الا مدرعين بالحديد من الرأس الى القدم ، وكانت لهم دروع يعطون بها رأس الفرس وصدره وكتفيه ، فكانوا ثقالا فى المعارك ، يصعب ضربهم فى مقتل ولكن يسهل ازعاج الخيل من تحتهم فتشعب على خوافيها فيختل توازن الفارس ويقع على الأرض فتسهل اصابته فى مقاتله . وكان يبلغ من ثقل درع الفارس الصليبي أن يعجز عن امتطاء صهوة جواده بنفسه ، فيرفع بالحبال ويوضع على ظهر الحصان وضعا ، أما فرسان المسلمين فكانوا يكتفون بشيء يشبه الصدر من الزرد — أى حلق الحديد — يسمى الكزاغند يغطى الصدر والرقبة ، ويضعون على رءوسهم غطاء من الحديد الرفيع يسمى البيضة ، قد يمتد منها الى الكتفين غطاء من الزرد يغطى الأذنين وجانبى الوجه ، ويسمى المغفر ، فكانوا لهذا خفافا يجرون بالخيل فى سرعة ويعطفونها فى مهارة .

وجرت العادة كذلك بأن يفرد نور الدين جماعات من تلك الخيالة ، لكى تكرر على جانبى الجيش الصليبي ثم تفر وتعود مرة أخرى وهكذا حتى ينتشر نظامه ، وكانت هذه القطع الطيارة من

الخيالة تتكون غالبا من متطوعة التركمان ، وكانوا آلافا كثيرة يخوضون المعارك طلبا للثواب والغنيمة ، وكان لهم دور حاسم في تاريخ الحروب الصليبية ، وقد رأينا كيف أهلكوا جيوش الحملة الصليبية الثانية وكسروا أنيابها قبل أن تنزل الشام .

وكان الفرسان النظاميون اذا استحرت الموقعة ودخلت دورها الحاسم ترجلوا لتكون أقدامهم أثبت ، ودفعوا بالحرب الطويلة في صدور فرسان الصليبيين ، فاما أصابوا فرجة في الدروع كفتحات العيون أو ما بين غطاء الوجه والصدر ، أو ألغوا بالفارس على الأرض فأجهز عليه المشاة بالسيوف أو أسروه اسكاكا باليد . ولم تكن أعداد الجيوش الرسمية بالكبيرة ، فقلما زاد عددها في المواقع الحاسمة على عشرة آلاف ، نصفهم — أو أقل قليلا — من الفرسان . ولكن أعداد المتطوعين والمقاتلين حسبة من أهل المدن والأرياف كانت كثيرة جدا ، وهم يسمون في النصوص « بالأحداث » ، وكانت فيهم قوة معنوية هائلة تعوض نقص التدريب ، فكانوا يشدون على العدو في حماس وقوة طلبا لاحدى الحسينين : الظفر أو الشهادة ، وكانت هذه الجماعات تتقدم الجيش يقودها عدد قليل من طلائع الفرسان يسمون اليَزَك وتقف بقيتها وراء الفرسان ، في القلب . فاذا زعزع الفرسان نظام العدو

وأحدثوا فيه ثغرات ، انصبوا منها سيلا جارفا يكتسح مشاة العدو . أو يعقر خيل الفرسان فتقع ويستقط راكبوها الى الأرض . وكان أكثر سلاح هؤلاء الأحداث السيوف أو الخناجر أو السكاكين وربما الهراوات ، فاذا لم يجدوا شيئا من ذلك ضربوا بالحجارة ، وفي كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ صور من ذلك كله .

وقد اتبع نور الدين مع جنده سياسة أخذ بعضها عن أبيه عماد الدين زنكى وابتكر بعضها الآخر ، وقد كانت سياسة الجند من معضلات التاريخ الاسلامى كله . ذلك أن الخلفاء ورجال الدول استعانوا من أوائل الدولة العباسية بالجند المرتزق ما بين خراسانية وفرنس وترك وديلم وما الى ذلك ، والمرتزون يحاربون للمال فيحسب ، فكانت مطالبهم من المال في زيادة متصلة ، ثم انهم كانوا لا يفرقون بين أعداء الدولة وأهلها ، وما من مدينة نزلوها الا نهبوها ، سواء أكانت في دار السلام أو في دار الحرب ، حتى كبار السلاطين من أمثال طغرل بك وألب أرسلان كانوا يعجزون عن رد عادية جنودهم عن الأهلين .

أما عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين بعده فقد اعتمدوا على عدد قليل من الجند المخلص قرروا لهم المرتبات الوافية ، وكان نور الدين يخرج لهم من عنده عطاء خاصا فوق

المرتبات في الحملات الهامة . وكانت العادة قبل نور الدين أن يُعتبر قائد كل جماعة من الفرسان أو الجند مسئولاً عنهم ، فيعطى أرزاقهم وسلاحهم أو النفقات اللازمة للسلاح ، فكان القائد يحوز لنفسه أكبر جانب من ذلك المال ويهمل عدة الفرسان أو المحاربين . أما نور الدين فقد حرص على أن يتثبت بنفسه من سلاح المقاتلين ، قال ابن الأثير : « وكان أيضاً يشبث أسماء أجناد كل أمير في ديوانه وسلاحهم ، خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العُدد ، ويقول — أى نور الدين — : نحن كل وقت في النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد دخل الوهن على الاسلام » .

وكانت العادة أن يعطى كبار القواد والظاهرين من صغارهم وفرسانهم اقتطاعات الى جانب المرتب الجارى . والاقتطاع هنا لا يراد به الناحية بما فيها من أرض وبيوت وناس ، بل صافي خراجها فقط ، فلا علاقة للمقطع بالأرض أو الناس . فإذا قيل ان نور الدين مثلاً أقطع فلاناً مدينة حمص فليس معناه أنه جعله صاحبها ، بل المراد أنه خوله الحق في أن يأخذ لنفسه صافي إيرادها بعد نفقات المنافع العامة ومرتبات الموظفين ، عسكريين ومدنيين . وقد يقيم المقطع في اقتطاعه أو لا يقيم ، لأن إدارته كانت بيد رجال السلطان ،

وكذلك كان الدفاع عنه بيد الحامية التي يرصدها السلطان في البلد ، حتى قلعة البلد ، كانت بيد رجل من رجاله يسمى مستحفظ القلعة أى حافظها ، أى أن الاقتطاع — على هذا — كان نوعا من المكافأة المالية الى جانب الراتب . وكانت العادة أن يسقط الاقتطاع بوفاة صاحبه ، فثبته نور الدين لابن الأكبر أو الذى يليه اذا مات ، فاذا كان الابن صغيرا أقيم عليه وصى حتى يكبر ويتولى اقتطاعه . فأصبحت الاقتطاعات وكأنها موارد ثابتة ، واعتبرها القواد أملاكاً ، فكان الأجناد يقولون : « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عنها » ، وكان ذلك سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب ، لأن القائد كان يعرف أنه اذا ضاعت الجهة ضاع أيضا ايراده منها .

وقد بدأ بهذه السياسة عماد الدين زنكى ، وكان الجنود والقواد قبل ذلك يشترون بما يتحصل لهم من مال أملاكاً : أرضاً أو مباني ، فاذا صار للواحد منهم عقار اطمأن الى عيشه وترأخى فى القتال . فحمل عماد الدين رجاله على أن ينصرفوا عن اقتناء الأملاك وعوضهم عنها بالاقتطاعات ، فملك بذلك زمامهم وزاد حميتهم فى القتال ، ثم جاء نور الدين فزاد قواعد أبيه ثباتاً .

وقد طبق نور الدين هذه السياسة على المتطوعة من خيالة

التركمان فأقطع كبارهم الاقطاعات ، ولما كانت عادة المقطع أن يعتبر الجهة التي فيها اقطاعه وطنه ومسكنه ، فقد استقر كل قائد منهم بجماعته في ناحية وثبتوا بعد أن كانوا ظعنا متنقلين يعيشون في الخيام بصفة دائمة ، وقد بدأوا نتيجة لذلك يتحولون من بدو الى حضر ، وأصبحوا من جند الدولة المدون على نحو ما .

وكانت قبائل العرب الضاربة في نواحي الأردن وشمال الجزيرة العربية الى الحجاز لا تملك موردا ثابتا للعيش ، فكانت تغير على قوافل الحجاج وتنزل بها الأذى ، فأقطع نور الدين شيوخها الاقطاعات في نواحيها أو في الشام ، فانقطع الأذى واستقرت هذه الجماعات وأمن طريق الحجاج . فكانت نتيجة ذلك أن اتجه ذوو الهمة من أفراد القبائل الى الانضمام الى جيش الدولة والاسهام في الجهاد . وفي نفس الوقت حرص نور الدين على أن يضم الى الدولة الامارات العربية التي كانت شبه مستقلة في بعض نواحي الشام والجزيرة الفراتية ، وعوض رجالها عن ذلك بالاقطاعات النواسعة ذات الادرار الوفير ، فانضموا الى جيش الدولة وغنيت صفوفه بمقاتلتهم ، وكان لهم فيما بعد أثر محمود في المعركة الطويلة بين المسلمين والصليبيين .

وكان عماد الدفاع في ذلك العصر على القلاع والحصون ،

وقد اجتهد نور الدين في هذه الناحية اجتهدا يستوقف النظر ، فبنى الأسوار حول بلاد الشام جميعا من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ، وأقام على أركان الأسوار الأبراج العالية التي لا ترام ، وكذلك بنى قلاع المدن . وكانت العادة أن يحاط البلد بسور وتقوم داخله قلعة في موضع حصين ، وهذه القلعة هي مركز الحكم من ناحية ، ومستقر الادارة العسكرية من ناحية ثانية ، وملجأ أهل البلد اذا اقتحم الأعداء أسوارها من ناحية ثالثة . وكانت القلعة تسمى في بعض الأحيان بالقصبة ، ومن هنا جاء قولنا : « قصبة الديار المصرية » بمعنى عاصمتها . وقد أئق نور الدين في بناء هذه الأسوار والقلاع أموالا طائلة ، وحرص على أن يشرف بنفسه على سلامتها ، فكان اذا أتى بلدا دار بسوره وفحص أجزائه ورم الضعيف منها ، وفحص كذلك الأبراج وبناء القلعة ، فظلت على أيامه على حال من المنعة أفادت أعظم الفائدة في تلك المعمة الدائرة .

واهتم كذلك بالحصون التي تقام في المواضع الهامة ، فابتنى منها بضع مئات ، وكذلك أقام الأبراج للمراقبة على مسافات من الحصون ، وشك ذلك كله بالجند الكثير ، وكان يحرص على أن يكون في القلعة أو الحصن ذخيرة وافرة ومؤن مدخرة يعتمد عليها

المدافعون وأهل البلد أثناء الحصار ، وكان يوالى ذلك كله بالعناية والفحص بنفسه ، لا يعتمد في ذلك على أحد .

وعندما اتسعت دولته واحتاج الى الوقوف على الأخبار أولا بأول ، وضع نظاما محكما لنقل الأخبار بواسطة حمام الزاجل ، فجعل أعدادا منه في قلاع المدن وأبراج الحصون وأبراج الحراسة ومعها رجال موكلون بها ، فاذا بدا خطر أو وقع حادث أسرع الرجال بتطير الرسائل بواسطة الحمام ، فتصل نور الدين فيسرع بالاستعداد والخروج ويبعث برأيه وأوامره . وقد استعمل حمام الزاجل قبل ذلك لمثل هذا الغرض ، ولكن نور الدين جعله نظاما مقرر القواعد ، وكان له أحسن الأثر في سير الحروب بعد ذلك .

وكان نور الدين يعتمد على نفر من كبار القادة ، أحبوه وأخلصوا له فكان لهم أعظم الأثر فيما وفق اليه من انتصارات ، وأعلاهم مرتبة هم الأمراء ، أى أمراء الجيوش ، وكان الواحد منهم يسمى أولا بالسلار ، ومعناه الأمير ، يليهم المقدمون ، وربما زاد نور الدين في تكريمة بعضهم فسماه بالاسفهلار ، أى الأمير الكبير ، كما فعل مع صلاح الدين . وقد كان معظم أولئك الأمراء والمقدمين يعملون مع أبيه عماد الدين زنكى ، وكان خيرا بالرجال يعرف كيف يتخير أحاسنهم ، وكان زنكى — رغم شدته —

« قليل التلون والتنقل بطيء الملل والتغير ، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك الى أن قتل الا بذنب يوجب التغير . والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا بقوا له أخيرا ، من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له » ، وكذلك كان نور الدين .

وأعظم أمراء نور الدين جميعا أسد الدين شيركوه ، وهو صاحب فضل كبير في استقراره في حلب وانفراده بها أول الأمر ، ثم كان له الفضل بعد ذلك في ضم دمشق وفتح مصر ، و يليه مجد الدين بن الداية ، وكان له الأثر البعيد في رد الصليبيين عن دمشق ، فلما صارت دمشق لنور الدين أتابه عنه في حلب ، ثم سيف الدين سوار — أو أسوار — وكان جنديا قادرا قاد الحملات على أرمينية وأنطاكية ، واعتمد نور الدين كذلك على أخيه الأصغر نصره الدين الملقب بأمير أميران .

أما نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، فليس لدينا ما يدل على أنه كان من كبار قادة نور الدين ، وان كان المؤرخون قد نسبوا اليه بعد ذلك ما لم يعمل ، وذهبوا الى أنه كان أكبر رجال نور الدين ، وذلك اكراما لصلاح الدين ، والغالب أنه كان عنده من أصحاب الرأي لا أصحاب الرايات .

ولم يثبت معه من كبار قواده الى النهاية الا أسد الدين شيركوه ، اذ توفي بعضهم وأدرك التعب بعضهم الآخر ، فصار اعتماد نور الدين بعد ذلك على من يليهم ، وأكبر رجال هذه الطبقة الثانية صلاح الدين بن نجم الدين أيوب ، فقد توسم فيه النجابة ، وولاه شِخْنَكِيَّةَ دمشق ، أى جعله حاكمها الادارى ، ثم أصبحه عمه شيركوه فى حملاته على مصر .

والمتصفح لسيرة نور الدين يلاحظ أنه كان دائم التنقل بين بلاده ، لا يستقر فى بلد أياما حتى ينتقل الى آخر ، ولم تكن تلك الحركة الدائمة لمجرد مطالب الجهاد ، بل هى سياسة منه اتبعها طول حياته حتى يكون على اتصال دائم مباشر بالبلاد وجندها وموظفيها وأهلها . والى هذا التجوال الدائم يرجع الفضل فى استقرار أمور بلاده وضبط أمورها الادارية ، فلم يحدث قط أن خرج عليه قائد أو عامل ، لأنه لم يكن يترك لهم فرصة التدبير بله التفكير فى الوثوب ، وكيف وهو مقبل اليهم أو ذاهب عنهم أبدا ؟ وكان اذا دخل البلد جلس للناس يسمع الظلامات ، فكان رجاله يخشون الخطأ أو التراخى ويحرصون على أن يكونوا عند حسن ظنه .

وكانت تلك أيضا سياسته مع قواده : كان لا يدع لهم فرصة

الراحة أبدا ، فما يعود الواحد منهم من بعث حتى يرسله في آخر ،
ذلك أن خطته في تأمين بلاده كانت مبادأة الأعداء بالهجوم أبدا ،
والإسراع إلى الجهة المهددة بمجرد أن يأتيه الخبر . وكان جنوده
دائما على الأهبة ، فيخرج من ساعته بمن حضره ، ثم يتلاحق القواد
بجنودهم بعد ذلك . ولهذا السبب لم تتح لواحد من قواده فرصة
الاستمتاع بمال أو دار ، وانتهى الأمر بأن زهدوا في ذلك ،
وشملتهم روح الجهاد فمضوا معه في مشاهدته وحروبه بالليل
والنهار ، لا يفكر أحد منهم الا في أن يكون عند مرضاته ، وليس
أدل على ذلك من أن أسد الدين شيركوه أكبر قواده لم يخلف بعد
موته الا دنانير قليلة . وكان نور الدين لا يستعظم اصابة أو خسارة
في سبيل الله : حدث أن أخاه نصره الدين أصيب في عينه في إحدى
المواقع ، فجعل يشكو فقال له نور الدين : لو علمت بما ادخره الله
لك في الدار الآخرة لتمنيت فقد الثانية !

وكان يحرص أشد الحرص على هيئته أمام قواده وجنده ، فلم
ير مبتسما الا نادرا ، لا عن جفوة في الطبع بل عن تمسك بالهيئة
والوقار . ولم أقرأ أنه ضحك الا مرة واحدة ، فقد روى أسامة بن
منقذ في كتاب « الاعتبار » أن نور الدين ضحك عندما رأى كلبة
تجري وراء ثعلب فعوضها الثعلب فعادت تعوى . وكان على مؤاخاته

لجندة وقضائه معظم أوقاته معهم لا يأذن لأحد من قواده في التماجن أو التضاحك في مجلسه ، وقد قرأ في بعض ما اطلع عليه من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن مجلسه كان جادا وقورا لا يجرى فيه لغو الكلام فأخذ نفسه بذلك .

وقد روى الحافظ أبو القاسم بن عساكر أنه « حضر مجلس صلاح الدين يوسف — لما ملك دمشق — فرأى فيه من اللفظ وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حد له . فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول ، لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم ، فقام . وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي . وتكرر من صلاح الدين الطلب له ، فحضر ، فعاتبه صلاح الدين يوسف على اقطاعه فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فاني رأيتك كبعض مجالس السوق : لا يستمع الى قائل ، ولا يرد جواب متكلم . وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ، فكننا — كما قيل — كأن على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، فاذا تكلم أنصتنا ، واذا تكلمنا استمع لنا . فتقدم صلاح الدين الى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم اذا حضر الحافظ » . ويبدو أن نور الدين أنشأ « دار العدل » لغرض تهذيب كبار قواده وردهم عن أذى الناس ، ودار العدل هي محكمة عليا يرأسها

نور الدين نفسه ، ومع أن بابها كان مفتوحا للناس جميعا ، الا أن اختصاصها كان في الغالب النظر في شكاوى الناس من كبار القواد ، ممن لا يجرؤ الناس على مقاضاتهم أمام القضاة العاديين ، وقد أنشئت بعد استقرار نور الدين في دمشق - فقد لجأ الأمراء والقواد إلى شراء الدور والعقار واستخدموا جاههم في الحصول عليها بالأثمان التي يريدونها ، وكان أسد الدين شيركوه من أكثر الناس اسرافا في ذلك . فلما نعى ذلك إلى نور الدين أمر بإنشاء دار العدل ، وأعلن أنه سيجلس فيها للفصل في القضايا يومين في الأسبوع - فخاف أسد الدين وأمر رجاله بأن يفضوا ما بينهم وبين الناس من منازعات ، وأن يرضوا من أخذوا منهم عقارا بأي ثمن ، فقالوا له : « ان الناس اذا علموا ذلك اشتطوا في الطلب ، فقال : خروج أملاكي عن يدي أسهل عليّ من أن يراني نور الدين بعين أنى ظالم » ، فأسرع رجاله بارضاء الناس ، فلما تم بناء دار العدل وجلس فيها نور الدين لم يتقدم أحد بشكوى من أسد الدين ، فسأل عن الأمر ، فقص عليه القاضي كمال الدين الشهرزورى ما جرى ، فقال نور الدين : « الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندها » . وثبتت لنور الدين أهمية هذه الدار ، فعممها في غير دمشق ، وزاد اقباله على الحضور فيها ، حتى كان

يجلس أربعة أيام في الأسبوع ، وكان يعطى هذه المحكمة حقها فيزيل الحجاب والبوايين حتى يصل اليه من يريد دون مشقة ، فاذا تقدم أحد بشكوى استفهم منه « بأبلغ نظام » كما يقول ابن الأثير، ولا يزال يسأل حتى يتضح له وجه الحق ، وكان يحضر الى جانبه كمال الدين الشهرزورى فيستشيره في الحكم قبل اصداره .

*

وقد أظهر نور الدين مهارة في شئون الادارة والمال قل أن نجدها حتى عند أحزم الاداريين ورجال المال على طول تاريخنا الماضي وعرضه . وكان له في شئون المال خاصة رأى كان الناس يحسبون أن دولة من الدول لا تصلح به : وهو الوقوف عند حد الشرع في الضرائب والأموال ، وكان الناس قبله قد ذهبوا مذاهب أدت بهم الى ترك أحكام الشرع جانبا .

فأما في أمور الحكم فكان للأتراك عرف قديم يسمى « الياسة » ، يخطيء بعض مؤرخينا القدامى والمحدثين فيحرفونه الى « السياسة » ، وكانت قواعده تقوم على العنف في العقوبة وأخذ الناس بالظنة واستحلال كل جريمة في سبيل تأييد الحكم والاستغناء عن شهادة الشهود اذا بدا للحاكم أن حضورهم متعذر . وقد وجد أولئك الحكام من الشيوخ من التمس لهم من الأحاديث

الموضوعة ما يبرر مسلكهم ، كاستنادهم مثلا الى حديث يقول :
الفتنة أشد من القتل ، وهو حديث موضوع يبيح للحاكم قتل من
يريد تفاديا لما يسميه الفتنة .

وكان الذى يتولى تطبيق هذا العرف عامل يسمى بالشحنة ،
أى ما يعادل رئيس الشرطة فى الماضى ، فكان الشحنة يستحل كل
شئ ، فيقتل أو يجلس أو يصادر أموال الناس تحت هذا الستار .
ولم يستسغ نور الدين ذلك ، وهو المؤمن الذى يقدر حدود الله
ويستعظم الأقدام على دماء الناس . فأصدر أمرا بالغاء الشحنة
وتقل اختصاصها الى القضاء ، وطلب اليهم أن يقفوا عند حدود
الشرع لا يتعدونها .

وساء ذلك الجند والقواد ورجال الدولة ، وضاقوا بغل أيديهم
وتقديم القضاة عليهم ، واستعانوا بالزهاد والمتصوفين فى رد
نور الدين عن رأيه ، وكان بين الصوفية والفقهاء من الخصومة
ما هو معروف فى كل زمان . فلما ألغيت الشحنة فى الموصل ،
جاء أكابر الدولة الى الشحنة السابق وقالوا له : « قد كثر الدعار
وأصحاب الفساد ، ولا يجيىء من هذا شئ الا بالقتل والصلب ،
فلو كتبت الى نور الدين وقلت له فى ذلك ! فقال لهم : أنا لا أكتب
اليه فى هذا المعنى ولا أجسر على ذلك ، فقولوا للشيخ عمر (الملا)

يكتب اليه ، فحضروا عنده وذكروا له ذلك ، فكتب الى نور الدين وقال له : ان الدعار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ويحتاج الى نوع « ياسة » ، فمثل هذا لا يجيء الا بقتل وصلب وضرب ، واذا أخذ مال انسان في البرية من يشهد له ؟ قال — أى ابن الأثير — فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره : ان الله تعالى خلق الخلق ، وهو أعلم بما يصلحهم . وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعها . فما لنا حاجة الى زيادة على ما شرعه الله تعالى . قال : فجمع الشيخ عمر الملا أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال : انظروا في كتاب الزاهد الى الملك ، وكتاب الملك الى الزاهد ! » .

وقد اشتد نور الدين في ذلك حتى عزم على ألا يولى أمور الحكم بين الناس الا الى القضاة ، حتى نوابه على المدن والامارات أمرهم بالألا يقطعوا برأى في أمر دون رأى الفقهاء والقضاة حتى يتأكدوا من اتفاقه مع الشرع . وضرب هو بنفسه المثل ، فحرص على أن يحضر الى مجلس القاضي اذا طلبه . ولم يكن يفعل ذلك طلبا لحسن الأحذوثة ، بل ايمانا منه بحرمة القضاء . وكان يتمثل في كل مرة بقول الله تعالى في سورة النور : « انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا » .

وقد بدت منه في مجالس القضاء بدوات لا تصدر الا عن نفس عظيمة ملاها حب الخير ، ومن ذلك أن رجلا ادعى حقا في بعض أملاكه فحضر أمام القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وطلب اليه أن يسلك معه ما يسلكه مع غيره ، فنظر القاضي ، وتبين أن لا حق للرجل فيما ادعى . فقال نور الدين للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا ، قال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني . وقد كنت أعلم أن لا حق له عندي ، وانما حضرت لتلايظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له !

وليست هذه أقاصيص مما ينسبها الناس الى أمثال نور الدين ويشتهه المؤرخون لهم في كتبهم ، لأنها تتفق وإيمانه وطبعه ، فان إيمانه العميق بالاسلام هو الذي حفزه على التزام حدود الشرع وترك ذلك العرف الجائر الذي أتى به الترك معهم ، وأما طبعه فقد كان رحيمًا لا يطبق القسوة على الناس ، وفي الشرعة الاسلامية رفق ورحمة توافق ذلك الطبع . ومن دلائل رفقته ما يجمع عليه المؤرخون من أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي كان الملوك يعاقبون بها في تلك الأعصر ، بل كان يكتفى بأيسر ما في الشرع من الجزاء ، ويتطلب البيّنات والشهود قبل أن يصدر على أحد حكما . وقد

عرضنا حياته فلم نره قتل أحدا أو ألقى في ظلمات المحابس بانسان،
ولم يصادر رجلا من رجاله مرة واحدة .

وهذا في رأيي أعجب ما في سيرته وحسناته ، فان قتل الوزراء
والعمال والخصوم ومصادرة أموال الناس أمر لم تخل منه سيرة
خليفة أو سلطان في هذه الأزمان . بل حفلت سير العظماء منهم —
كابن طولون والاشيد — بأخبار من قتلوهم وعذبوهم ، حتى
أصبح الناس يعتقدون أن ذلك من لوازم الحكم وضروراته ، بل
حسبه البعض فضيلة تنفر عن الحزم والقدرة ، فجاء هذا الرجل
وأثبت أن الملك القادر يستطيع أن يستغنى عن هذه المساءات كلها
ويقوم ملكه بدونها . بل لقد اشتهر نور الدين بأنه لم يجرح شعور
انسان بكلمة ، ولم يوجه لرجاله على الخطأ الجسيم الا أقل اللوم،
وكان أحرص ما يكون على عفة اللسان ، حتى يمكن القول بأنه
لم يكن لينطق الا عن تفكير ، فما حفظ له التاريخ كلمة نابية
لإنسان أو في حق رجل ، وهذه مرتبة في كمال الخلق لم يصل إليها
الا أفاضل نواب على طول التاريخ .

وكان ساعده الأيمن فيما طلب من إقامة الشرع قاضي القضاة
أبو الفضل كمال الدين محمد بن عبد الله بن المظفر الشهرزوري ،
وكان فقيها واسع العلم حسن الرأي بلغ عند نور الدين من المكانة

ما لم يبلغه غيره حتى أصبح كأنه وزيره ومشاوره ، وكان شافعي المذهب جرىء القلب ، فصيح العبارة ، أصله من الموصل ، وهناك عرفه عماد الدين زنكي واستقضاءه على بلده ، ثم اتصل بنور الدين وعلت مكائته عنده وولاه قضاء دمشق سنة ٥٥٥/١١٦٠ ، ثم لم يلبث أن أصبح قاضيا للقضاة فولى ابنه محيي الدين قضاء حلب ، وأقام اثنين من أبناء اخوته قاضيين على حمص وحماه ، وطال به العمر بعد ذلك فخدم صلاح الدين وكانت له عنده مكانة عظيمة ، وتوفي عام ٥٩٢/١١٩٥ عن احدى وثمانين سنة .

وقد أنكر الأمراء على القضاة هذه المكانة التي بلغوها على أيام نور الدين ، فصاروا يفتابونهم في مجلسه المرة بعد المرة ، حتى نال أحد الأمراء يوما من القضاة قطب الدين النيسابوري الشافعي فقال له نور الدين : « يا هذا ، ان صح ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها . ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا — ان صحت — مع وجود حسنته على ؟ اننى والله لا أصدقك فيما تقول ، وان عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنك » .

وهكذا كف نور الدين الأمراء وأهل الحكم عن الفقهاء والقضاة وأهل العلم ، ومع ذلك فهو لم يطلق أيديهم فى الأمور ، بل حرص كذلك على أن يحول بينهم وبين الاستبداد ، وكان يعتمد فى تعرف أصول الدين وأحكام الشرع على الزهاد والمتصوفة والعلماء ، ممن لا يتولون مناصب يرتزقون منها ، فهؤلاء كانوا صحابته وخاصته ، أوسع عليهم النفقة وجالبهم وأفضى اليهم بما فى نفسه ، فكانوا يخلصون له النصح ، ويدلون على صحيح الأحكام حتى لا يجمع الجاه بالفقهاء والقضاة .

ومن دلائل حرصه على ألا يخلعه الشيوخ أنه وجد خطباء المساجد يبالغون فى الدعاء له ويصفونه بهذه العبارات الرنانة التى تعودوا أن يتقربوا بها الى قلوب السلاطين ، فطلب الى خالد بن محمد بن نصر القيسرانى أن يوقف ذلك وأن يكتب له صيغة دعاء بسيطة ليس فيها الا ما يطابق الواقع من حاله وأفعاله ، فكتب له صيغة هى : « اللهم أصلح عبدك الفقير الى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد فى سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين » ، فقرأ نور الدين نسخة الدعاء وعلق عليها عبارة نوردها بنصها ، لأنها تعطينا فكرة عن أسلوبه فى كتابة العربية : « مقصودى

ألا يكذب على المنبر . أنا بخلاف كل ما يقال . أفرح بما لا أعمل ؟
 قلة عقل عظيم ! الذى كتبت جيد هو . اكتب به نسخ حتى نسيره
 الى جميع البلاد » . ثم أضاف : « ثم يبدأوا بالدعاء : اللهم أره
 الحق حقا ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم وفقه .. من هذا
 الجنس » .

وكان — على تواضعه ورفقه — شديد الاحساس بما ينبغى
 للرياسة من هبة ، وقد رأينا مجلسه وما كان يسوده من جلال ،
 ونضيف عبارة قالها ابن الأثير : « وأما هيته ووقاره فاليه النهاية
 فيهما ، ولقد كان كما قيل : شديدا فى غير عنف ، رقيقا فى غير
 ضعف . واجتمع له ما لم يجتمع لغيره ، فانه ضبط فاموس الملك
 مع أجناده وأصحابه الى غاية لا مزيد عليها ، وكان يلزمهم بوظائف
 الخدمة (أى بواجبات التحية) الصغير منهم والكبير ، ولم يجلس
 عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب — والد
 صلاح الدين يوسف — وأما من عداه ، كأسد الدين شيركوه ،
 ومجد الدين بن الداية وغيرهما ، فانهم كانوا اذا حضروا عنده
 يقفون قياما الى أن يأمرهم بالقعود . وكان مع هذه العظمة وهذا
 التاموس القائم اذا دخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له
 ويمشى بين يديه ، ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه ، وكان

إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول : هؤلاء لهم في بيت المال حق ، فإذا قنعوا ببعضه فلهم المنة علينا » .

وقد التزم نور الدين أحكام الشريعة أيضاً فيما يتصل بما يجبى من الضرائب ، وقد كانت مقاديرها ووجوهها قد تزايدت مع الزمن حتى أن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكساً (أى ضريبة) يصل الى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها . وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها ، حتى استغنى الكثيرون من التجار عن المتاجرة وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكاهم في بلاء شديد ، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما يتقوتون به ، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب الى نفر من الجهابذة التزاماً ، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبى أضعافه من الناس . وليتهم مع ذلك قاموا بحماية الناس ورعاية المرافق !

فاستقر رأى نور الدين على أن يلغى كل الضرائب التي لا يقرها الشرع ، وقد راع ذلك رجال الدولة واحتج عليه أسد الدين شيركوه ، وبعث الى نور الدين يقول : « فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيتهم ؟ » فكان رد نور الدين : « ان كنا نفزو من هذه الجهات (أى من هذه الموارد) تركها ونقعد

ولا نخرج . فقال شيركوه ما معناه : « ان أعداءك لا يتركونك
تقعد ! » فسكت نور الدين ، ومضى يتدبر الأمر بضعة أيام ، ثم
أصدر أمره بإلغاء الجبايات غير الشرعية جميعا ، وأرسل بذلك
منشورا الى كل الجهات .

والحقيقة أن الجانب الأكبر مما كان يجبي من هذه الضرائب
المستحدثة كان يتسرب الى أيدي الجباة والعمال والوزراء وحواشي
القصور ، فقد أحصى نور الدين بعد ذلك ما كان يتحصل له من
المكوس والضمانات والعشور والمعونة وما اليها فلم يزد على
١٦٥٠٠٠ دينار ، وهو مبلغ ليس بالكبير ، ولا تختل بسببه ميزانية
ولا يتوقف جهاد ، أما الذي توقف فهو السلب والنهب وارهاق
الناس . ولم يكتف نور الدين بذلك ، بل أمر خطباء المساجد بأن
يطلبوا الى الناس أن يسامحوه فيما جبي منهم قبلا من هذه
الضرائب ، وكتب الى الخليفة كتابا يعلمه بذلك حتى لا يصير على أن
يتقاضى منه من المال ما كان يأخذه قبلا ، ولم يغفر هو لنفسه
ما جباه من هذه الوجوه الباطلة ، فكان يدعو الله أن يغفر له ،
ويقول : « اللهم ارحم العشار المكاس ! » .

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل ، فأخرج
التجار أموالهم ومضوا يتاجرون ، وأعلن كل انسان ما عنده ،

فجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام . فأقبل يعد للجهاد آله مما آتاه الله ، ونشط في البناء والتعمير حتى أنفق فيهما الملايين بعد الملايين من الدنانير ، وقد أعانه على ذلك أنه لم تكن له نفقات خاصة : لا قصور ولا خدم ولا حشم ولا جوار ولا مجالس أنس تملأ أفواه الندامى فيها بالدر والدنانير جوائز على آيات من شعر الملق السخيف . وهذه هي الأبواب التي استنفدت ثروات الخلفاء والملوك قبله وبعده . هذا رجل اكتفى بإيسر الضرائب ، واستطاع بالقليل الذي وصل إليه أن يهيم الجيوش بعد الجيوش ، ويبنى مئات المدارس والمساجد والمستشفيات ، ويقم أسوار المدائن وقلاعها ويشك كل قلعة بالجند والذخائر والأقوات . نعم انه كان يشكو الضائقة بين الحين والحين ، حتى كان يستدين المال ممن يأنس فيهم القدرة ، ولكنه لم يأخذ من أحد دينارا الا رده ، وخلف في خزائنه من الأموال بعد ذلك قدرا طيبا بدده من تولوا أمور البلاد بعده في الشام في شهور !

وقد أورد أبو شامة وصف مجلس عقده نور الدين في دمشق في ١٩ صفر سنة ٥٥٤ / ١١ يوليو سنة ١١٤٩ دعا اليه القضاة وكبار رجال الدولة فيها ونفرا من الأعيان وشهود العدالة فيها للنظر معهم

فى شئون الأوقاف المرصدة للجامع الأموى . وكان شيوخ الجامع
فىما مضى قد أدخلوا فى أوقاف الجامع عقارات وأعيانا أخرى داخله
فى المنافع العامة ، فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك ، لئلا
يستخدم أموال المنافع العامة فى « سد ثغور المسلمين وبناء السور
المحيطة بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريم أموالهم » إذ أن
هذه كانت عنده « أهم المصالح » ، وقد تناقش الحاضرون فى
الموضوع على أسلوب حر طلق هو أقرب ما يكون الى ما نعرفه
من مناقشات أرقى مجالس النواب ، وأقر المجلس رأيا لا يتفق
تماما مع ما أراده نور الدين ، فلم يأذنوا له بصرف « فواضل
الأوقاف فى عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على
المسلمين » وأجازوا له أن يأخذ من هذه الفواضل قرضا يستخدمه
فى تلك الوجوه على أن يرده من بيت المال . ومع شدة حاجة نور
الدين الى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع فى ذلك الحين ، فانه
قبل رأى المجلس بنفس راضية ، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة
أو فواضل أموالها احتراما للرأى وتكريما للدين ورجاله .

*

ونختم هذه الصفحات ببعض اشارات وردت فى الكتب عن
صفاته وأحواله فى بيته وبين أهله : كان نور الدين أسمر طويل

القامة وسيم القسمات ، أظهر ملامح وجهه جمال عينيه واتساع جبهته وقلة شعر لحيته فى العارضين وغزارته أسفل الفم . وكان قليل الكلام لا يتكلم الا لضرورة ، ولا يخرج كلامه عن شئون الدولة وأمور الجهاد ومصالح الناس . فاذا تبسط فى الحديث كان ذلك مع الفقهاء والقضاة وأهل العلم والزهد والعبادة ، يتعلم منهم ويطلب اليهم الرأى فيما يحزبه من أمور ، أو يستمع الى دروس فى الحديث النبوى أو تفسير القرآن وأخبار الصالحين من الخلفاء ورجال الاسلام الأول .

وكان مفتونا برسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى أن يجرى على نهجه وسنته فى كل ما يفعل ، وقد أشرنا فى سياق كتابنا الى اجتهاده فى ذلك ، ونضيف أن الأمر بلغ به أنه سمع مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج للحرب متقلدا السيف ، أو معلقا اياه فى حمائل تدور حول الرقبة كأنها القلادة بخلاف ما جرت به عادة المحاربين فى أيام نور الدين من تعليقه بحزام يدور حول الوسط ، فأصدر أمره الى قواده بتقلد السيوف ، وخرج هو بنفسه وسيفه على هيئة سيف الرسول عليه السلام .

وكان نور الدين قد استعرب لسانا وقلبا ، وقد مرت عملية استعراب السلاچقة والتركان والإكراد فى دور طويل نستطيع أن

تبيينه اذا نحن تتبعنا تطور الأسماء ، فقد كانت الأجيال الأولى منهم تحمل أسماء تركية أو كردية أو فارسية خالصة ، مثل طغرل بك وتمرناش وأتسز ، وفى الجيل الثانى أضيفت الى الأسماء الأعجمية ألقاب تشریف لا تعتبر جزءا من الاسم كقولهم : الملك المعظم ملكشاه ، أو قسيم الدولة آق سنقر ، ثم صاروا يسمون بأسماء عربية اسلامية مضافة الى الأسماء التركية كقولهم عماد الدين زنكى ومعين الدين أنر وظهر الدين طغتكين .

ونلاحظ أن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة ، فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة ، فيقولون : عضد الدولة وبهاء الدولة وصمصام الدولة ، كان السلاجقة يختارون : عماد الدين وسيف الدين ومعين الدين وما الى ذلك .

ثم جاء جيل نور الدين عربى الأسماء ، فاخترت الألقاب التركية ، كما نرى فى نور الدين محمود وسيف الدين غازى ووقطب الدين مودود ونصرة الدين محمد . وبعد نور الدين سارت العملية الى أبعد من ذلك ، فالتمسوا لأنفسهم أنسابا عربية تقطع الصلة بينهم وبين ماضيهم ، فقالوا مثلاً فى نسب صلاح الدين انه : ابن أيوب بن شادى بن مروان بن على بن عنترة الحسن بن على

ابن أحمد وهكذا الى الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ،
والمعروف أن آباءه من الأكراد الروادية أحد بطون الهذباتية من
بلدة تسمى دوين في آخر آذربيجان من جهة اران وبلاد الكرج .
وكان نور الدين يتكلم العربية كما يتكلمها أهل عصره في
الموصل وحلب ، فاذا كتبها كتب بأسلوب بسيط عملي لا يلتزم فيه
قواعد النحو ، وقد يخلط به بعض الدارج كما رأينا في النموذج
الذى أورده . ومن أمثلة كلامه رأيه في مسألة ضرب دينار باسمه
والغاء القراطيس ، ذلك أن الأساس في المعاملة المالية على أيامه كان
الدينار ، وكان عياره قد اختل حتى أصبح الناس يفضلون التعامل
بالدنانير السورية أى الافرنجية التى تأتى من الدولة البيزنطية أو
حملها الصليبيون والچنويون والبندقيون وغيرهم من الايطاليين
الى الشام ، وكانت تحمل صور الملوك على أحد وجهيها ، وكانت
ثابتة العيار والقيمة . وكانت كسور الدينار تسمى القراطيس ،
وهى عملة فضية مفردها قرطاس ، فلما اضطرب عيار الدينار اختلف
عدد ما فيه من القراطيس ، فصارت حيناً ستين وحيناً سبعة وستين ،
واختلفت الدنانير من الأسواق ، وأصبح التعامل بها اسماً ، أى
بقيمتها من القراطيس ، فاقترح الناس على نور الدين أن يلغى ذلك
كله ويضرب ديناراً باسمه ثابت القيمة وابطال التعامل بالقراطيس ،

فقال : « اذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقرطيس فكأنى خربت ييوت الرعية ، فان كل واحد من السوق عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس : ايش يعمل به ؟ فيكون سببا لخراب بيته . » ولم يتزوج نور الدين الا امرأة واحدة هي عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، ولم يذكر له المؤرخون من الأبناء الا بنتا وولدا واحدا هو اسماعيل الملقب بالملك الصالح ، أنجبه وهو في السابعة والأربعين من عمره ، وتركه صييا يتيما في الحادية عشرة .

وقد أقام اسماعيل أولا مع شمس الملك بن المقدم صاحب دمشق ، ثم انتقل الى حلب بعد أن صارت دمشق لصالح الدين . وقد أساء رجال حلب الذين كانوا يتولون الوصاية على اسماعيل التصرف مع صلاح الدين ، فقرر تأديبهم ووصل اليها في سنة ٥٧١/١١٧٥ وقد صمم على انتزاعها من أيديهم . وكان اسماعيل غلاما في الثانية عشرة من العمر ، فمضت أخته الى صلاح الدين في الليل « فدخلت عليه فقام قائما وقبل الأرض بين يديها وبكى على نور الدين ، فسألته أن يرد عليهم « عزاز » فأعطاها إياها ، وقدم اليها من الجواهر والتحف شيئا كثيرا . واتفق مع الملك الصالح (اسماعيل) أن من حماه وما فتحه (صلاح الدين) الى مصر له ، وباقي البلاد الحلبية للصالح . »

وقد قنع اسماعيل بن نور الدين بحلب ، ولكن اخوة صلاح الدين وأقاربه مضوا يضيقون عليه ويتهددونه حتى عاش السنوات القليلة الباقية من عمره في خوف منهم . وقد أدركته منيته وهو شاب دون العشرين ، فتوفي عام ٥٧٧/١١٨١ وكان كأييه شديد التدين ، حتى لقد وصف الأطباء له شرب شيء من الخمر عندما زادت به علة القولنج ، فقال : « لا ، حتى أسأل الفقهاء » فسأل الشافعية وبعض الحنفية فأفتوه بالجواز ، فلم يقبل ، وقال : « ان الله تعالى قرب أجلى ، أيؤخره شرب الخمر ؟ » قالوا : « لا » قال : « فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم على » ، فمات ولم يشربها . وفي ذلك العام بالذات كانت أفراح أمثاله من الشباب من أولاد صلاح الدين وأخيه العادل أبي بكر على قدم وساق ، فتزوج ثلاثة من أبناء صلاح الدين ثلاثا من بنات العادل في ليلة واحدة ، وغطت بهجة الأفراح على حشرات الباكين في صمت في حلب يندبون نهاية نسل صاحب الفضل في ذلك كله : نور الدين محمود .

بیان

بہم الاعلام غير العربية الوارد ذكرها في الكتاب ، اوردناها
بحسب الابدية الأفرنجية ، واستغنيا عن ذكر ما يقابل كل
لفظ غير عربي في سياق النص

Adhemar de Monteil	أديمار دي مونتي
Agnès de Courtenay	آجنس دي كورتنيہ
Alfonso Jordán, comte de Toulouse	آلفونسو چوردان ، كونت تولوز
Amadeus, comte de Savoie	آماديوس ، كونت ساوا
Andronicus Contostephanos	آندرونيكوس كونتوستفانوس
Andronicus Ducas	آندرونيكوس دو كاس
Arnulf Mâlecorne von Rohes	آرنولف ماليكورن فون روہ
Baudouin de Boulogne	بلدوين دي بولونيا
Baudouin de Le Bourg	بلدوين دي ليبورج
Baudouin III	بلدوين الثالث
Baudouin IV	بلدوين الرابع
Baudouin de Ghent	بلدوين دي غنت
Bernard de Clairvaux	برنار دي كليرفو
Bertrand de Blancfort	برتراند دي بلانكفور
Bertrand de Le Puy	برتراند دي ليپوي
Bertrand de Toulouse, comte de Tripolis	برتراند دي تولوز ، كونت طرابلس
Bertrand le batard de Toulouse	برتراند الزنيم ، حفيد رايمند صاحب تولوز
Betrada de Monfort, comtesse d'Anjou	برترادا دي مونفور ، كونتيسة أنجو

Bobastro	بوشتو (مدينة قرب سرسطة)
Bohemond de Tarento	بوهيموند (بيمند) أمير طارنط
Caeser Johannes Roger	قيصر حناروجر
Constance, Régente d'Antioche	كونستانس وصية أنطاكية
Constantin Coleman	قسطنطين كولومان
Constantin X	قسطنطين العاشر
Diambert ou Dagobert	ديامبير أو داجوبير
Eléanore d'Aquitaine	إليانور الأquitaine
Elinand de Bures	إليناند دي بور
Emma, comtesse de Jaffa	إما ، كونتيسة يافا
Entienne, comte de Blois	اسطفان كونت بلوا
Eschiva de Bures	استشيفا دي بور
Eudacia	يوداشيا
Eugenius III	يوجين الثالث (البابا)
Eustache de Césarée	يوستاش القيصرى
Everard de Le Puits	ايفيرارد دي ليپوي
Evremar de Therouannes	إيفريمار دي تروان
Frédéric von Schwabenland	فردريك أمير سوابيا
Fulk, comte d'Anjou	فولك ، كونت أنجو
Gaudefroy de Bouillon	جودفروا دي بويون
Gaudefroy, duc de Lorraine	جودفروا دوق اللورين
Guibelin de Sabran	جيبيلين دي سابران
Guienne	جينيئن
Guilbert d'Assailly	جيلبير داسيلي
Guillaume de Nevers	ويليام دي نيفيه
Guillaume Jordan	ويليام جوردان

Guy Brisebarre de Berpouthe	جی بریسه بار دی باریوت
Guynemer de Boulogne	جونیمیر البولونی
Henri, comte de Champagne	هنری ، کونت شمپانیا
Heinrich von Oesterreich	هاینریخ امیر النمسا
Hodierna, comtesse de Tripolis	هودیرنا ، کونتیسسه طرابلس
Hugh (Hugue) de Bourgogne	هیو (هیچ) دوق برغندیا
Hugh (Hugue), comte de Vermandois	هیو (هیچ) کونت ویرماندوا
Hugh (Hugue) de Lusignan	هیو (هیچ) دی لوزیان
Hugh de Payne	هیو دی باین
Hugh (Hugue) Garnier de Gaesares	هیو (هیچ) جارنیه صاحب قیصریه
Hugh (Hugue) de Le Puiset, comte de Jaffa	هیو (هیچ) دی لیویزیه کونت یافا
Hugh Falconberg de St. Omer	هیو فالکنبرج دی سانت اومیر
Hugo von Tübingen	هوگو فون توبینگن
Irène von Saltzbach	ایرین فون زالتسباخ
Joseph Tarkhaniotis	یوسف طرخانیوتس
Joscelin	جوسلین
Joveta (Yvette)	جوویتا (ایثیت)
Konrad von Hohenstaufen	کونراد فون هوهندشتاوفن
Manuel Comnenos	مانوئل (منویل) کومنین
Manzikart	ملاذکرد ، منازکرد
Melisende	ملیزاند
Menasses de Eyberg	منسی دی ایبرج
Michael Dukas	میخائیل دوکاس
Miles de Plancy	میل دی پلانسی
Mleh	ملیح الارمنی
Otto von Freisengen	اوتو فون فرایزنجن
Pierre l' Hermite.	پطرس الناسک

Polislav	بولیسلاف ملک بولندا
Pons, comte de Tripolia	بنص ، کونت طرابلس
	رایموند دی سان جیل ، کونت تولوز (صنجیل)
Raymond IV de St.—Giles, comte de Toulouse	
Raymond de Poitiers, prince d'Antioche	رایموند دی بواتیه
Raymond de Le Puy	رایموند دی لیپوی
Reinaud de Chatillon	رینو دی شاتیون
Reinaud de Marosh	رینو صاحب مرعش
Reinaud de Saint-Valéry	رینو دی سان فالیری
Reinaud Garnier	رینو جارنییه
Robert Borsa, duc d'Apulie	روبرت بورسا ، دوق ابولیا
Robert, compte de Flandre	روبرت ، کونت فلاندر
Robert de Rouen	روبرت دی روان
Robert, duc de Normandie	روبرت ، دوق نورماندیا
Robert Guiscard	روبرت جسکار
Roger le Bourg	روجیه لیبورج (روجیل)
Romaus IV Diogènes	رومانوس او آرماتوس ، الإمبراطور
Roussel de Bailleul	روسل دی بایول
Sibylla	سیبیلا
Thierry d'Alsace, comte de Flandre	تیری دالزاس ، کونت فلاندر
Thoros I	توروس ملک الأرمن
Viterbo	فیتربو (مدینه بجنوب إيطاليا)
Vdalsialv von Boemen	فلادیسلاف ملک بوهیمیا
Walter de Mesnil	والتر دی مسنیل
Walter Sans-Avoir	والتر المفلس
Urban II	أربان الثاني (البابا)

المراجع

١ - مراجع عربية

ابن الأثير ، عز الدين على بن محمد : الكامل في التاريخ ، طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة (بدون تاريخ) ج ٨ و ٩ .

Recueil des Historiens des croisades. Historiens Orientaux. Tom. II Paris. طبعة باريس ضمن

ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس : وفيات الأعيان ، طبعة محيى الدين عبد الحميد ، في ٦ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ .

ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع : النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية . القاهرة ١٣١٧ .

ابن العديم ، عمر بن عبد العزيز بن أبي جرادة : بنية الطلب في تاريخ حلب ، نشره الدكتور سامى الدهان ، دمشق ١٩٤٨ - ١٩٥٠ .

ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، طبعة مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠ هـ ، ج ٤ .

ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي : ذيل تاريخ دمشق ، نشره أ.ف. أمدوز ، بيروت ١٩٠٨ .

ابن واصل ، جمال الدين محمد : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، نشر الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ والجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٧ .
أبو شامة المقدسى ، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل : كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين ، نشره أبو السعود أفندى المترجم ، القاهرة ١٨٧٠ ، ونشر قسما منه يصل إلى حوادث ٥٥٨ الدكتور محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٥٦ .

المذيل على الروضتين (طبع في مصر باسم : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف
بالمذيل على الروضتين) القاهرة ١٩٤٧ .

أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، ج ٥ (١٩٣٥) و ٦ (١٩٣٦) .

أسامة بن منقذ : ديوان أسامة بن منقذ ، نشره الدكتور حامد عبد المجيد والأستاذ أحمد
أحمد بلوى ، القاهرة ١٩٥٣ .

كتاب الاعتبار ، نشره هارتويج ديرنبور ، باريس ١٨٨٦ .

حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى (مذيل بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الافرنجية
(Gesta Francorum) القاهرة ١٩٤٧ .

نور الدين والصليبيون ، حركة الإفاقة والتجمع الإسلامى فى القرن السادس الهجرى ،
القاهرة ١٩٤٨ .

عماد الدين الأصفهاني ، الفتح بن على بن محمد البندارى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ،
طبعة لاندزفرج ، لايدن ١٨٨٨ .

تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ١٩٠٠ .

خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر ، نشره الدكتور : أحمد أمين وشوقي
ضياف وإحسان عباس ، ج ١ و ٢ ، القاهرة ١٩٥١ ؛ قسم شعراء الشام ، نشره شكرى
فيصل ، دمشق ١٩٥٥ .

محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، تونس ١٩٥٤ .

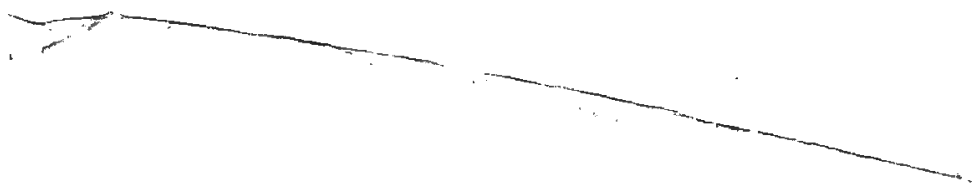
المقريزى ، قى الدين أحمد بن على : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الأول من الجزء
الأول ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ .

اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ،
القاهرة ١٩٤٨ .

ب - مراجع غير عربية

- Anna Comnena, *Alexiad* (ed. B. Leib), in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*. 3 Vols. Paris, 1937-1945.
- Cohen, Claude, *La Syrie du Nord à l'Époque des Croisades*. Paris, 1940.
- Dussaud, René. *Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale*. Paris, 1927.
- Fliche, A., et Martin, V., *Histoire de l'Eglise*. Vol. VII. Paris, 1940.
- Fulcher von Chartres, *Gesta Francorum Hierusalem*. (ed. H. Hagenmeyer). Heidelberg, 1913.
- Gibb, Hamilton A.R., *The Damascus Chronicle : Extracted and translated from the Chronicle of Ibn al-Qalanisi*, London, 1932.
- Grousset, René, *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*. 3 Vol. Paris, 1934-1936.
- Guillaume de Tyre, *L'Estoire de Bracles ... et la conquête de la Terre d'Outremer*. (dans *Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Occidentaux*. Vol. I.)
- Michel le Syrien, *Chronique* (éd. avec traduction française par J.B. Chabot. 4 Vols. Paris, 1899-1910).
- Roger le Tourneau, *Damas de 1075 à 1154. Traduction annotée d'un fragment de l'Histoire de Damas d'Ibn al Qalanisi*. Damas, 1952.
- Runciman, Steven, *A History of the Crusades*. 3 Vols. London, 1957-58.
- Stevenson, W.B., *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.
- Vaziliev, A., *Histoire de l'Empire Byzantin*. 2 Vols. Paris, 1932.

3



للمؤلف

مؤلفات :

١ - تاريخ :

- ١ - الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٨ .
- ٢ - فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ (الطبعة الثانية المزيّدة فى المطبعة) .
- ٣ - Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1948.
- ٤ - صور من البطولة (طبعتان ، القاهرة ١٩٤٩ و ١٩٥٦) .
- ٥ - مصر ورسالتها (طبعتان ، القاهرة ١٩٥٥ و ١٩٥٦) .
- ٦ - Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration with R. Roolvink and Others). Admsterdam, 1957.
- ٧ - مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية الإخشيديين - فصل فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » الذى تنشره وزارة الثقافة والإرشاد القومى .
- ٨ - فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ .

ب - أدب :

- ١ - حكايات خيرستان ، قصص رمزية .
- ٢ - أهلا وسهلا ، قصة مصرية طويلة .

أبحاث :

- ١ - عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، نشر فى الجزء الثانى من المجلد الثانى عشر من حوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة .
- ٢ - تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس ، نشر فى المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .

- ٣ - وثائق عن مهلى السودان ، نشر فى العدد الثانى من المجلد الثمانى من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس .
- ٤ - غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتى ٢٢٩ و ٨٤٤ / ٨٥٩ م ، نشر فى العدد الأول من المجلد الثانى من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٥ - السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٦ - المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، نشر فى العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .
- ٧ - المجتمع فى الدستور ، بحث نشر فى كتاب « روح الدستور » ، وهو رقم ٢٥ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٨ - لكى لا ننسى .. هذا صوت التاريخ ، بحث نشر فى كتاب « قنساء السويس - حقائق ووثائق » ، وهو رقم ٢٩ من سلسلة « اخترنا لك » .
- ٩ - سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١٠ - De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ .
- ١١ - Egipto y el Mediterraneo ، فصل نشر بالإسبانية والفرنسية فى كتاب Panorama del Mundo Árabe ، الذى نشره معهد العلوم السياسية فى مدريد سنة ١٩٥٤ .
- ١٢ - نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥ .
- ١٣ - أسس المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، للونشريشى . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .
- ١٤ - La división político - administrativa de la Espana musulmana . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧ .
- ١٥ - الفولكلور ، تاريخه ومدارسه ومناهجه . صحيفة « المجلة » العدد ٢٣ سنة ١٩٥٨ .

نشر وتحقيق :

- ١ - رياض النفوس لأبي بكر المالكي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

ترجمة :

- ١ - الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .
٢ - الشعر الأندلسي لغرسية غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٢ و ١٩٥٧ .
٣ - تاريخ الفكر الأندلسي لـجونزالد بالثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥ .
٤ - ثم غاب القمر ، مسرحية في ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is Down لـجون شتاينبك ، القاهرة ١٩٥٦ .



جنوب الشام



فهرس

صفحة	
٧	مقدمة
١٣	١ - عقيدة التوحيد والاتحاد
٣١	٢ - صورة القرن الخامس الهجرى
٥٩	٣ - مأساة الحملة الصليبية الأولى
١٠٥	٤ - طلائع الوحدة
١٤٩	٥ - رائد النصر : عماد الدين زنكى
١٨٣	٦ - ظهور نور الدين والحملة الصليبية الثانية
٢٣١	٧ - نور الدين يضم دمشق إلى جبهة الجهاد
٢٧٧	٨ - اكتمال الوحدة : مصر فى صفوف المجاهدين
٣٢٩	٩ - الراية تنتقل من بطل إلى بطل
٣٦٣	١٠ - صورة مجاهد
٤١١	بيان بأهم الأعلام غير العربية الوارد ذكرها فى الكتاب
٤١٥	المراجع